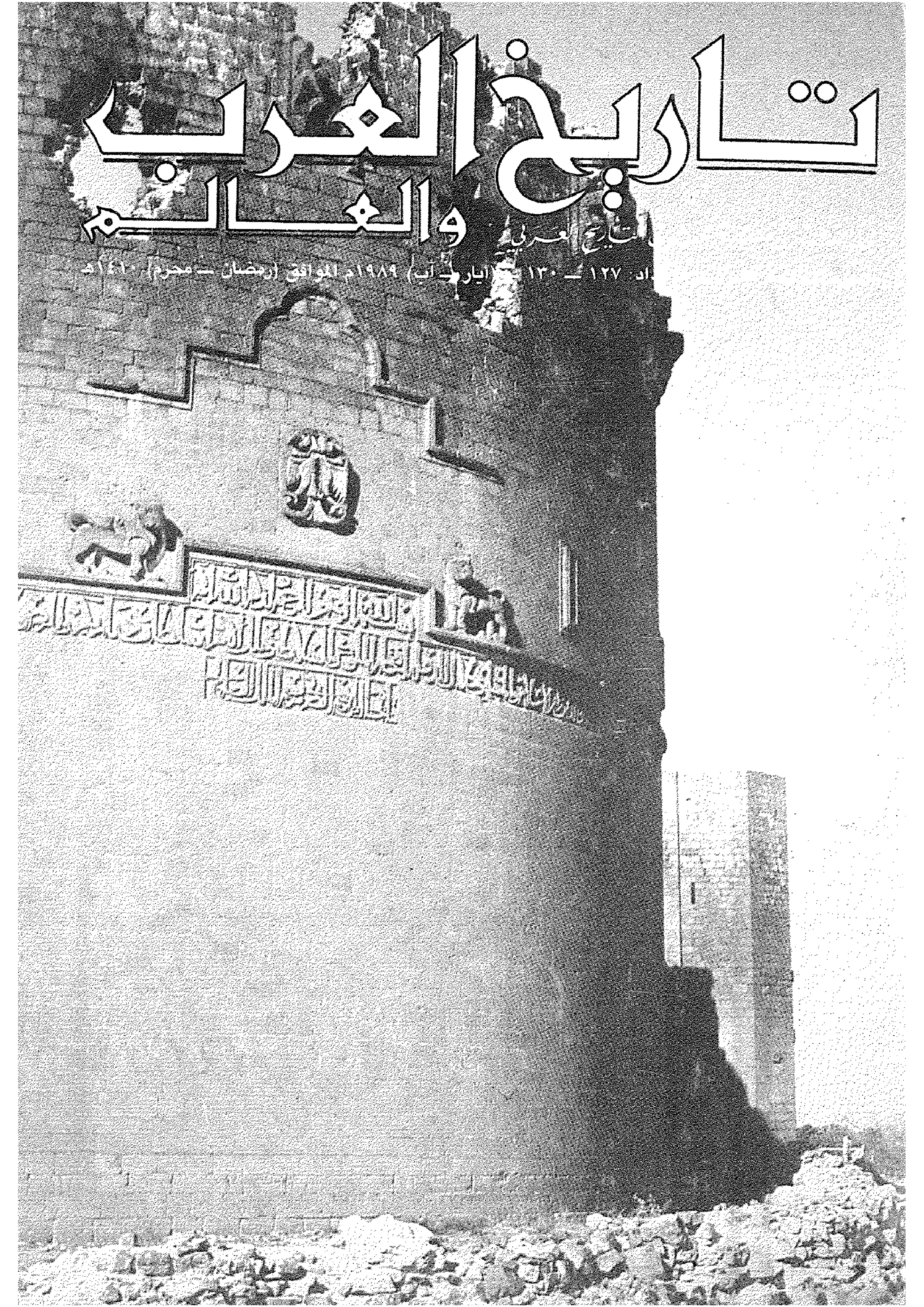
تاريخ العرب والعالم

التاريخ العربي

اد ١٢٧ ــ ١٣٠ (ايار ــ آب) ١٩٨٩م الموافق (رمضان ــ محرم) ١٤١٠هـ



تاريخ العرب والعالم

الأعداد ١٢٧ — ١٣٠ (أيار — آب) — ١٩٨٩

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها فاروق البربير

المستشار د. أنيس صايغ المدير المسؤول محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات علي عبدالساتر

الإنتاج مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان : ٧٥٠ ل.ل.	سوريا : ٣٥ ل.س.
العراق : ١ دينار	تونس : ١,٥ دينار
السعودية : ١٠ ريال	الكويت : ١ دينار
الأردن : ٨٠٠ فلس	الامارات : ١٠ درهم
البحرين : ١ دينار	قطر : ١٠ ريال
مسقط : ١٠٠٠ بيزة	بريطانيا : ١,٥ جنيه
صنعاء : ١٠ ريال	ليبيا : ١ دينار
	مصر : ١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان للأفراد ١٥ دولار
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥ دولار
- في الوطن العربي للأفراد ٣٥ دولار
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولار
- خارج الوطن العربي للأفراد ٥٠ دولار
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٥٠ دولار
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠٠ دولار
- تدفع قيمة الاشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ — بيروت، لبنان ● بناية ابو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات — تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 15 No. (127-130). MAY-AUGUST 1989

ANNUAL SUBSCRIPTION ; $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



واقـع... وأمل

مرة أخرى، نعود اليوم إلى قرائنا ومشتركينا، مـع هذا «العدد الخاص»، جاعلين منه بديلاً عن (أيار ــ حزيران) و (تمـوز ــ آب) وسنوالي تغطية مدة الحرب بعدد خاص آخر يغطي عددي الأشهر (أيلول ــ ت ١) و (ت ٢ ــ ك ١) المتبقية من هذا العام.

إن الكلمات وحدها لا تستطيـع أن تكتب تـاريـخ الأشهر الثمانية من تاريخ الحرب التدميرية التي شملت الجبل وبيروت بصورة خاصة وأدت إلى إقفال مطار بيروت الدولي وشل العاصمة شللاً شبه كامل. فهناك شـح في المياه والكهربـاء، وهناك نقص فاضـح في البنزين والمحروقات، وهناك مشكلة ورق ومشاكل مطابـع، وهناك بالنسبة للصحافة بصورة خاصة، مشكلة سـوق وتوزيـع أصبحت شبه معدومة.

لقد حاولنا بكل صدق وإخلاص وعلى الرغم من هذا الواقع المرير والقاسي الذي كنا نعيشه في بيروت، تحت القصف المدمر اليومي، أن نستمر بالصدور، لأننا نؤمن أن هذا حق القارىء علينا وواجب مقدس يفرضه علينا الواجب القومي. ولكن الأماني شيء والواقـع شيء آخر.

ونعد الجميـع، وخاصة مشتركينا الكرام أن مجلة «تاريـخ العرب والعالم» ستواصل المسيرة خلال سنتها الثانية عشرة القادمة، إن شاء الله، وهي كلها ثقة وأمل بموآزريها في لبنان وفي كل أرجاء الوطن العربـي، الذي من خلاله تستمد قوتها ودعمها واستمرارها.

فاروق البربير



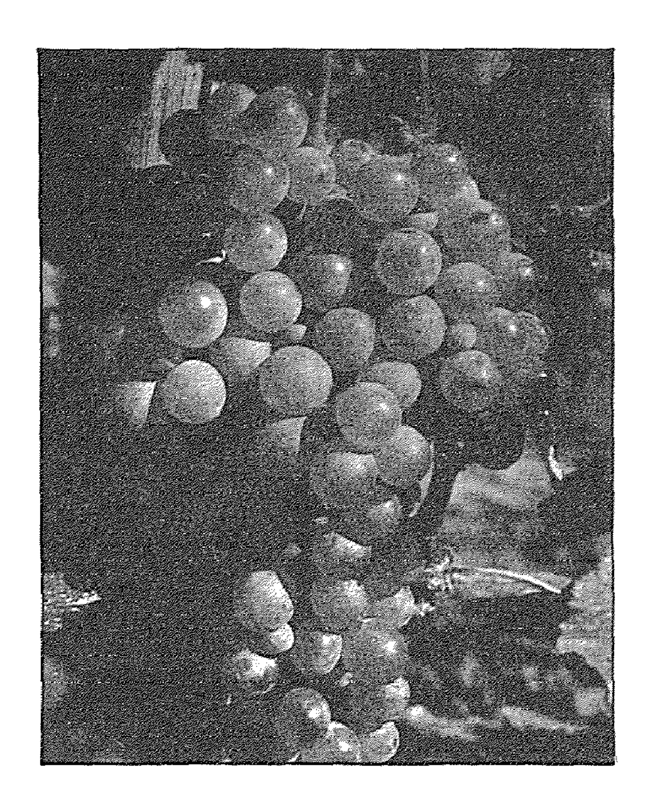
□ حائط من حجر البازلت الأسود، من بقايا برج عسكري في ديار بكر (العراق) وتظهر عليه النقوش والكتابة الدينية.

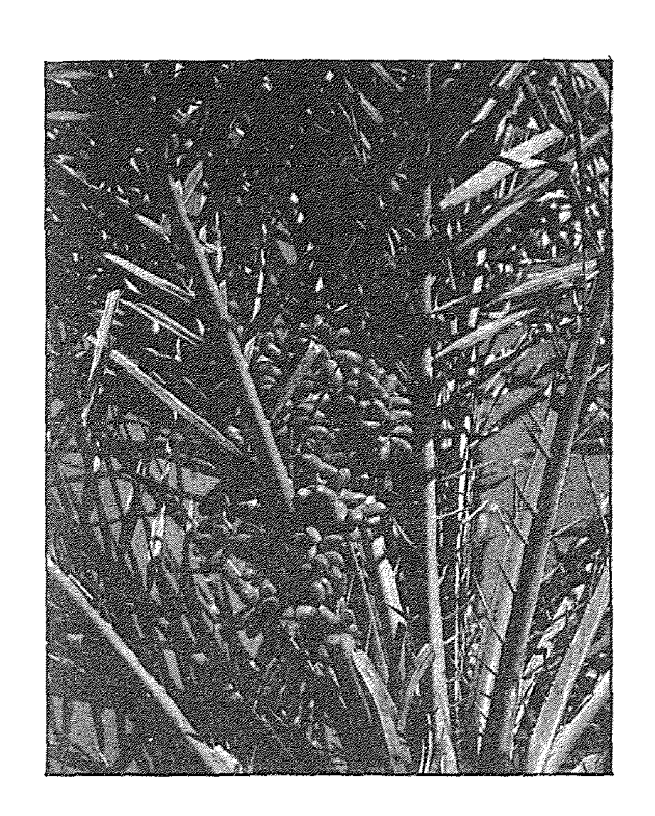
من كتاب:
Architecture of the Islamic World Edited By George Michell

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقـالات والدراسـات التي تـنشر لا تعبّـر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.





جزيرة العرب (١)

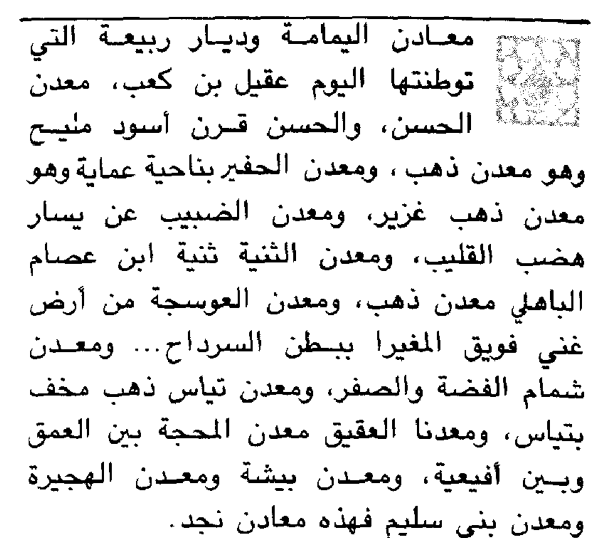
معادنها - حيوانها - أثمارها - نباتها
كما ذكرها الجغرافيون العرب

د. يوسف ق. خوري

اهتم الجغرافيون العرب بجزيرة العرب لكونها مهبط الوحي ومحط آمال حجاج بيت الله الحرام. ولذلك يرى أنهم ذكروا جميع الطرق التي يحتاج إليها الحجاج المسلمين في جميع الأقطار المؤدية إلى كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة. كما أنهم تحدثوا عن صفات مناطق الجزيرة ومميزاتها بما في ذلك الثروات الطبيعية. وقد جمعت هذه النبذات من أقوال عشرة من هؤلاء الجغرافيين المتعلقة بثروات الجزيرة الطبيعية وبوبت حسب المواضيع التالية: المعادن، والحيوان، والفواكه، والأثمار، والنبات، والحبوب، وأردفت بالألبان والحلويات ثم رتبت حسب حروف الهجاء ضمن كل موضوع مع ذكر المصادر.

(١) تشمل هذه الدراسة مجمل الجزيرة العربية، لأنها من الناحية الجغرافية تشكل وحدة كاملة.

المعادن



معادن اليمامة وديار ربيعة التي توطنتها اليوم عقيل بن كعب، معدن الحسن، والحسن قرن أسود مليح وهو معدن ذهب، ومعدن الحفير بناحية عماية وهو معدن ذهب غزير، ومعدن الضبيب عن يسار هضب القليب، ومعدن الثنية ثنية ابن عصام الباهلي معدن ذهب، ومعدن العوسجة من أرض غني فويق المغيرا ببطن السرداح... ومعدن شمام الفضة والصفر، ومعدن تياس ذهب مخف بتياس، ومعدنا العقيق معدن المحجة بين العمق وبين أفيعية، ومعدن بيشة ومعدن الهجيرة ومعدن بني سليم فهذه معادن نجد.

(الهمذاني ج ١ ص ١٥٣ ـــ ١٥٤)

وقد ذكرنا معادن الذهب فأما معدن الفضة بالرضراض فما لا نظير له وبها معادن حديد غير معمولة مثل نقم وغمدان، وبها خصوص البقران ويبلغ المثلث بهامالاً وهو أن وجهه أحمر فوق عرق أبيض فوق عرق أسود والبقران ألوان ومعدنه بجبل انس وهو ينسب إلى انس بن الهان بن مالك، والسعوانية من سعوان واد إلى جنب صنعاء وهو فص أسود فيه عرق أبيض ومعدنه بشهارة وعيشان من بلد حاشد إلى جنب هنوم وظليمة والجمش من شرف همدان، والعشاري وهو الحجر السماوي من عشار بالقرب من صنعاء، والبلور يوجد في مواضع منها، والمسني الذي يعمل منه نصب السكاكين يوجد في مواضع منها، والعقيق الأحمر والعقيق الأصفر العتيقان من الهان، وبها الجزع الموشى والمسير وهو في مواضع منها منه النقمي وهو فحل العرف والسعواني والضهري منه أجنس والخولاني والجرتي من عذيقة والشزب يعمل منه ألواح وصفائح وقوائم سيوف ونصب سكاكين ومداهن وقحفة وغير ذلك وليس سواه إلا بلد الهند والهندي بعرق واحد. (الهمذاني ج ١ ص ٢٠٢ ـــ ٢٠٣).

الجزع:

جبل شبام: وهو معدن الحجر المعروف بالعقيق الجزع. (تقويم البلدان ص ٩٧).

صنعاء: ولأهل صنعاء خانات كثيرة ومحال فيها خلق كثير يعملون أواني الجزع وأنواع الخزر. (ابن رستة ص ١١٢).

ظفار: ينسب إليها الجزع الظفاري. (معجم البلدان ج ٤ ص ٦٠).

الجواهر:

جبل وحاظة: لا يزال يوجد فيه الجوهر. (الهمذاني ج ١ ص ٧٩).

حجر المسن:

جبل رضوى: ومن رضوى يحمل حجر المسن إلى سائر الأقطار. (ابن حوقل ص ٣٣، وتقويم البلدان ص ٨٩).

جبل رضوى:

ومن رضوى يقطع حجر المسن ويحمل إلى الدنيا كلها. (معجم البلدان ج ٣ ص ٥١).

الحديد:

خربة سلوق: يوجد فيها خبث الحديد. (الهمذاني ج ١ ص ٧٩، ومعجم البلدان ج ٣ ص ٢٤٢).

رغامة: فيها معدن حديد ونحو خمسة عشر كيرا يسبك فيه حديد معدنها. (معجم البلدان، ج ٣ ص ٥٣).

الدر:

تؤام: ينسب إليها الدر. (معجم البلدان ج ٢ ص ٥٤).

الذهب:

أحسن: بها معدن ذهب. (معجم البلدان ج ١ ص ١١٢).

جبل وحاظة: لا يزال يوجد فيه الذهب. (الهمذاني ج ١ ص ٧٩).

سباء من حضر موت: مدينة مدحج وسيدهم ابن الروبة... وله بتلك الناحية معادن الذهب لا يشركه فيها أحد ترتفع له منها أموال كثيرة. (ابن رستة ص ١١٣).

خربة سلوق: يوجد فيها قطاع الذهب. (الهمذاني ج ١ ص ٧٩).

العنبر:

جزيرة سقطرى: يسقط إليها العنبر. (الهمذاني ج ١ ص ٥٣).

جزيرة سقطرى: ويسقط بها العنبر. (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٢٧).

الشحر: إليه ينسب العنبر الشحري لأنه يوجد في سواحله.(معجم البلدان ج ٣ص٣٢٨).

الفضة:

خربة سلوق: يوجد فيها قطاع الفضة. (الهمذاني ج ١ ص ٧٩، ومعجم البلدان ج ٣ ص ٢٤٢).

العقيق:

جبل شبام: يرتفع من جبل شبام العقيق الجزع. (ابن حوقل ص ٣٧).

جبل شبام: وهو معدن الحجر المعروف بالعقيق الجزع. (تقويم البلدان ص ٩٧).

اليمن: ويرتفع من اليمن العقيق والجزع، وهما حجران إذا حكا خرج منهما الجزع والعقيق. (الاصطخري ص ٢٦).

اليمن: ويحمل العقيق من مخاليف صنعاء وأجوده ما أوتي به من معدن مقرى، وقرية أخرى تسمى الهام، وجبل يقال له قساس فيعمل بعضه باليمن ويحمل بعضه إلى البصرة...

وبها (وباليمن) معدن الجزع وهو أنواع وجميع هذه الأنواع يؤتى بها من معدن العقيق وأجود هذه الأنواع البقراني وأثمنها، ومنه العرواني والفارسي والحبشي والمعسل والمعرق. وقال الأصمعي: أربعة أشياء قد ملأت الدنيا ولا تكون إلّا باليمن: الورس والكندر والخطر والعصب. فأما المعرق من الجزع فإنه يتخذ منه الأواني لكبره وعظمه، ولهم الحلل اليمانية والثياب السعيدية والعدنية، والشب اليماني وهو ماء ينبع من قلة جبل فيسيل على جانبه قبل أن يصل إلى الأرض فيجمد فيصير هذا الشب اليماني الأبيض، ولهم الورس وهو شيء يسقط على الأشجار كالترنجبين ولهم البنك ويقال أنه من خشب أم غيلان. (ابن الفقيه ص ٣٦).

اللؤلؤ:

جزيرة العرب: اللؤلؤ في هذا الأقليم بحدود هجر يغاص عليه في البحر بإزاء اوال وجزيرة خارك ومن ثم خرجت درة اليتيم. يكترى رجال يغوصون فيخرجون صدفا اللؤلؤ وسطها، وأشد شيء عليهم حوت يثب إلى عيونهم وفائدة من تعاطاه بينة، ومن أراد العقيق اشترى قطعة ارض بموضع بصنعاء ثم حفر فربما خرج له شبه صخرة وأقل وربما لم يخرج شيء. بين ينبع والمروة معادن الذهب، العنبر يقع على حافة البحر من عدن إلى مخا ومن وجه زيلع أيضاً كل من وجد منه شيئاً قل أو كثر حمله إلى صاحب السلطان ودفعه إليه وأخذ شقة وديناراً ولا يقع إلا وقت هبوب ريح الأيب، ولم يصح لي ما العنبر، ودم الأخوين قبال الجحفة. (المقدسي ص ١٠١ ــ ١٠٢).

عدن: بها معادن اللؤلؤ. (الأصطخري ص ٢٦).

عمان: لا لؤلؤ فيها. (معجم البلدان ج ١ ص ٥٤).

السلاح الأبيض

الدروع:

خربة سلوق: إليها كانت العرب تنسب الدروع السلوقية. (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٤٢).

الرماح:

الخرصان: قرية بالبحرين سميت لبيع الرماح. (معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥٩).

الخط: سميت الرماح الخطية بالخط، وهو موضع بالبحرين. (معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥٩ وص ٣٧٨).

السهام:

بلاد: أجود السهام التي وصفها العرب في الجاهلية سهام بلاد. (معجم البلدان ج ١ ص ٤٧٦).

السيوف:

تبعة: كانت تلتقط فيها السيوف العادية. (معجم البلدان ج ٢ ص ١٤).

المياه: (لعلها مياه معدنية).

احرض: موضع في جبال هذيل، سمي بذلك لأن من شرب من مائه حرض أي فسدت معدته. (معجم البلدان ج ١ ص ١١١).

الحوراء: ماءه ملحة. (معجم البلدان ج ٢ ص ٣١٦).

خذارق: وهو ماء بتهامة ملحة، سميت بذلك لانها تسلح شاربها. (معجم البلدان ج ٢ ص ٣٤٩).

خذيفة: ماء ملحة في وسط حمض، فإذا شرب إنسان منها سلح عنها. (معجم البلدان ج ٢ ص ٣٤٩).

عدن: ولهم آبار مالحة. (المقدسي ص ٨٥).

المعافر: وبها جبل الملح في بلاد مأرب ولا نظير له وهو ملح ذكر ذو جوهرية وصفاء كالبلور وهو الملح البري. (الهمداني ج ١ ص ٢٠١).

وادي سهام: وبوادي سهام الماء الحار ينضج البيض والرز لحرارته. (الهمداني ج ١ ص ١٠٥).

المدابغ:

جرش: بها مدابغ كثيرة. (تقويم البلدان ص ٩٥).

صعدة: وبها مدابغ الآدم وجلود البقر التي للنعال. (تقويم البلدان ص ٩٥، ومعجم البلدان، ج ٣، ص ٤٠٦).

الطائف: وهي بلد الدباغ يدبغ بها الاهب الطائفية المعروكة. (الهمداني ج ١ ص ١٢٠، والمقدسي ص ٧٩).

الحيوان

المواشي والوحش والطيور:

الحجاز: وأما مواشيه ففيه الإبل، والضأن، والمعز بكثرة، والبقر بقلة، وبه من الخيل ما يفوق الوصف حسنه، ويعجز البرق إدراكه. وأما وحوشه ففيه الغزلان، وحمر الوحش، والذئاب والضباع، والثعالب، والأرانب وغيرها. وأما طيوره ففيه الحمام، والدجاج، والحدأة، والرخم. (صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤٨).

البحرين: فيها جميع الحيوان إلا السباع. (الهمداني ج ١ ص ١٣٧).

اليمن: أما حيوانه ــ فيه من الحيوان الخيل العربية الفائقة، والبغال الجيدة للركوب والحمل، والحمر، والإبل، والبقر، والغنم، ومن الطير الدجاج، والإوز، والحمام، وفيها من الوحوش الزرافة، والأسد، والغزلان، والقردة وغير ذلك. (صبح الأعشى ج ٥ ص ١٦).

الإبل:

وباليمن من كرام الإبل الأرحبية لا رحب بن الدعام من همدان، والمهرية ثم من المهرية العيدية تنسب إلى العيد قبيلة من مهرة، والصدفية، والجرمية، والداعرية تنسب إلى داعر من بلحوث، والمجيدية ومنها الإبل المهرية المعنبرة. (الهمداني ج ١ ص ٢٠١).

أرحب: وإليه تنسب الإبل الأرحبية. (معجم البلدان ج ١ ص ١٤٤).

بلاد مهرة: أموال بلاد مهرة الإبل. (الأصطخري ص ٢٧، وابن حوقل ص ٣٨، وتقويم البلدان ص ١٠١).

شبام: فيها مواشي لا تحصى كثرة من الإبل والدواب وغيرها. (ابن رستة ص ١١٣).

الأسود:

جبل شرج: كثير الأسد. (معجم البلدان ج ٢ ص ٢١).

حاذة: من مدن الحجاز ــ موضع كثير الأسود. (معجم البلدان ج ٢ ص ٢٠٤).

البقر:

جبلان: من جبلان تجلب البقر الجبلانية العراب. (الهمداني ج ١ ص ١٠٣).

جبلان: ومنها تجلب البقر الجبلانية العراب الحرش الجلود إلى صنعاء، وهي بلاد كثيرة البقر (معجم البلدان ج ٢ ص ١٠٢).

عمان: فيها البقر: (المقدسي ص ٩٣).

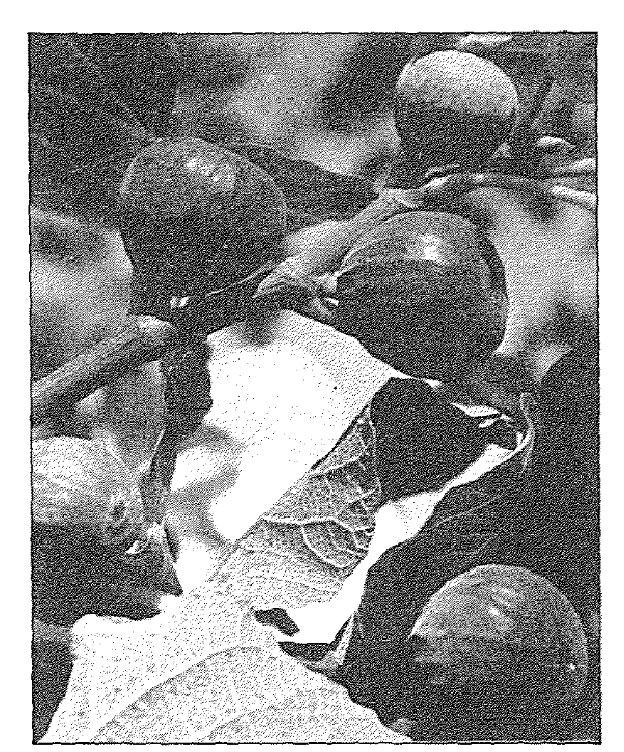
مخلاف حراز: بلد كثيرة البقر العراب مثل الجبلانية. (الهمداني ج ١ ص ١٠٥).

اليمن: ومن البقر الجندية والخديرية في الجسم والقوة وطيب اللحم وتبلغ في الجسم مبلغاً عظيماً والجبلانية السود الحرش التي تدبغ جلودها للنعال يبلغ الجلد منها عشرة مثاقيل وأكثر إلى عشرين، ومنها الشرع المدرهمة العرسية السمسمية ويبلغ الأشرع المدنر الأحرش دنانير. ولهذه البقر صيالة وحد في قرونها وباءس وتقتل السباع وهي العراب من البقر والأخرى الدرب والدربة السنام. (الهمداني ج ١ ص ٢٠١).

لحوم البقر باليمن:

فأما الجندي منها فربما بلغ الثور منها ثلاثين ديناراً مطوقاً فإنه أطيب من لحم الحمل الشهري في سائر البلاد لرقته ولطفه ودسمه ولا يكون له رائحة. (الهمداني ج ١ ص ١٩٨).

صنعاء: ويفضل أهل صنعاء لحم البقر على لحم الضأن السمين يشترى جميع ذلك بسعر واحد.. وللحوم ضاءنهم وبقرهم خاصية وذلك أنها لا تنضج إلا على الجمر، والوقود يسخنها ولا ينضجها. (ابن رستة ص ١١٢).



□ تين.



□ ليمون.

اليمامة: وأما لحم اليمامة فإنه يطيب لطيب مراعيهم. (ابن الفقيه ص ٣٠).

الحمير:

اليمن: ومن الحمير للسروج الحضرمية ثم المعافرية، وذوات الأشر والخفة والسرع والشهومة والخشونة الخشبية منها. (الهمذاني ج ١ ص ٢٠١).

الخيل:

بقران: اشتهرت بخيولها. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

اليمن: ومن الخيل العنسية والجوفية والحجيجية وهي خيل لها أنفس وخرجات وانحرافات وليست مثل المصرية والجزرية متناً ولها صبر وصباحة على أنها ليسب بجسام وهي أشهم وأجمع قلوباً ويطأن القتيل ويحملن السلاح الثقيلة ويجلن بها ويجرين فلا ينقص الثقل من جريهن شيئاً، والشوافية وبها جلود النمر النفيسة المحلولكة السواد اليقق البياض ويبلغ الجلد دنانير ويتخذ منها مع السروج الفرش النفيس وكذلك بها فرش العباء الملون النفيس ويكون جلالاً للخيل وهي من أحسن شيء وهي ملبن مثل تلبين الوشي لبنة بيضاء وإلى جنبها لبنة سوداء جرداء غير مخملة. (الهمداني ج ١ ص ٢٠١ — ٢٠٢).

السمك:

الشحر: معدن السمك العظيم. (المقدسي ص ٨٧).

شوران: جبل فيه مياه سماء كثيرة وفي كلها سمك أسود مقدار الذراع وما دون ذلك، أطيب سمك يكون. (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٧١).

الغنم:

جلفار: بلد كثير الغنم والجبن والسمن يجلب منها إلى ما يجاورها من البلدان. (معجم البلدان ج ٢ ص ١٥٤).

القرود:

جبل الشراة: تأوي إليه القرود. (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٣١).

اليمن: وباليمن قرود كثيرة. (الأصطخري ص ٢٧، وابن حوقل ص ٣٩).

الكلاب:

سلوق: خربة تنسب إليها الكلاب السلوقية. (الهمداني ج ١ ص ٧٩، ومعجم البلدان ج ٣ ص ٢٤٣).

النمور:

جبل شواحط: كثير النمور. (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٦٩).

الفواكه والثمار

الفواكه:

الحجاز: وأما فواكهه ففيه الرطب، والعنب، والموز، والتفاح، والسفرجل، والليمون، وغير ذلك. وأما رياحينه ففيه التامر حناء ويسمى عندهم الفاغية. (صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤٨).

صنعاء: بلد كثير الفواكه. (المقدسي ص ٨٦).

اليمن: جميع الثمار بها من العنب الملاحي والدوالي والأشهب والدريج والنواسي والزبادي والأطراف والعيون والقوارير والجرشي والنشاني والتابكي والرازقي والضروع ويؤتى إليها من خيوان بالرومي ومن الجوف بالوادي، وبها الرمان الحلو والحامض والمزوج والمليسي، والسفرجل وليس يلحق به سفرجل البلاد لأن فيه شيئاً من الحموضة والقبض، والإجاص، والشمش، والتفاح الحلو والتفاح الحامض والمزوج، والخوخ الحميري والخوخ الفارسي والخوخ الهندي، والجوز الفرك، واللوز الفرك والحلو منه والمر، والكمثري وقد وفد إلى صنعاء قدمة، وبها الورد والباقلاء الأخضر ولا يتركونه يبلغ، وجميع أصناف البقول وجميع الحبوب. (الهمداني ج ١ ص ١٩٦ ــ ١٩٧).

وأما فواكه (اليمن)، فيه العنب، والرمان، والسفرجل، والتفاح، والخوخ، والتوت، والموز، والليمون، والأترج، في أنواع أخرى من الفاكهة قليلة المقدار، وبه البطيخ الأخضر والأصفر.. قال ابن البرهان: وغالب ما يوجد بمصر من الفواكه يوجد باليمن، إلا أنه بالغ في وصف السفرجل به. (صبح الأعشى ج ٥ ص ١٦ ــ ١٧).

الإجاص:

سراة الحجر: بها الإجاص. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

صنعاء: وعند أهل صنعاء من أنواع الإجاص ما ليس بخراسان. (ابن رستة ص ١١١).

البرقوق:

صنعاء: عند أهل صنعاء البرقوق وهو المشمش. (ابن رستة ص ١١١).

البطيخ:

صنعاء: وعند أهل صنعاء بطيخ حسن غير طيب يؤكل مع السكر والقثاء. (ابن رستة ص ١١١).

عرفة: قرية فيها مباطخ. (المقدسي ص ٧٧).

التفاح:

سراة الحجر: بها التفاح. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

صنعاء: عندهم أنواع التفاح. (ابن رستة ص ١١١).

نحيان: واد فيه التفاح. (الهمداني ج ١ ص ١٢٢).

التمور:

قالوا: أجود تمر عمان الفرض والبلعق والخبوت، وأجود تمر اليمامة البردى والزرقاء والجدامية، وأجود تمر البحرين التعضوض والمكري والآزاد، وأجود تمر الكوفة النرسيان والسابري، وأجود تمر البصرة الآزاد والقريثاء. (ابن الفقيه ص ٣٠).

البحرين: يوجد بها التمور. (الأصطخري ص ٢٣، وابن حوقل ص ٣١).

بدر: جيدة التمور. (المقدسي ص ٨٢).

خليص: بها تمور. (المقدسي ص ٧٩).

خيبر: فيها التمر الصيحاني من أجود التمور. (معجم البلدان ج ٤ ص ١٢٧).

دخلة: قرية توصف بكثرة التمور. (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٤٥).

السرين: معدن التمور الردية. (المقدسي ص ٨٦).

صفور: فيها أجود تمر في الدنيا. (معجم البلدان ج ٣ ص ٤١٤).

العشيرة: تفضل تمورها على سائر تمور الحجاز إلا الصيحاني بخيبر والبردى والعجوة بالمدينة. (معجم البلدان ج ٤ ص ١٢٧).

الفرضة: يكثر بها التعضوض نوع من التمر. (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٥١).

قرح: ذو تمور رخيصة.. وتمرهم وسط. (المقدسي ص ٨٣ ــ ٨٤).

المدينة: فيها التمر البردي والعجوة. (معجم البلدان ج ٤ ص ١٢٧).

المروة: جيدة التمور. (المقدسي ص ٨٣).

اليمامة: أكثر تمراً ونخلاً من المدينة وسائر



□فصل الربيع في العلا، إحدى مناطق السعودية.

الحجاز. (الأصطخري ص ٢٣، وابن حوقل ص ٣١).

اليمامة: لا أشد حلاوة من تمرها.. وبها أصناف التمور. (ابن الفقيه ص ٢٨ ــ ٣٠).

اليمامة: جيدة التمور. (المقدسي ص ٩٤).

الجوز:

صنعاء: وعند أهل صنعاء جوز (ابن رستة ص ١١١).

الحناء:

وادي نخلة: فيه الحناء. (الهمداني ج ١ ص ٧٥).

الخوخ:

سراة الحجر: بها الخوخ. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

صنعاء: وعند أهل صنعاء الفرسك وهو الخوخ. (ابن رستة ص ١١).

مكة: وخوخ مكة أسرى منه الدارقي. (المقدسي ص ٧).

الخيار:

وادي الجنات: أسفله جامع للخيار. (الهمداني ج ١ ص ٧٦).

دم الأخوين:

جزيرة سقطرى: بها دم الأخوين. (الهمداني ج ١ ص ٥٣).

جزيرة سقطرى: دم الأخوين وهو صمغ شجر لا يوجد إلا في جزيرة سقطرى. (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٢٧).

الرمان:

صنعاء: عند أهل صنعاء رمان. (ابن رستة ص ١١١).

الطائف: موضع الرمان الكثير. (المقدسي ص ٧٩).

عمان: فيها الرمان. (الأصطخري ص ٢٧).

مطرة: أودية عظام فيها الرمان. (الهمداني ج ١ ص ١٠٩).

سفرجل:

صنعاء: عندهم سفرجل. (ابن رستة ص ١١١).

العنب:

أثافت: ذات كروم كثيرة. (معجم البلدان ج ١ ص ٨٩).

أوال: بها كروم كثيرة. (تقويم البلدان ص ٣٧١).

جبل شبام: ذروته فيها كروم. (معجم البلدان ج ٣ ص ٣١٨).

جبال السراة: وفي جبال السراة الأعناب. (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٠٥).

صنعاء: وعندهم على ما زعموا قريب من سبعين لوناً عنب. (ابن رستة ص ١١١).

شروم: فيها كروم. (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٣٩).

الطائف: موضع العنب الجيد. (المقدسي ص ٧٩).

الطائف: فيها العنب العذب لا يوجد مثله في بلد من البلدان. (معجم البلدان ج ٤ ص ٩).

عدو: واد كثير الأعناب. (الهمداني ج ١ ص ٧٦).

علاف: خير أودية خولان وأكرمها كرماً وأعناباً. (الهمداني ج ١ ص ١١٤).

مطرة: أودية عظام فيها العنوب. (الهمداني ج ١ ص ١٠٩).

وادي الجنات: فيه العنب. (الهمداني ج ١ ص ٧٦).

القثاء:

وادي الجنات: أسفله جامع للقثاء. (الهمداني ١ ص ٧٦).

القرع:

صنعاء: وعندهم قرع كبار كل قرعة مثل جرة كبيرة يباع بالأمنان مقطعاً وكل ما كان أكبر كان أرطب. (ابن رستة ص ١١٣).

الكمثري:

سراة الحجر: وبسراة الحجر الكمثري. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

صنعاء: وعندهم الكمثري أنواع كثيرة. (ابن رستة ص ١١١).

اللبان:

بلاد مهرة: اللبان الذي يحمل إلى الآفاق من بلاد مهرة. (الأصطخري ص ٢٧، وابن حوقل ص ٣٨، وتقويم البلدان ص ١٠١).

جبل أسيوت: وفيه يكون شجر اللبان، ومنه يحمل إلى جميع الدنيا ولا يكون في غيره قط. (معجم البلدان ج ١ ص ١٩٣).

ظفار: إن اللبان لا يوجد في الدنيا إلا في جبال ظفار... وأنه شجر ينبت في تلك المواضع... ويجتنيه أهل تلك البادية وذلك أنهم يجيئون إلى شجرته ويجرحونها بالسكين فيسيل اللبان منه على الأرض ويجمعونه ويحملونه إلى ظفار. (معجم البلدان ج ٤ ص ٦٠).

اللوز:

سراة الحجر: وبسراة الحجر اللوز. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

صنعاء: عندهم لوز. (ابن رستة ص ١١١).

نحيان: واد فيه اللوز. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

الليمون:

جزيرة أوال: فيها ليمون وبساتين. (معجم البلدان ج ١ ص ٢٧٤).

الموز:

الجريب: بلد الموز. (المقدسي ص ٨٦).

صنعاء: والموز عندهم كثير في كل موضع، يدرك الموز عندهم في كل أربعين يوماً يقطع ثمرته، ولا ينقطع القطاف عنهم أبداً (ابن رسته ص ١١١).

الطائف: ذات موز. (معجم البلدان ج ٤ ص ٩).

عمان: فيها الموز. (الأصطخري ص ٢٧).

وادي الجنات: أسفله جامع للموز. (الهمداني ج ١ ص ٧٦).

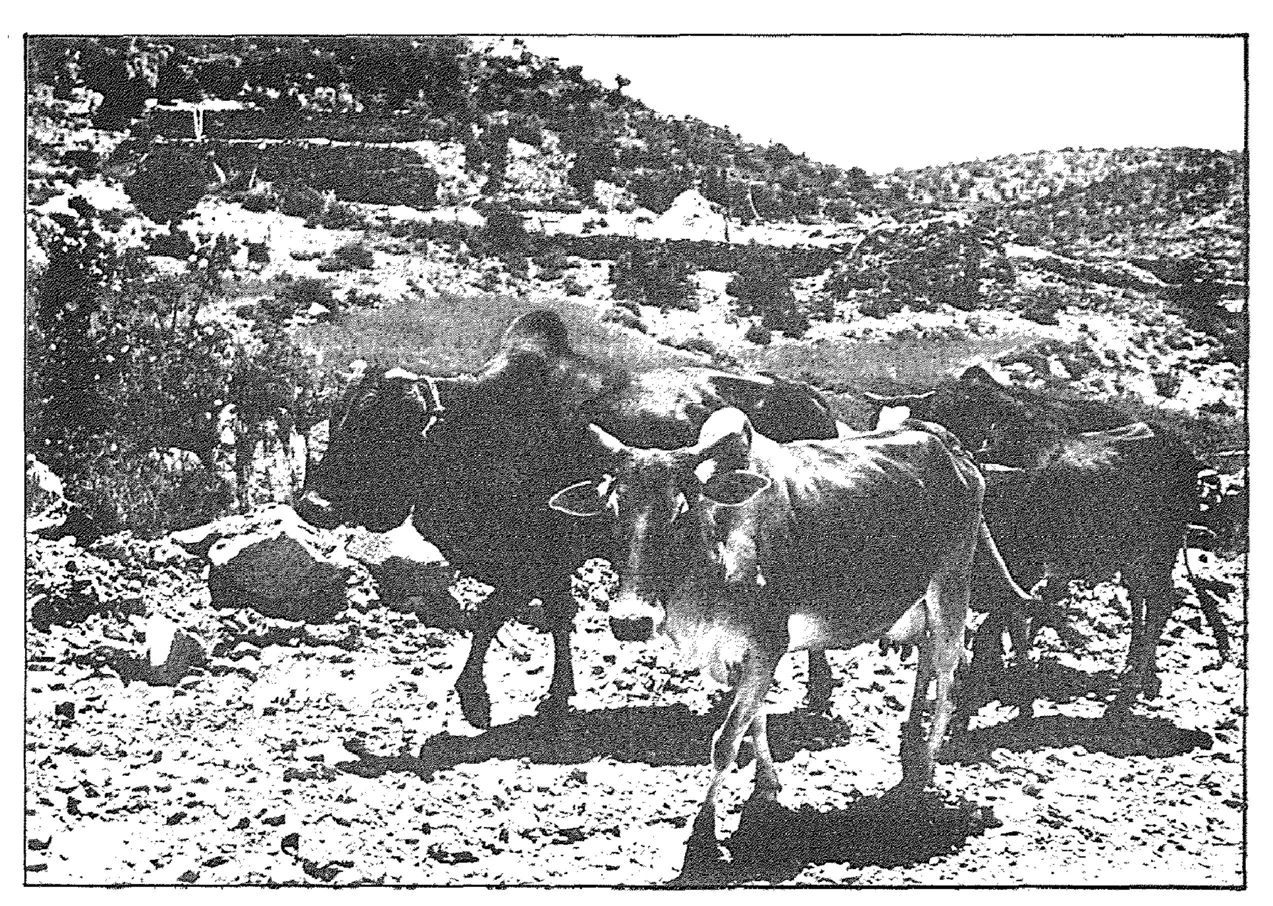
وادي نخلة: فيه الموز. (الهمداني ج ١ ص ٧٥).

النخيل:

اباض: لها نخل لم ير نخل أطول منها. (معجم البلدان ج ١ ص ٦٠).

ابان الأبيض: فيه نخل. (معجم البلدان ج ١ ص ٦٢).

ابرين: كثير النخل. (معجم البلدان ج ١ ص ٧١).



□ أبقار من فصيلة محلية في عسير.

أبضة: عليه نخل. (معجم البلدان ج ١ ص ٧٤).

أثيل: واد كثير النخل. (معجم البلدان ج ١ ص ٩٤).

أحليلي: فيه نخل لبني أسد. (معجم البلدان ج ١ ص ١١٧).

أحوس: فيه نخل كثير. (معجم البلدان ج ١ ص ١١٨).

أطواء: ذات نخل. (معجم البلدان ج ١ ص ٢١٩).

الأعراض: حيث الزرع والنخل. (معجم البلدان ج ١ ص ٢٢٠).

الاعيرف: فيه نخل. (معجم البلدان ج ١ ص ٢٢٣).

أكبرة: به نخل وآبار مطوية. (معجم البلدان ج ١ ص ٢٣٩).

أكمة: كثيرة النخل. (معجم البلدان ج ١ ص ٢٤١).

بطن مر: فيها نخل كثير. (تقويم البلدان ص ٩٥).

بلاد بني تميم: فيها النخيل. (الهمداني ج ١ ص ١٤٠).

تبوك: فيها نخيل. (الأصطخري ص ٢٤، وتقويم البلدان ص ٨٧).

تيماء: فيها النخيل. (الأصطخري ص ٢٥، وابن حوقل ص ٣٤، وتقويم البلدان ص ٨٧).

جبل شبام: ذروته فيها نخيل. (معجم البلدان ج ٣ ص ٣١٨).

الجحفة: فيها نخيل. (ابن حوقل ص ٣٣).

جرش: فيها نخيل. (الأصطخري، ص ٢٦، والمقدسي ص ٨٧).

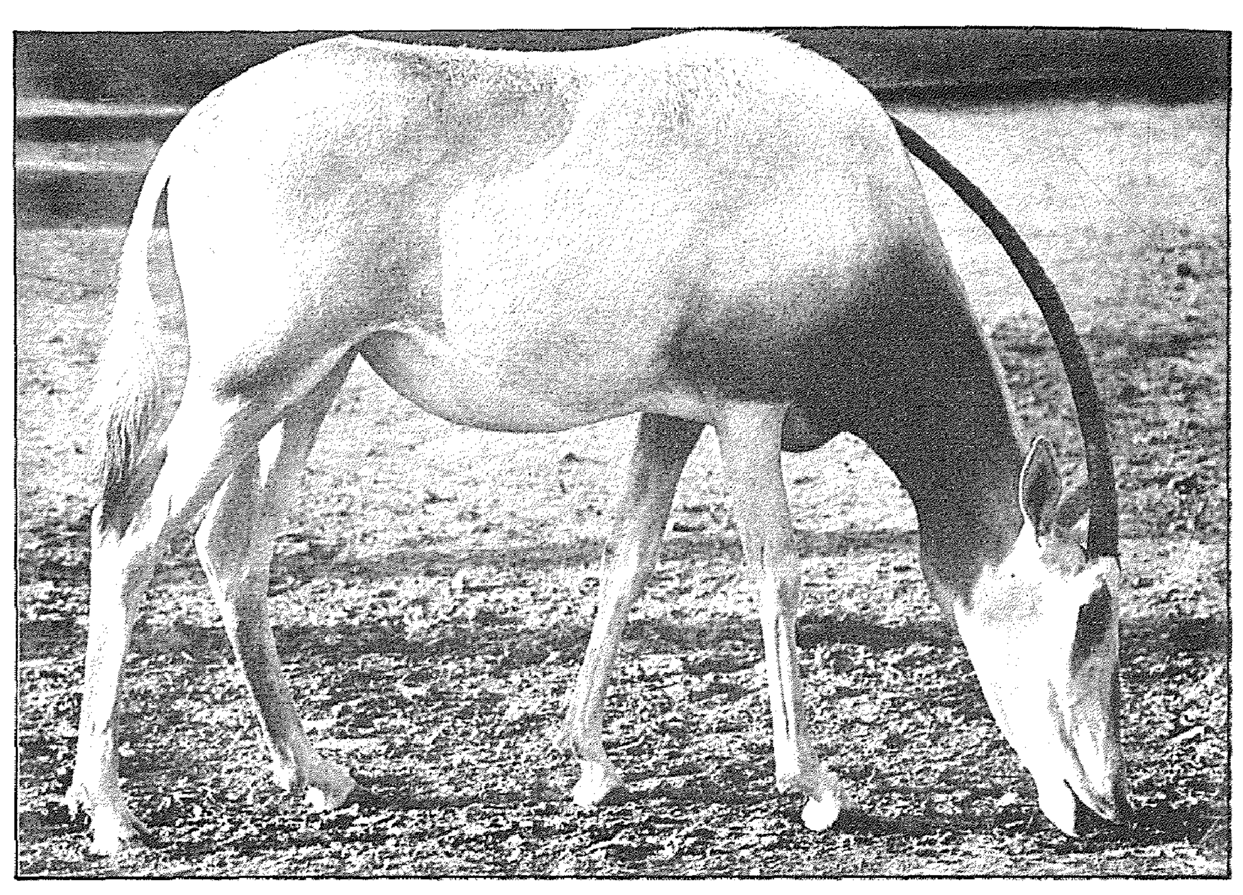
جزيرة أوال: فيها نخيل كثير. (تقويم البلدان ص ٣٧١، ومعجم البلدان ج ١ ص ٢٧٤).

جزيرة سقطرى: وبها نخيل كثير. (الهمداني ج ١ ص ٥٣).

الخرج: أرضه أرض زرع ونخل قليل. (معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥٧).

خورفكان: وبه نخل وعيون عذبة. (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٠٠).

خيبر: ذات نخيل كثير. (الأصطخري ص



□المها البيضاء النادرة تسرح في موطنها الربع الخالي.

٢٥).

زبيد: ولها نخيل كثير. (تقويم البلدان ص ٨٩).

الزيدي: فيها نخل وروض. (معجم البلدان ج ٣ ص ١٦٣).

السر: بهـا النخيل. (المقدسي ص ٩٣).

سروعة: فيها نخيل. (معجم البلدان ج ٣ ص ٢١٧).

الصحارى: موضـع كثير النخيل. (الهمداني ج ١ ص ٧٥).

الصفراء: واد كثير النخل. (معجم البلدان ج ٣ ص ٤١٢).

صفينة: ذات نخل. (معجم البلدان ج ٣ ص ٤١٥).

الطائف: ذات مزارع ونخل. (معجم البلدان ج ٤ ص ٩).

عمان: وهي كثيرة النخيل. (الأصطخري ص ٢٧، والمقدسي ص ٩٣).

غلافقة: بها نخيل. (المقدسي ص ٨٦).

فيد: فيها نخيل. (الأصطخري ص ٣٤).

قرح: النخيل والبساتين متصلة من قرح إلى سقيا يزيد. (المقدسي ص ٨٤).

القطيف: لها نخيـل دون نخيل الاحسـاء. (تقويم البلدان ص ٩٩).

المدينة: لها نخيل كثيرة. (الاصطخري ص ٢٣، والمقدسي ص ٨٠، وتقويم البلدان ص ٨٧).

مرخة: واد كثير النخيل. (الهمداني ص ٩٥).

مر الظهران: بها نخيل. (معجم البلدان ج ٤ ص ٦٣).

المروة: كثيرة النخيل. (المقدسي ص ٨٣).

نجران: بها نخيل. (الاصطخري ص ٢٦، تقويم البلدان ص ٩٣).

وادى القرى: وهي ذات نخيل. (ابن حوقل ص ٣١).

اليمامة: أكثر تمراً ونخلاً من المدينة وسائر الحجاز. (الاصطخري ص ٢٣، وابن حوقل ص ٣١).

اليمامة: وأخبرني من رآها في زمننا هذا أن بها أناساً وقليل نخل. (تقويم البلدان ص ٩٧).



□مصنوعات يدوية قديمة في الطرف الجنوبي من الربع الخالي.

اليمن: ليس ببلد نخيل. (المقدسي ص ٨٧).

ينبع: بها نخيل. (الاصطخري ص ٢٥، وابن حوقل ص ٣٣، والمقدسي ص ٨٣).

يبرين: هي أرض سبخة تشتمل على عينين ونخيل كثير إلى الغاية... وأكثر وغالب النخيل على القرب من العينين. (تقويم البلدان ص ٨٤ ـ ٨٥).

النبات والحبوب

الحبوب:

الحجاز: أما زروعة ففيه من الحبوب المزدرعة البر والشعير والذرة والسلت، وجميعها تزرع على المطر، وربما زرع بعضها على ماء العيون، والشعير، والذرة، أكثر الحبوب وجوداً، ويزرع فيه على العيون البطيخ الأخضر والأصفر، والقثاء، والباذنجان، والدباء، والملوخيا، والهندبا، والفجل والكراث والبصل والثوم. (صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨).

اليمن: وباليمن من غرائب الحبوب ثم من البر العربي الذي ليس بحنطة فإذا ملأ عجينه ثم أردت قطع شيء منه تبع القطعة تابعة منه تطول كتابعة القبيط، والميساني والنسول والهلباء لا يكون إلا بنجران، ومنه الأدرع الأملس والأحمر الأحرش، واللوبياء والعتر والأقطن، والطهف، وألوان الذرة البيضاء والصفراء والحمراء والغبراء، والسمسم الذي لا يلحق به لاحق خاصة الماربي والجوفي كثير الضياء صاف طيب، وقد يزرع بها الحمص والباقلي والكمون وغير ذلك. (الهمداني ج ١ ص ١٩٩).

ـ وأما حبوب اليمن فبه من الحبوب الحنطة

والشعير والأرز والسمسم وغالب قوتهم الذرة وأقله الحنطة والشعير. (صبح الأعشى ج ٥ ص ١٦).

السرين: معدن الحبوب. (المقدسي ص ٨٦).

صنعاء: عند أهل صنعاء ألوان الرياحين والورد والياسمين والنرجس والسوسن ألوان. (ابن رستة ص ١١١).

طريقة الزراعة:

اليمن: ومن عجائب اليمن أن أكثر زروعها أعقار فلذلك متن عجينها ولان خبزها وهو أن تشرب الجربة في آخر تموز وأول آب ثم تحرث بأيلول إذا جمّت أي شربت ماءها وجف وجهها ثم تحرث في تشرين كرّة أخرى ثم في تشرين الآخر كرّة ثالثة ثم بذرت في كانون الأول فأقام فيها الزرع إلى أيار وصرب ولم يصبه ماء فأما القرارة بالهجيرة فإنه يصرم بها متعجلاً بنيسان وآخر آذار فتكون الجربة بها كثير من جمها فتحرث وتبذر فيها ثانية فتأتي بطعام معجل لحرارة الزمان يصرم بحزيران. (الهمداني ج ١ ص ١٩٩).

الأترج:

أوال: بها أترج. (تقويم البلدان ص ٣٧١).

صنعاء: والأترج عندهم كثير كبار حلو الطعم. (ابن رستة ص ١١١).

وادي الجنات: أسفله جامع للأترج. (الهمداني ج ١ ص ٧٦).

الأترج بنجران ليس حماض فيه كبار أحلى من العسل تبلغ الواحدة ربع دينار وخمس وسدس وليس له نظير في بلد. ومن ذلك سكر العشر... وهو ضرب من المن وهيئته مثل قطع اللبان والمصطكى. وقد يحل ويعمل منه سكر كبار مطبع في القوالب وقد أهديت منه إلى أخ لي بالعراق فأعجب منه من رآه. ومنها المحط ويسمى القصاص وهو خالق للبواسير ولا تصيب هذه العلة أحداً بخيوان لاستعمالهم إياه في القدور، ويعقد بالعسل ويهدى. وأهدى منه بعض سلاطين تهامة إلى العراق وجرت كتب إليه أن احتفظ بحظائر هذه الشجرة فأعلمهم انه نبات جبال قبائل وادعة وأرحب. (الهمداني ج ١ ص ٢٠٠).

الأرز:

صنعاء: يدرك عندهم الأرز ثلاث دفعات. (ابن رستة ص ١٠٩).

البُر:

سراة الحجر: بها البر. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

صنعاء: وطعام أهل صنعاء البُر النقي والعلس وهو شبيه بالحنطة إلا أنه أدق من الحنطة في سنابل لا تشبه سنابل الحنطة عليها قشرتان أحديهما قشرة المسنبلة والأخرى قشرة مقاربة لقشر الأرز فيقشر من قشرته ويطحن ويخبز فيوجد طعمه أطيب من طعم خبز الحنطة. (ابن رستة ص ١١١).

— تدرك عندهم الحنطة دفعتين. (ابن رستة ص ١٠٩).

اليمامة: لا أطيب طعاماً من حنطتها. (ابن الفقيه ص ٢٨).

اليمن: ولأهل صنعاء الرقاق الذي هو في بلد رقة وسعة وبياضاً لمؤاتاة متانة البُر، وأبرار اليمن العربي التليد والنسول بر العلس وهو ألطفها خبزاً وأخفها خفة، والرغيف بصنعاء لا ينكسر ولكنه ينعطف ويندرج طومارا وكسره السفار قطعاً، والخبز بها ضروب كثيرة. (الهمداني ج ١ ص ١٩٨).

البشام:

جبلا ثافل: نباتهما البشام. (معجم البلدان ج ٢ ص ٧١).

البصل:

عدو: واد كثير الأبصال. (الهمداني ج ١ ص ٩٦).

التنبل:

ظفار: يوجد فيها نبات التنبل. (تقومي البلدان ص ٩٣).

والتنبول في بلادهم (الهند) ورق ينبت كأصغر ما يكون من ورق الأترج، يمضغ هذا الورق بالنورة المبلولة مع الفوفل، وهو الذي غلب على أهل مكة وغيرهم من بقية أهل الحجاز واليمن في هذا الوقت مضغه بدلاً من الطين (بدلاً من الطيب)، ويكون عند الصنادلة (الصيادلة للورم وغير ذلك، وهذا إذا مضغ على ما ذكرنا بالورق والنورة شد اللثة، وقوى عمود الأسنان، وطيب النكهة، وأزال الرطوبة المؤذية، وشهى الطعام، وبعث على الباه، وحمر الأسنان حتى تكون

كاحمر ما يكون حب الرمان، وأحدث في النفس طرباً وأريحية، وقوى البدن، وأثار من النكهة روائح طيبة خمرة. (مروج الذهب ج ١ ص ٢٣٣).

الدادي:

جبل أسيوط: ينبت الدادى الذي يصلح به النبيذ. (معجم البلدان ج ١ ص ١٩٣).

الذرة:

الشرجة والحردة: بهن خزائن الذرة. (المقدسي ص ٨٦).

وادي الجنات: أسفله جامع للذرة. (الهمداني ج ١ ص ٧٦).

وادي ذابة: لا شيء فيه سوى الذرة. (الهمداني ج ١ ص ٧٧).

طريقة حفظ الذرة:

اليمن: ومخلاف ذي جرة وخولان يسمى خزانة اليمن وذمار ورعين والسحول مصر اليمن لأن الذرة والبُر والشعير تبقى في هذه المواضع المدة الكثيرة. ورأيت بجبلمسور برا أتى عليه ثلاثون سنة لم يخنز ولم يتغير، فأما الذرة فإنها لا تكون إلا في بلد حار ولا تختزن في البيوت لحال ما يسرع إليها من الفساد ولكن يحفر لها في الأرض وتدفن في مدافن يسع المدفن منها خمسة آلاف قفيز إلى ما هو أقل ويسد عليها حتى ربما نبت على السداد الشجر العرى وتقيم العمر ولا تنفخش ولكن تغير رائحتها وطعمها. فإذا كشف منها المدفن ترك أياماً حتى يبرد ويسكن بخاره ولو دخله داخل عند كشفه لتلف بحرارته. (الهمداني ج ١ ص ١٠٨).

الشعير:

سراة الحجر: بها الشعير. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

صنعاء: ويدرك عندهم الشعير ثلاث دفعات. (ابن رستة ص ١٠٩).

الشوحط:

جبل الشراة، ينبت الشوحط. (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٣١).

الطلح:

رحبة صنعاء: أودية تنبت الطلح وفيها بساتين. (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٤).

الظيان:

جبلا ثافل: نباتهما الظيان. (معجم البلدان ج ٢ ص ٧١).

العرعر:

جبلا ثافل: نباتهما العرعر. (معجم البلدان ج ٢ ص ٧١).

القرظ:

جبلا ثافل: نباتهما القرظ. (معجم البلدان ج ٢ ص ٧١).

جبل السراة: وفي جبل السراة القرظ. (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٠٥).

جبل الشراة: ينبت القرظ في جبل الشراة. (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٣١).

سلم الريان: باليمامة... والسلم في الأصل: شجر ورقه القرظ الذي يدبغ به، وبه سمي هذا الموضع. (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٤٠).

قصب السكر:

جبل السراة: وفي جبل السراة قصب السكر. (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٠٥).

وادي الجنات: أسفله جامع لقصب السكر. (الهمداني ج ١ ص ٧٦).

الكزبرة:

وادي الجنات: أسفله جامع للكزبرة. (الهمداني ج ١ ص ٧٦).

اللوبياء:

سراة الحجر: فيها اللوبياء. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

النارجيل:

ظفار: يوجد في أراضيها كثير من نبات الهند مثل النارجيل. (تقويم البلدان ص ٩٣).

غلافقة: بها نارجيل. (المقدسي ص ٨٦).

نبات العقاقير:

اليمن: فأما الحشائش ففيها أكثر حشائش العقار ولكن أهلها البدوية لا يعرفونها وإنما يعرفها الحكيم من الناس من أهل صناعة الطب. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

النبع:

جبل الشراة: ينبت النبع في جبل الشراة. (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٣١).

النيل:

حور بروص: منها يجلب النيل الفائق. (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٠٠).

الورس:

جبل المذيخرة: نباتها الورس. (الاصطخري ص ٢٦).

جبل المذيخرة: فيه ينبت الورس وهو نبات أحمر في معنى الزعفران يباع منوان بدينار فيصبغ به. (ابن حوقل ص ٣٧).

مخلاف حراز: بلد كثير الورس. (الهمداني ج ١ ص ١٠٥).

وادي الجنات: فيه الورس. (الهمداني ج ١ ص ٧٦).

الألبان والحلويات

اللبن والزبد:

اليمن: ولمضائر اليمن فضل لحال اللبن، واللبن الرائب بصنعاء وبلد همدان ومشرق خولان وحزيز وجهران أثخن من الزبد في غير اليمن مع الغذاء واللذة والطيب وزبدها بمنزلة الجبن الرطب في غيرها وأشد ويحمل القطعة فلا يعلق بيدك منها كثير شيء. (الهمداني ج ١ ص ١٩٨).

السمن والحلويات

اليمن: قال والد مؤلف كتاب صفة جزيرة العرب لوالده: سألني رجل ببغداد بما تأدمون في أسفاركم؟ قلت بالسمن، قال: أبالسمن، قلت، وما للسمن؟ قال: هو ضرب من السم، قال: أما والله لو ذقت البرطي منه والمغربي والكليبي والجنبي لعلمت أن دهن اللوز معه وضر ولذلك لا يعمل أهل اليمن حلاواهم إلّا به لأنه أطيب وأجود من الشيرق والمقشر ومن دهن اللوز والجوز ولطيبه يشربه الناس شرباً ويكون له رائحة شهية تدعو النفس معها إلى شربه والاستكثار من التأدم به وله لطف فلا يكاد يجمد لرقته ولطفه وخفته والسمن مما يبين به اليمن. (الهمداني ج ١ ص ١٩٧ ــ ١٩٨).

الشهد وطريقة عمله:

اليمن: وباليمن الشهد الحضوري الماذي الجامد الذي يقطع بالسكاكين.

ويهدى إلى العراق ومكة وسائر البلدان في القصب. وصفة عمله أن يحر في الشمس ويصير في عقود قصب اليراع وأقيمت تلك القضية أياماً في بيت بارد حتى يعود إلى جموده ثم ختمت أفواه القصب بالقصة وحمل فإذا أراد تقويمه على الموائد ضرب بالقصبة الأرض فانفلقت عن قصبة عسل قائمة فقطعت بالسكين على طيفورية أو رغيف. (الهمداني ج ١ ص ١٩٨ ــ ١٩٩).

ألوان الطعام:

اليمن: ولأهل اليمن ألوان الطعام والحلاوى والشربة التي تؤثر على غايات ألوان كتب المطابخ، ولهم مثل ألوان السمائد وألوان البقط والكشك السري وألوان الحلبة ومعقدات الأترج والقرع والجزر وقديد الخوخ والرانج واللّيّ وغير ذلك مما إذا سمع به الجاهل لزدراه وإذا شرع فيه قضم على طيبه بعض أنامله. (الهمداني ج ١ ص ١٩٨).

الجبن:

جلفار: بلد كثير الجبن. (معجم البلدان ج ٢ ص ١٥٤).

السمن:

جلفار: بلد كثير السمن. (معجم البلدان ج ٢ ص ١٥٤).

اللبن:

الشرجة: بلد اللبن. (المقدسي ص ٨٦).

حربث: فلاة بين اليمن وعمان. وهم اسم نبت، يقال: أطيب اللبن ما رعى الحريث والسعدان. (معجم البلدان ج ٢ ص ٢٣٦).

الزبيب:

الطائف: أكثر ثمارها الزبيب. (الأصطخري ص ٢٤، وابن حوقل ص ٣٢، وابن الفقيه ص ٢٢، والمقدسي ص ٧٩، وتقويم البلدان ص ٩٥).

الطائف: أما زبيبها فيضرب بحسنه المثل. (معجم البلدان ج ٤ ص ٩).

العسل:

الإصدار: يجلب منها العسل. (معجم البلدان ج ١ ص ٢١١).

جيلان: بلاد كثيرة العسل. (معجم البلدان ج ٢ ص ١٠٢، والهمداني ج ١ ص ١٠٣).

سراة الحجر: وبسراة الحجر العسل. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

السرين: معدن العسل الكثير. (المقدسي ص ٨٦).

المراجـع

- ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض**، ليدن، بريل، (طبعة ثانية)، ١٩٣٨.
- ابن رستة، أبو علي أحمد، **الأعلاق النفيسة**، ليدن، بريل، ١٨٩١.
- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد، **مختصر كتاب البلدان**، ليدن، بريل، ١٨٨٥.
- أبو الفداء، عماد الدين، **تقويم البلدان**، باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠.
- الأصطخري، ابن اسحق ابراهيم، **المسالك والممالك**، القاهرة، وزارة الثقافة، ١٩٦١.
- القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، القاهرة، وزارة الثقافة، ١٩٦٣.
- المسعودي، أبو الحسن علي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بيروت، دار الأندلس، ١٩٦٦.
- المقدسي، شمس الدين عبد الله، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن، بريل، ١٩٠٦.
- الهمداني، أبو محمد الحسن، **كتاب صفة جزيرة العرب**، ليدن، بريل، ١٨٨٤.
- ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، بيروت، صادر، ١٩٥٥.

سيرة الكاتب

- **ماجستير ــ دراسات عربية ــ الجامعة الأميركية ARAB STUDIES.**
- **ماجستير ــ علم المكتبات ــ جامعة نورث كارولينا ــ الولايات المتحدة الأميركية.**
- **دكتوراه ــ تاريـخ العرب ــ الجامعة الأميركية في بيروت.**

صدر له الكتب التالية:

*** فتاوي الأستاذ الإمام محمد رشيد رضا.**
بيروت ــ دار الكتاب الجديد ــ ١٩٧١.
*** الصحافة العربية في فلسطين ١٨٧٦ ــ ١٩٤٨**
بيروت ــ ١٩٧٦.
*** العلوم عند العرب ــ تبويب وتعاريف ونصوص ــ بيروت ــ دار الآفاق الجديدة ــ ١٩٨٣.**
*** رئيس تحرير مجلة «الوثائق العربية» منذ عام ١٩٦٧ التي تصدر عن الجامعة الأميركية في بيروت.**



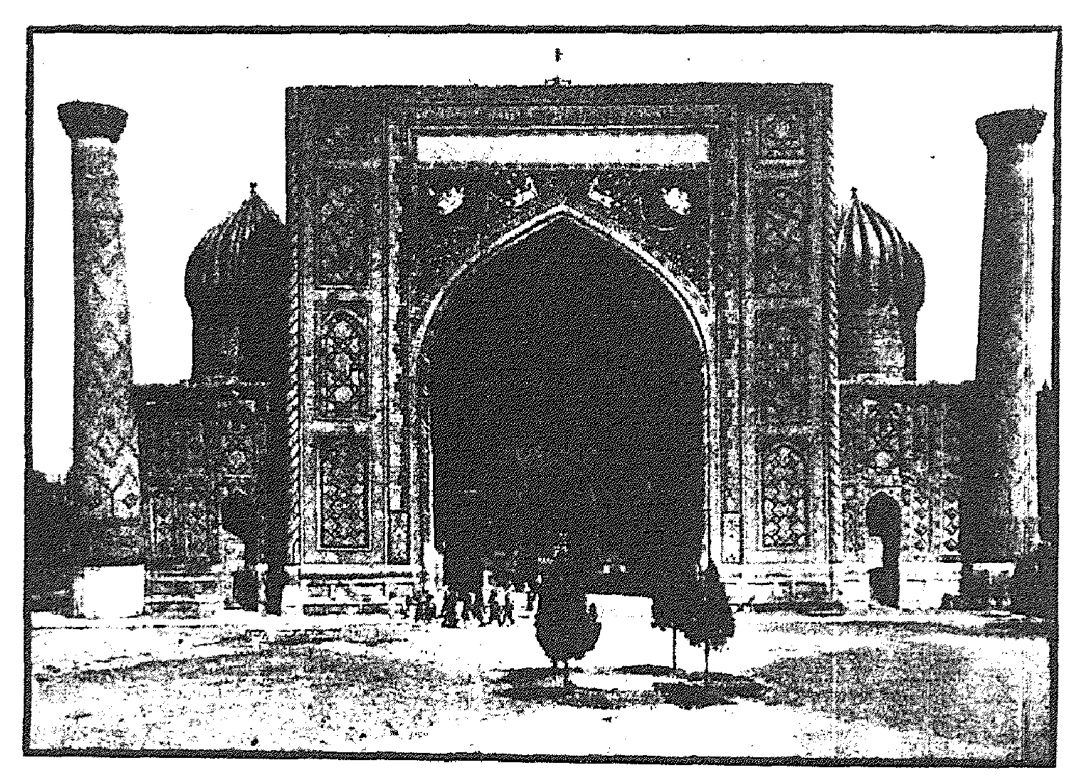
أعمال البلدية في صدر الإسلام (وتسمى الحسبة)

● من أعمالها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المنع عن المضايقة في الطرق، ومنـع الحمالين وأهل السفن من الاكثار من الحمل مما يسبب الغرق والضرر. وعليها النظر في المباني المتداعية للسقوط ولها هدفها أو إصلاحها؛ وعليها منـع المعلمين في الكتاتيب من ضرب الصبيان، ولهج النظر فيما يتعلق بالأسواق، من غش ونقص بالوزن والمكيال، ومنـع بيـع ما فسد من المأكولات وهي التي تعطي الموازين والمكاييل لأهل البلد؛ وعليها مراعاة حمل الدواب كي لا تحمل ما لا تطيقه. ولا يتولى تلك البلدية (الحسبة) إلا وجيه من المسلمين.

والفرق بين (الحسبة) (والقضاء) أن المحتسب له أن يتصفـح عن أحوال الناس وإن لم يرفـع الأمر إليه بخلاف القاضي فإنه ليس له أن يفحص عن أحوال الناس إلا إذا رفـع الأمر إليه.

ورقات من كتاب مجمع النوادر

د. نقولا زيادة



□مدرسة شير ــ دور في سمرقند، من الآثار الثقافية الإسلامية القديمة.

يحفل الأدب العربي بكتب وضعت لتنبيه الأمراء ورجال الحكم إلى أمور عامة وقواعد خلقية وأسس عملية يصح اتباعها في تسيير أمور الدولة وشؤون الحكم. ولأن هذه الكتب كانت تعكس وجهات نظر شرعية وأخلاقية وحكمية فقد كانت تسمى أحياناً «مرآة الأمير». وتختلف هذه الكتب فيما تحويه باختلاف المؤلفين والأدوار التي قاموا بها والمناصب التي شغلوها في الدول المختلفة. كما تتباين على أساس الفلسفات التي يقبل بها مؤلفوها أو الاتجاهات التي يتبعونها.

ومع انتشار الثقافة العربية الإسلامية في الرقعة الواسعة التي قامت فيها الدولة أولاً، ثم الدول فيما بعد، والتي تأصلت فيها هذه الحضارة العالمية، فقد ظهرت مثل هذه الكتب فيما بعد باللغة الفارسية، بعد أن عاد لهذه اللغة بعض ما كان لها (خاصة بعد القرن الرابع/العاشر الذي كان لبخارى فيه دور كبير في هذه الأمور).

ومن هنا فإننا نجد بعد مؤلفات الثعالبي (على سبيل المثال) ظهور كتاب باللغة الفارسية اسمه «مجمع النوادر» — والنوادر هذه تدور حول أربعة موضوعات أساسها الأفراد الذين يحتاجهم صاحب السلطان في بلاطه للمشورة والعون، وهم: الكتاب والشعراء والمنجمون والأطباء. وقد جعل «النظامي العروضي» مؤلف هذا الكتاب كل ما يتعلق بجماعة من هؤلاء في مقالة. ولأن الكتاب موضوع أصلاً بالفارسية فكان له اسم ثانٍ بالإضافة إلى مجمع النوادر هو «جهار مقاله» أي المقالات الأربع: في الكتابة والشعر والنجوم والطب. وجعل المؤلف لكل مقالة تمهيداً قصيراً ثم روى عشر حكايات (إلا في المقالة الرابعة عن الطب ففيها اثنتا عشرة حكاية) تبين كل واحدة عبرة تصلح للاحتذاء أو للتمثل بها.

والكتاب إذا قرأه الرجل العادي المثقف أعجبته فيه طرافة حكاياته، أما من يريد أن يعتبر بالحكاية فإنه واجد فيها الكثير مما ينفعه.

ومؤلف الكتاب النظامي العروضي معرباً ونظامي عروضي أصلاً عاش في النصف الأول من القرن السادس/الثاني عشر. والذي نعرفه عنه قليل. فهو قد ولد قبل ٥٠٠ / ١١٠٦ وكان لا يزال حياً سنة ٥٥٢ / ١١٥٧. ولد في سمرقند، وبها سمع عن بعض شعراء الفرس من أهل منطقة ما وراء النهر مثل الرَّوْدَكي (الرُدكي). وانتقل بعد ذلك إلى بلخ حيث عمل في خدمة عمر الخيام. ونجده في هراة (٥٠٩ / ١١٥). واتصل بعد ذلك بالسلطان السلجوقي مفر الدين سنجر (٥١١ — ٥٥٢ / ١١١٨ — ١١٥٧). وزار العروضي نيسابور مرتين. والتحق بالسلطان علاء الدين الغوري (٥٤٤ — ٥٥٦ / ١١٤٩ — ١١٦١). وقد وضع كتابه حوالي سنة ٥٥١ / ١١٥٦؟ ويبدو أن الكتاب وضع السلطان السلجوقي بعده حياً، وثمة دعاء من المؤلف للسلطانين السلجوقي والغوري اللذين اتصل بهما، إذ يشير إليهما بقوله: «خلّد الله ملكتهما وسلطانهما».

وليس من المنتظر أن تكون كل حكاية صحيحة في تفاصيلها ودقائقها. فالنظامي ليس مؤرخاً هنا ولا عالماً. إنما هو ناصح مذكر. ومن ثم فإنه يقبل بعض الحكايات على الشكل الذي وردت فيه، ويرويها كما وقعت له. وهذا الأمر ينجر على عدد كبير من الكتب التي من هذا النوع: أدب النصح والإرشاد والتعليم والتندر والتسلية و«جهار مقاله» نقله عن الفارسية إلى العربية عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب، ونشر في القاهرة سنة ١٣٦٨/١٩٤٩ للمرة الأولى. وقد أحسن المترجمان إذ نقلا الحواشي الدقيقة التي وضعها بالفارسية أصلاً العالم محمد القزويني.

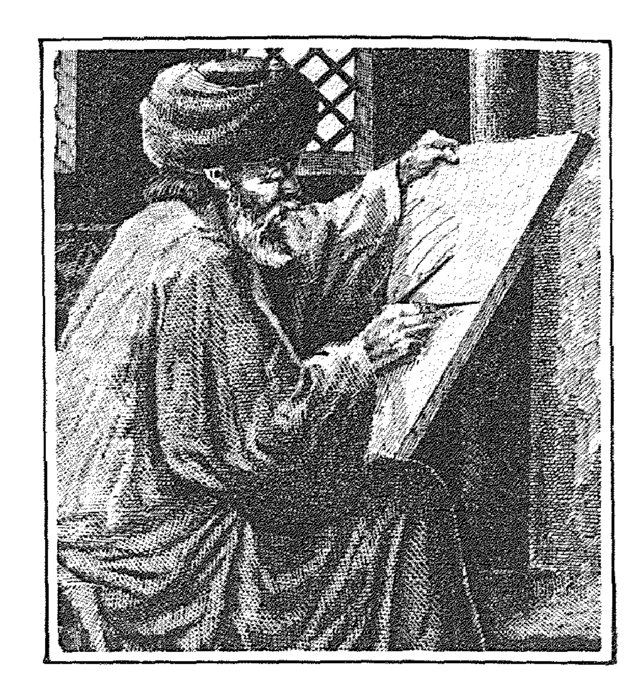
— ٢ —

وقد انتزعنا ورقات من هذا الكتاب، مع أننا واثقون من أن فيها بعض التجاوز على التاريخ. لكننا اخترناها لسببين الأول للدلالة على مدى تغلغل الحضارة العربية في الاصقاع البعيدة أصلاً عن قلب العروبة الأصلي، والثاني كي نضع بين يدي القارىء نموذجاً لقرن من قرون نضج الحضارة العربية (القرن الرابع/العاشر) للعلماء الذين عاشوا فيه، واستمر البعض منهم إلى القرن التالي.

وسننقل القصة كما رواها النظامي العروضي (مترجمة)، ثم نتحدث عن كل الأشخاص الواردة أسماؤهم بالقدر الذي يوضح دوره، دون أن نطمح بانصافه في مثل هذه العجالة.

روى النظامي قائلاً:

كان لأبي العباس مأمون خوارزمشاه وزير اسمه أبو الحسين أحمد بن محمد السهلي. كان حليم الطبع كريم النفس فاضلاً. وكذلك كان خوارزمشاه حكيم الطبع صديقاً لأهل الفضل. وبفضلهما اجتمع كثير من الحكماء وأهل الفضل في هذه الحضرة مثل أبي علي ابن سينا وأبي سهل المسيحي وأبي الخير الخمار وأبي الريحان البيروني وأبي نصر العرّاق...



□البيروني.



□ابن سينا.

وكانت هذه الطائفة من العلماء في القصر غنية عن أمور الدنيا، وكان لبعضهم انس لبعض بالمحاورة وطيب عيش بالمكاتبة. لكن الزمن لم يرضى بهذا... فقد أتى أحد العظماء من قبل السلطان محمود [الغزنوي] ومعه كتاب فيه «إني سمعت أن مجلس خوارزمشاه جماعة من أهل الفضل ليس لهم نظير [وعدَّدهم] فعليك أن ترسلهم إلى مجلسنا ليشرف بهم، ولكي نفيد من علومهم وكفاياتهم، ولتكون هذه منة لخوارزمشاه علينا».

وكان الرسول الرئيس حسين بن علي بن ميكال، وكان من أفاضل العصر وأماثله... وكانت دولة محمود في أوجها وملكه مزدهراً... وملوك زمانه يهابونه... فأنزل خوارزمشاه الرئيس حسين بن ميكال مكاناً طيباً وأكرمه. ولكنه دعا الحكماء وعرض عليهم هذا الكتاب قبل أن يأذن له بحضور المجلس. ثم قال لهم «أن محموداً الغزنوي ملك قوي وعنده جيش ضخم. وقد أخضع خراسان وهندوستان، وهو يطمح في العراق. وأنا لا أستطيع الخروج على مثاله أو عصيان أمره. فماذا تقولون في هذا الكتاب؟». فقال ابن سينا وأبو سهل المسيحي «نحن لا نذهب إليه». وأما أبو نصر العرّاق وأبو الريحان البيروني وأبو الخير الخمار فقد رغبوا في الذهاب إليه، وكانوا قد سمعوا بأخبار صلاته وهباته. فقال خوارزمشاه لابن سينا والمسيحي «إنكما لا ترغبان في الذهاب إلى محمود، فخذا طريقكما قبل أن آذن لهذا الرجل بمقابلتي». ثم أنه يسر لهما الأسباب وعين لهما دليلاً فسارا نحو جرجان عن طريق الصحراء.

وفي اليوم التالي دعا خوارزمشاه الرسول حسين بن ميكال إلى المجلس فأكرم وفادته وقال «إني قرأت الكتاب ووقفت على مضمون رسالة السلطان وأمره، ولكن ابن سينا والمسيحي قد رحلا. وأما أبو نصر وأبو الريحان وأبو الخير فيستعدون للتوجه للخدمة».

وقد أخذ هؤلاء أهبتهم في وقت قصير فأرسلهم خوارزمشاه مع الرئيس حسين. فجاؤوا إلى حضرة السلطان محمود والتحقوا بمجلسه.

وكان مقصود السلطان محمود ابن سينا. وكان أبو نصر العرّاق نقاشاً، فأمره محمود بتصوير ابن سينا على الورق. ثم دعا النقاشين وأمرهم برسم أربعين صورة منها، فأرسلها مع الأوامر السلطانية إلى أطراف البلاد وأمراء الأقاليم وأمرهم أن يبحثوا عن رجل بهذه الصورة اسمه ابن سينا وأن يرسلوه إليه.

ولما انصرف ابن سينا والمسيحي مع الدليل من عند خوارزمشاه حثوا السير. لكن في اليوم الرابع هبت عليهم ريح عاتية فضلوا سبيلهم بسبب العجاج. ومات المسيحي من شدة العطش.

وبعد أن وصل الآخران إلى باوَرْد، رجع الدليل، واستمر ابن سينا في سيره إلى طوس ونيسابور ثم اتجه إلى جرجان.

هذه القصة فيها طابع الحكاية المبني على تاريخ محرف قليلاً كي تبدو القضية وكأنها درامة!

ولكننا اخترناها لنعرف القراء بهؤلاء النفر الواردة أسماؤهم فيها، وهم جماعة من أهل المعرفة والحكمة.

ولنبدأ ببلاط الخوارزمشاهيين. حكمت هذه الأسرة بلاد خوارزم، في حوض نهر سرداريا الأدنى (٣٨٥ ــ ٤٠٨ / ٩٩٥ ــ ١٥١٧)، وكانت عاصمتهم كوركانج (الجرجانية). وكان الأمير الذي حدثت القصة في عهده هو مأمون بن مأمون (٣٩٩ ــ ٤٠٧ / ١٠٠٩ ــ ١٠١٧). وقد كانت دولة خوارزم هذه غنية بسبب وقوعها على الطرق التجارية البرية بين الصين وأواسط آسية من جهة وسيبريا والمناطق الواقعة شرقيها من جهة ثانية. وكان أمراؤها، وخاصة مأمون هذا، أهل علم، ومن ثم كان بلاطهم يرعى أهل الفكر. وقد لا يكون هؤلاء النفر اجتمعوا دفعة واحدة، لكن كلا منهم كان له في هذا البلاط إقامة ورعاية.

والوزير أبو الحسين بن محمد السهلي (أو السهيلي) فقد وزير لعلي بن مأمون (٣٨٧ ــ ٣٩٩ / ٩٩٧ ــ ١٠٠٩) ثم لأخيه مأمون صاحب القصة. وهو خوارزمي الأصل رجل إلى بغداد سنة ٤٠٤ / ١٠١٣ فاتخذها موطناً له. ثم توفي في سرّمن رأى (سامرّاء) سنة ٤١٨ / ١٠٢٧. ولعلّ هذا الوزير خشي أن يصل محمود الغزنوي إلى خوارزم فيأسره.

أبو الخير الخماد النصراني الفيلسوف المنطقي الطبيب. ولد في بغداد (٣٣١ / ٩٤٢) وقرأ علوم الفلسفة والمنطق على ابن عدي، وبلغ الغاية في هذين الفنين. وبعد أن أكمل الطب ذهب إلى خوارزم واتصل بخدمة مأمون بن مأمون المار ذكره. ولما فتح السلطان محمود الغزنوي بلاد خوارزم (٤٠٨ / ١٠١٧) حمله مع بقية العلماء إلى غزنة. وهنا نرى أنه لم يذهب مع الرئيس حسين بن ميكال.

كان أبو الخير يتواضع مع الفقراء ويترفع مع الأغنياء. ويذكر أبو الخير بين الذين عملوا في الترجمة من السريانية إلى العربية. وله في الطب والفلسفة والمنطق ما يقرب من خمسة عشر مؤلفاً. وكان أبو الخير قد اعتنق الإسلام.

أبو نصر منصور بن علي العرّاق. كان من كبار الرياضيين في القرن الرابع/العاشر. وهو من معاصري البيروني وله كتب في الفلك وقام بتصحيح عدد من الازياج ودراسات في تصحيح الكواكب العلوية. وقد روي أنه متحدّر من ملوك خوارزم القدماء.

المسيحي ــ هو أبو سهل عيسى بن يحيى. ولد بجرجان ودرس هناك أولاً ثم أتم دراسته في بغداد. ويقال أنه أحد أساتذة ابن سينا. توفي سنة ٣٩٠ / ١٠٠٠ في عاصفة هوجاء بعد أن فر هو وابن سينا من بلاط مأمون الخوارزمشاهي. وله عدد من الكتب هي أقرب إلى الرسائل. وقد أورد منها أبو الريحان البيروني اثنتي عشرة رسالة، في مبادىء الهندسة ودلالة اللفظ على المعنى. ومن أهم كتبه الطبية «كتاب المائة في الطب».

البيروني ــ ولد أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني في ضاحية من ضواحي خوارزم (٣٦٢ / ٩٧٣). والمكان كان مركزاً يقيم فيه التجار للتخلص من دفع المكوس على متاجرهم (وكان يسمى بيرون). عني بالشؤون العلمية منذ صغره، مع ميل خاص إلى العلوم الرياضية والفلكية. وكان العرّاق (المذكور آنفا) معلّمه.

وقد قضى أوائل عمره في بلاط أمراء خوارزم. فلما اغتيل الأمير خشي على نفسه، فرحل إلى جرجان (٣٨٥ / ١٠٠٤) وهناك وضع كتابه «الآثار الباقية في القرون الخالية» تكريماً لراعيه أبي الحسن قابوس الزباري (٣٦٧ ــ ٤٠٢ / ٩٧٨ ــ ١٠١٢). وهذا الكتاب يبحث في تقاويم الأمم والفلك وما عرفته الأمم الخالية من وسائل لقياس الزمن.

وعاد البيروني إلى وطنه بعد غياب خمس عشرة سنة، فكان في بلاط مأمون بن مأمون الخوارزمشاهي. وقد وضع كتاباً في «تاريخ خوارزم» لكن الكتاب فقد.

ولما احتل محمود الغزنوي خوارزم وقضى على دولة الخوارزمشاهيين، حمل البيروني إلى غزنة (٤٠٨ / ١٠١٧). واستقر العالم هناك، وكان يرافق السلطان الغزنوي في حملاته إلى الهند.

وتعلم السنكريتية ولذلك يعتبر كتابه المسمى «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة» (ويسمى اختصاراً كتاب الهند) الكتاب الوحيد الموضوع بالعربية الذي تمكن مؤلفه من فهم ما كان للهند من فلسفة وحكمة ومعرفة.

وكان البيروني يمثل النزعة «البحثية» في ما كتب. فقد حصل على الكثير من معلوماته «ميدانياً»، كما كان يخضع كل قضية لأشد انواع التدقيق.

وقد وضع البيروني عشرات الكتب إلا أن اهمها الكتابان اللذان أشرنا إليهما. وثمة ثلاثة علماء يشير إليهم البيروني على أنهم ألفوا كتباً باسمه هم: أبو نصر العرّاق (معلمه) وأبو سهل المسيحي زميله وصديقه وأبو علي الجيلي.

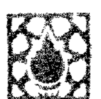
ابن سينا ــ هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا. ولد في قرية من قرى نجارى (٣٧٠ / ٩٨٠) ونشأ في نجادي عاصمة السامانيين (٢٠٤ ــ ٢٦٥ / ٨١٩ ــ ١٠٠٥) فحفظ القرآن وهو ابن عشر، وأخذ الفقه عن عالم محلي. ثم تلقى أصول الفلسفة على يد الناتلي. لكن ابن سينا كان تلميذ نفسه في هذه وفي الطب. وطبّ لنوح بن منصور أمير بخارى (٣٦٥ ــ ٣٨٧ / ٩٧٦ ــ ٩٩٧) ودخل مكتبته فقرأ فيها عيون الكتب في أكثر الموضوعات أهمية.

وكانت له نزعة إسماعيلية لذلك لما اقترب محمود الغزنوي (٣٨٨ ــ ٤٢١ / ٩٩٨ ــ ١٠٣٠) من دولة السامانيين رحل ابن سينا غرباً إلى خوارزم ثم إلى جرجان. واستقر في الري بعض الوقت ثم ذهب إلى همذان وأصفهان. وتوفي سنة ٤٢٨ / ١٠٣٨).

وابن سينا فيلسوف وطبيب، وهو فيلسوف الأطباء كما يسمونه. وله في الفلسفة «كتاب الشفاء» و«كتاب النجاة»، هذا فضلاً عن عشرات من الكتب والرسائل. أما في المجال الطبي «فالقانون في الطب» هو خير ما كتب، ومن خير ما وُضِع في الكتب الطبية في العصور الحالية.

رأيت في هذه الحكاية ــ بعد أن تحدثت عن مسرحها وعن الممثلين فيها ــ أولئك الذين ظهروا على المسرح وأولئك الذين ظلوا خلف الكواليس؛ رأيت بعد ذلك أنها تمثل ناحية خاصة من نواحي النضج الحضاري العربي. فكل من الممثلين المفكرين قمة في المعرفة مع انتماء خاص لموضوع هو فيه المبرز؛ وهم في مجموعهم يمثلون أعلى ما وصلت إليه الحضارة العربية الإسلامية؛ ثم أكمل ما تمكنت العربية من التعبير عنه من المنطق إلى العلم الإلهي ومن الطب إلى الرياضيات والفلك. والأسماء شاهدة؛ لكن الشهادة تأتي من الكتب التي خلفها هؤلاء الناس.

●



● دع هذا الذي يتحسس طريقه في الظلام الضوء المرتجف، ويدعو ويبتهل لإقبال الفجر، يستمسك بهذه الوصية ويحرص عليها أشد الحرص وهي: أن يعمل الواجب القريب منه. فإذا قام بذلك أصبح الواجب الذي يتلوه أوضح طريقاً وأبين مظهراً.

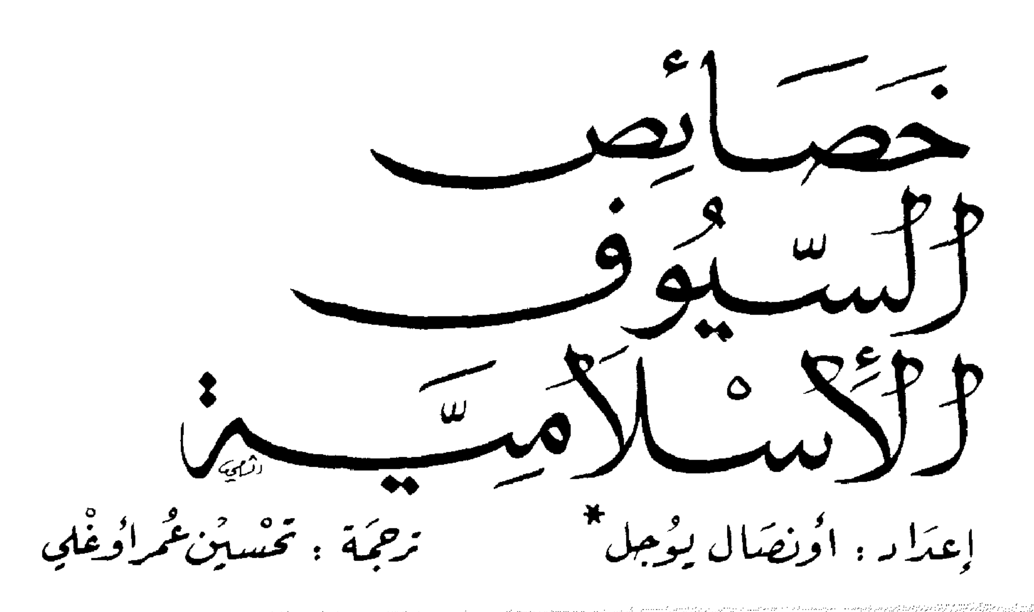
«جيتي»

● أحسن وسيلة للتغلب على الصعاب اختراقها.

«انوثيميس»

● العمل هو الفيتامين الحقيقي الذي لا غنى عنه.

«دوروثي»



خصائص السيوف الإسلامية

إعداد: أونصال يوجل* ترجمة: تحسين عمر أوغلي

احتل «الجهاد»، لدى المسلمين، مقاماً علياً، حتى أنّ بعضهم قد رفعوه إلى مصاف الأركان، وجعلوه ركناً سادساً. فالإسلام الذي ألف بين قلوب تابعيه جعلهم يدافعون عنه بالنفس والنفيس، فيلبون دعوة رسولهم أو خليفتهم ويقاتلون قتال «عطاشا الموت» في سبيل نصرة دينهم، لا يحثهم على ذلك سوى العاطفة الدينية والرغبة في نشر الإسلام، الذي فعلاً نجحوا في نشره وامتداده امتداداً لا قرين له في نهضة الدول العالمية[1]. ومما يستدعي الانتباه ويستحق الذكر، إن كل تلك الفتوحات التي حققها المسلمون قد أنجزت بوسائل حربية لا تتعدى الدروع والسيوف والرماح والقسي والسهام، وإن اعتصم العدو بالحصون رموه بالمنجنيق[2] أو هاجموه بالضبور(*) إلّا أن السلاح الأبرز والأكثر التصاقاً بنفوس المسلمين هو «السيف»، لأنهم كانوا أكثر ما يعتمدون في قتالهم مع العدو طريقة التلاحم، التي برعوا بها، وهي لا تحتاج لأكثر من سيف حادّ.

ونحن هنا في هذا العدد، نسلط الضوء على ذلك السلاح البسيط الصنع، الحادّ الفعل، الأنيق الشكل من خلال دراسة قام بها الدكتور أونصال يوجل، وهي تشكل أحد فصول كتاب «السيوف الإسلامية وصنّاعها» الذي وصلنا من «مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول» الذي كان قد عهد إلى الدكتور «يوجل» بإعداد دراسة حول مجموعة السيوف الإسلامية المحفوظة في متحف طوب قابي والمتحف العسكري(**) والتي يرجع تاريخها إلى الفترة ما بين القرنين (١ ــ ١٠هـ / ٧ ــ ١٦م).

ولأهمية هذا الموضوع وطرافته، شاءت «تاريخ العرب والعالم» نشر هذه الدراسة على صفحاتها لتعمّ الفائدة جميع قرائها.

□ الدكتور أونصال يوجل، كان محافظاً لجناح الاسلحة بمتحف «طوب قابي» ثم معيداً في قسم تاريخ الفن بجامعة استانبول. وله آثاراً قيّمة من كتب ومقالات عديدة في الفنون الإسلامية.



سوف نركز في هذا البحث على خصائص السيف الإسلامي وعلى تطور شكله، فقد سارت الأسلحة وسائر الأدوات التي استخدمها الإنسان طول العصور الوسطى، سيراً وئيداً وهي في طريقها إلى التطور والتغيير.

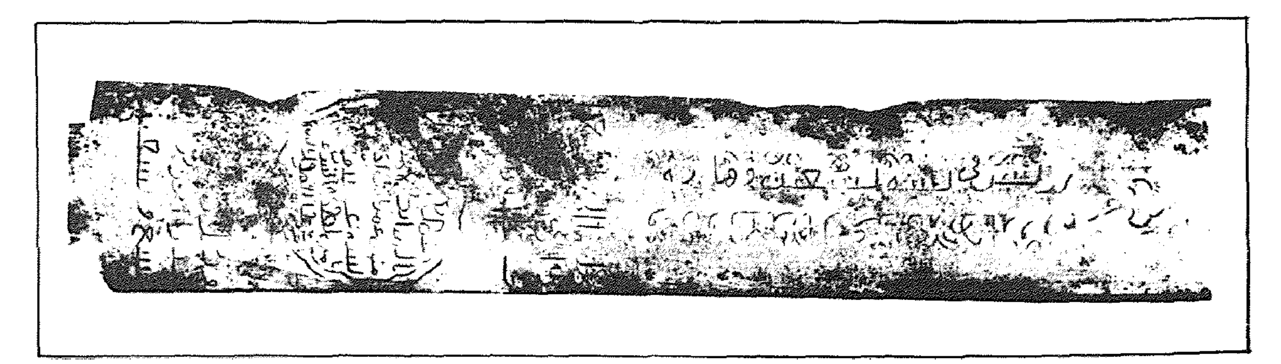
الواقع أن طريقة استخدام السيف هي التي كانت تحدد شكله، فإذا لم تتغير طريقة وأسلوب الاستعمال، فإن أي تغيير يصبح بالضرورة غير لازم. والهدف من التغيير أساسه البحث عن أنسب الأشكال ملاءمة لطرق الاستخدام وأغراضه؛ عندئذ يتحقق الوصول إلى الشكل المطلوب.

ونظراً لأن السيف سلاح بسيط، فقد كانت مجالات تطويره محدودة. وهناك علاقة وثيقة بين الطول والعرض والسمك والثقل بالنسبة للسيف الإسلامي المستقيم ذي الحدين، وبالطبع لا يمكن تجاوز حدود هذه العلاقة.

وعلى أية حال، فقد مرّ السيف الإسلامي بتغييرات هامة في شكله، لا سيما بين القرنين ٧ ـــ ٩ هـ / ١٢ ـــ ١٥ م؛ فنراه يتحول ـــ في هذه الفترة ـــ من شكله المستقيم ذي الحدين إلى الشكل المقوس ذي الحد الواحد. لقد طرأ تغيير طفيف على الشكل نتيجة تأثير وافد من آسيا الوسطى، لكن نظراً للارتباط الشديد بين الشكل والاستخدام، فإن الأمر لم يكن مجرد تأثر بالغير فقط، بل كان متعلقاً بطرق القتال المختلفة التي من شأنها بالطبع أن تفرض التغيير في شكل السيف[١].

وفي كلامنا عن شكل السيف الإسلامي وتطوره سوف نعتمد اعتمادا مباشراً على النماذج الموجودة بين أيدينا، لنصل من خلال ذلك إلى نتائج شاملة ودقيقة، آخذين بعين الاعتبار أهمية المصادر المكتوبة والمصورة، التي قد تساعدنا على التعرف الكافي على خصائص السيوف الإسلامية. ولدينا باستانبول من النماذج ما يكفي لعمل دراسة متكاملة، حول خصائص السيف الإسلامي وتطوره خلال ٩٠٠ سنة، منذ ظهور الإسلام، أي من النصف الأول من القرن الأول الهجري/السابع الميلادي حتى النصف الأول من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي. وعلى الرغم من ذلك فإن هذا العمل لا يعد حصراً شاملاً لكل أنواع السيوف، بسبب عدم توفر نماذج لدينا تمثل جميع الدول الإسلامية، مما يرجع إلى هذه الفترة. ومما لا ريب فيه فإن مرور المسار التاريخي الذي ترسمه النماذج الموجودة في حوزتنا، عبر الأقاليم الإسلامية الكبرى في ذلك الوقت، سوف يساعدنا على توضيح الخطوط الرئيسية لتدرج تطور السيف الإسلامي.

لقد انتهت المرحلة الأولى التي بدأت بالسيوف الأموية والعباسية بسقوط الخلافة العباسية عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م، وأعقبتها دولة المماليك التي تعتبر بدايتها الحقيقية زمن السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨ ـــ ٦٨٩هـ / ١٢٨٠ ـــ ١٢٩٠م). ويبدأ عدد السيوف التي ترجع إلى هذه الفترة في الازدياد تدريجياً، حتى وقت انتهاء دولة المماليك عام ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م. وهذا هو الخط المتصل لمسار الموضوع ودراسته تاريخياً.



□لوحة رقم ـــ ١ ـــ
سيف عربي يعرف باسم «سيف الخلفاء». الطول بالكامل ٩٨ سم، الفصل ٨٨ سم.

وتستدعي الضرورة أن يكون هناك خط هام ثان لتطور السيف عند السلاجقة العظام وسلاجقة الأناضول في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي وفي أوائل عهد العثمانيين، لكن للأسف لم تصلنا أي نماذج تذكر لتمثل تلك الفترة. على أننا نستطيع التعرف على ملامح هذا الخط الثاني عن طريق النماذج التي ترجع إلى زمن السلطان محمد الثاني (٨٥٥ ــ ٨٨٦ هـ / ١٤٥١ ــ ١٤٨١ م). وعلى أية حال فإن السيف التركي العثماني كان قد استقر على شكله النهائي في تلك المرحلة.

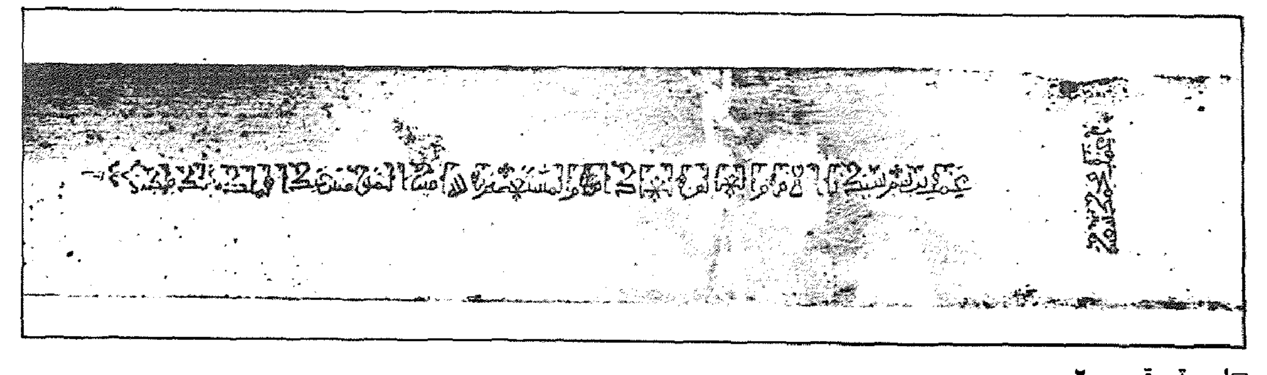
وهناك خط ثالث هام في مسار تطور السيف الإسلامي، وقد بدأ هذا الخط الثاني الذي سبق أن أشرنا إليه. ويتضمن هذا الخط الثالث، نماذج السيوف التي صنعت في إيران وما حولها. وفي فترة ما بعد السلاجقة العظام. غير أنه لا توجد بين أيدينا نماذج أصلية تنتمي إلى هذه المنطقة أو هذه الفترة الزمنية بالذات[٣]. ويعود أقدم ما لدينا من نماذج، إلى وقت متأخر جداً، وهو الوقت الذي وصل فيه السيف الإيراني إلى أنضج مراحله في عهد الشاه طهماسب الأول (٩٣٠ ــ ٩٨٤ هـ / ١٥٢٤ ــ ١٥٨٨ ــ ١٥٧٦م) والشاه عباس الأول (٩٩٦ ــ ١٠٣٨هـ / ١٥٨٨ ــ ١٦٢٩م) في العهد الصفوي.

١ ــ السيوف الأموية والعباسية

إن النماذج المبكرة التي لدينا من السيوف الإسلامية هي تلك المنسوبة إلى الرسول وإلى الخلفاء الراشدين وبعض الصحابة الكرام، وهي محفوظة في دائرة «البردة النبوية الشريفة» بمتحف طوب قابي وبعضها معروض للزوار. وإذا كنا لم نجعل هذه السيوف المبكرة موضوع بحثنا فإننا وجدنا بين ما يحتفظ به جناح الأسلحة بمتحف طوب قابي عدداً من السيوف التي تعود إلى القرنين الأول والثاني الهجريين / السابع والثامن الميلاديين قد عوّضنا عما تركناه وواصلنا بحثنا حسب خطتنا دون عائق أو نقص. والواقع أننا لا نرى فارقاً مهماً بين السيوف الإسلامية المبكرة جداً وبين السيوف التي ترجع إلى العصر الأموي.

ومن الممكن تقييم معظم السيوف الأموية والعباسية التي نتناولها في بحثنا هذا، من خلال ما عليها من كتابات. وأكثر هذه المجموعة أهمية، ذلك السيف المعروف باسم «سيف الخلفاء» (س. ط. ق. ١/٨٤ لوحة رقم ١) حيث تتوافق التواريخ الموجودة عليه مع تواريخ حكم الخلفاء الذين ورد ذكرهم عليه. ولا يرجع أسلوب الكتابة الموجودة على السيف، إلى ما قبل عصر هارون الرشيد (١٧٠ ــ ١٩٣ هـ / ٧٨٦ ــ ٨٠٩ م)، وإن كان النصل ذاته من صناعة أوائل العصر العباسي. ويعطينا هذا النصل فكرة عن طبيعة النصال الأموية أيضاً.

وهناك السيف الذي يحمل اسم الخليفة معاوية بن أبي سفيان. وهو من النماذج المبكرة التي بين أيدينا (س. ط. ق ١/٨٣) ومع مرور



□لوحة رقم ــ ٢ ــ
سيف الخليفة المستعصم (٦٤٠ ــ ٦٥٦ هـ /١٢٤٢ ــ ١٢٥٨ م). صانعه: محمد سعيد. الطول بالكامل ١٠٥ سم، النصل ٨٨,٥ سم.

الزمن وبفعل الصدأ فقد تلاشت الكتابة الموجودة عليه إلى حد بعيد مما دفع إلى إعادة كتابتها ثانية على السيف بأسلوب مختلف وبعد زمن طويل.

ونلاحظ في الكتابة الموجودة على أحد نصلي سيفين ينسبان إلى الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، اختلافاً في تاريخ السيف عن تاريخ مدة خلافة عمر بن عبد العزيز ذاته (س. ط. ق ٩٩/١) أما نصل السيف الثاني فأموي أصيل (س. ط. ق ٩٨/١).

والنماذج الأخرى ذات الكتابات فهي، بدون شك، عبارة عن نصال سيوف كلها عباسية (س. ط. ق ١٠٠/١) (س. ط. ق ١٠٩/١)، (س. ط. ق ١٣٥/١ ــ لوحة رقم ٢)، (س. ط. ق ٨٥/١).

وهناك مجموعة من النصال الأموية والعباسية يصعب الفصل بينها، ولكن يمكن تحديد خصائصها على النحو التالي:

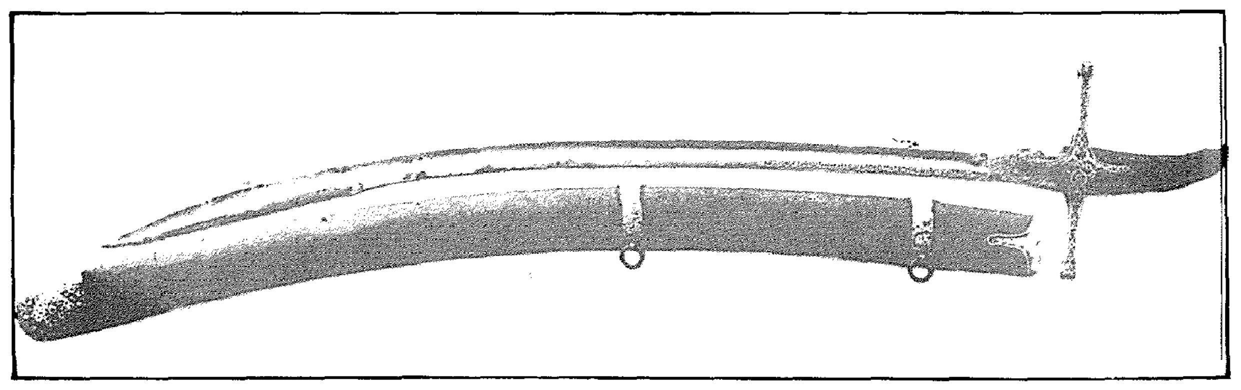
١ ــ نصال ذات حدين، وهذه تستمر بعرض واحد من عند المقبض حتى طرف النصل غير المدبب، حيث لم يصنع هذا النوع ليستخدم في الوخز. الطول أقله ٧٦ سم وأكثره ٩٦ سم، غير أن معظم الموجود من هذا النوع يبلغ طوله حوالي ٨٦,٥ سم.

٢ ــ نصال ليست لها شطوب (حزوز)، لأنها لا تستخدم في الوخز، ويصعب نفاذها في الجسد.

٣ ــ نصال يوجد بها إما دائرة صغيرة واحدة أو ثلاث أو سبع دوائر محشوة بالذهب. وتقع هذه الدوائر أو الثقوب المحشوة بالذهب على جانبي الكتابة الموجودة على النصل، وعند طرفه. ويتم عمل هذه الثقوب الذهبية، بإنزال سلك من ذهب في ثقب دائري مفتوح في جسم النصل، ثم يسوى سطح الذهب المنزل في الثقب بسطح النصل، الذي يكون متوسط سمكه حوالي ٠.٥ سم. ويعتقد أن هذه الثقوب أو النقاط أو الدوائر الذهبية، كانت تجلب الحظ لصاحب السيف.

وليست لدينا بعد ذلك معلومات مؤكدة عن مقابض وواقيات السيوف الأموية والعباسية ولا عن اغمادها حيث تفتت أجزاؤها الخشبية الموجودة في المقابض والاغماد بمرور الزمن، فجدد بعضها بالكامل، واحتفظ بنصال البعض الآخر دون ترميم أو إصلاح ولا سيما عندما ألغي استعمال نوعها.

ونظراً لأن السيف المستقيم ذا الحدين، يستخدم حدّاه في العمليات القتالية، فقد استتبع ذلك أن يكون المقبض مستقيماً، وأن يكون في طرف المقبض بروز من الجانبين. ويؤيد هذا الاستنتاج، ما نشاهده في المنمنمات العربية المبكرة التي ترجع إلى نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، حيث تظهر المقابض وطاقياتها (قبيعاتها) بالشكل الذي وصفناه[٣]. وعلينا ألا ننخدع بوجود بعض أمثلة يكون فيها سيلان أو عصعص النصل مقوساً. فربما يكون السيف قد رمم في وقت متأخر ووضع له مقبض مقوس عوضاً عن مقبضه الأصلي. ويرجح هذا معاينتنا لأحد حدي النصل



□لوحة رقم ــ ٣ ــ
سيف السلطان حسام الدين لاجين (٦٩٦ ــ ٦٩٨ هـ /١٢٩٧ ــ ١٢٩٩ م) صانعه: الأستاذ... الحلبي، الطول بالكامل ٩٤ سم، النصل ٨٠,٥، الغمد ٨٤ سم.

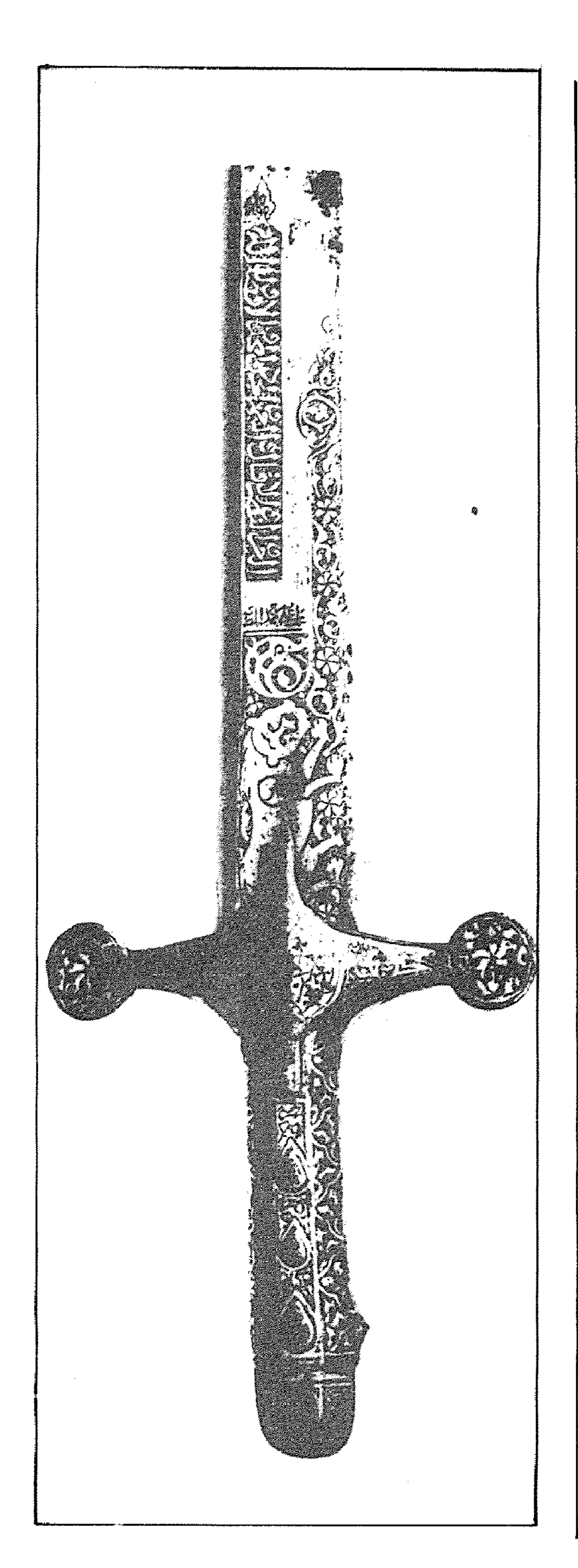
وقد كلّ وملأته الثلوم (لوحة رقم ١) بينما ظل الحد الآخر صالحاً للاستخدام، وذلك بعد الترميم وإضافة مقبض مقوس. وكان من المألوف أن يوجد بسيلان النصل ثقب واحد فقط، إلا أنه في حالات متفرقة وجدت ثقوب عدة، وربما يكون ذلك نتيجة لبعض عمليات الترميم التي أجريت في وقت متأخر.

وبما أن الواقيات مصنوعة من المعادن، فقد يشير هذا إلى احتمال إعادة استخدامها في إصلاح المقابض، ولعل هذا ما جرى بالفعل لسيف مملوكي أعيدت له واقيته الأصلية بعد أن رممه صانع أسلحة عثماني. وما يقال من أن الواقيات الأصلية للسيوف الأموية والعباسية لا يعاد استخدامها، لدليل على أن شكل المقبض كان بحاجة إلى تغيير أساسي وأن الواقية القديمة لم تعد تتوافق مع المقبض الجديد. ويرجح أن يكون شكل هذا المقبض القديم، مماثلاً لمقابض السيوف المملوكية السورية في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي (س. م. ع ٢٣٤٠)، (س. م. ع ٢٣٦٠)، (س. م. ع ٦٤٠٢)، (س. م. ع ٢٣٥٣). ومن الواضح أن واقيات هذا النوع من المقابض لا يمكن أن تستعمل مع مقابض من نوع آخر. وفي المنمنمات العربية المبكرة التي أشرنا إليها فيما سبق، لا تظهر الواقية من قطعة مستقلة وعلى شكل متعامد، كما أنها لا تشكل بروزاً في اتجاه المقبض، وإنما تظهر بذراعين ملتويين نحو الداخل.

ونستطيع أن نستخلص من ثنايا تلك المنمنمات بعض المعلومات المتعلقة بالاغماد: فلها مثلاً حلقتا تعليق وكعب (نعل) ولا توجد في فوهتها قطعة معدنية.

٢ ـ السيوف الأيوبية

يتوفر لدينا سيف واحد يرجع إلى العصر الأيوبي وينسب إلى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبي (س. م. ع ٢٣٥٥).



□لوحة رقم ـ ٤ ـ
سيف مملوكي. تاريخه: أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. صانعه: علي بن محمد المصري، الطول بالكامل ٩٨ سم، النصل ٨٤ سم.

مقبض هذا السيف مفقود لكنه ما يزال يحتفظ بواقيته. وكما هو معروف فإن سيوف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ذات نصال مستقيمة وذات حدين وغير مدببة الطرف، وهي بذلك تشبه السيوف الأموية والعباسية.

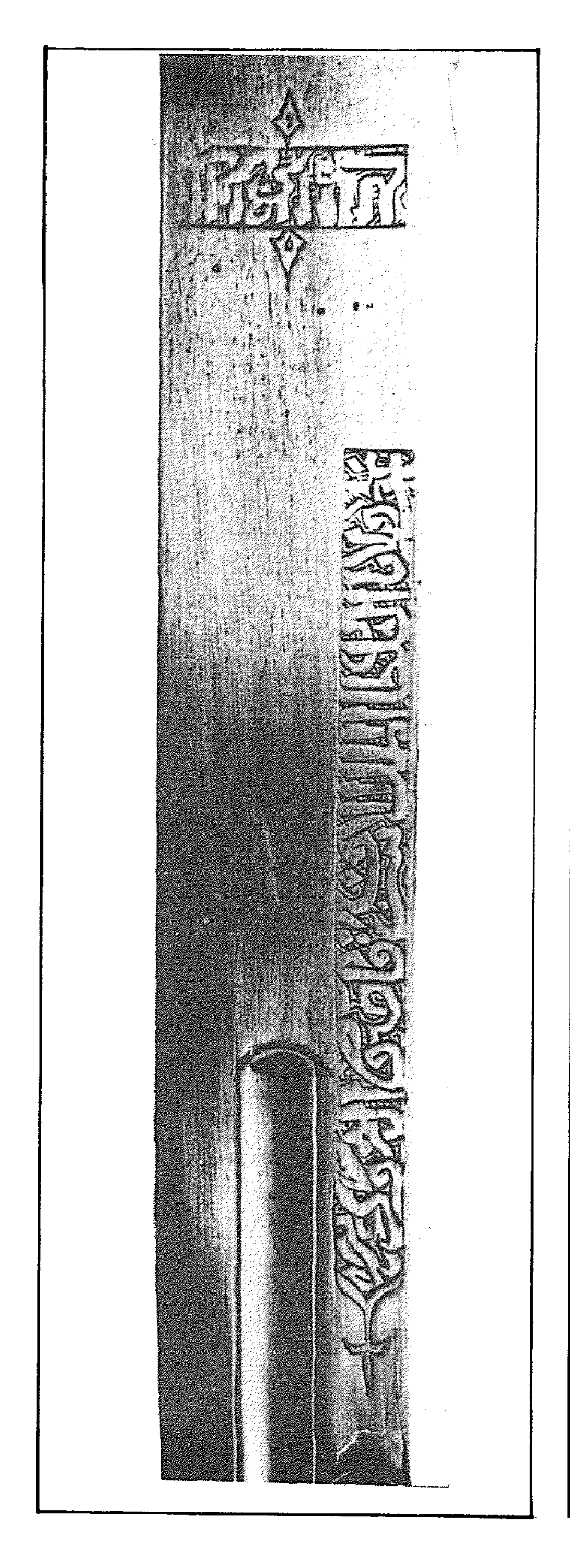
ونستدل من هذه الواقية أن مقبض السيف كان نموذجاً مبكراً لمقابض السيوف المملوكية السورية في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي (س. م. ع ٢٣٤٠)، (س. م. ع ٢٣٦٠)، (س. م. ع ٦٤٠٢)، (س. م. ع ٢٣٥٣) ولا بد أن هذا النوع من المقابض، كان شائع الاستخدام في سورية، وفيما بين القرنين السادس والثامن للهجرة/الثاني عشر والرابع عشر للميلاد.

٣ ــ السيوف المملوكية

تحتل السيوف المملوكية مكاناً بارزاً، بين الأسلحة الإسلامية المحفوظة بمتحف طوب قابي، وذلك من حيث الكمية والنوعية معاً. ويخص نصف السيوف المملوكية الخمسين التي تتضمنها هذه الدراسة سلاطين المماليك وأمرائهم؛ فمنها: سبعة لقايتباي، وثمانية لقانصوه الغوري. وهذا يعطي فكرة عن القيمة التاريخية لهذه المجموعة. وعلى العموم فإن نماذج السيوف المملوكية التي نتناول وصفها هنا هي عبارة عن نماذج، تحقق التصور الذي نحاول توضيحه بخصوص تطور شكل السيف المملوكي.

النصال:

تعود نصال السيوف المملوكية التي بين أيدينا إلى الفترة الواقعة ما بين نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، ودخول العثمانيين إلى مصر (٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م). وأقدم النماذج المعروفة منها سيفان: الأول للسلطان منصور قلاوون (٦٧٨ ــ ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ ــ ١٢٩٠ م)، والثاني للسلطان محمد بن قلاوون (٦٩٣ ــ ٧٤٢ هـ / ١٢٩٣ ــ ١٣٤١ م)، (س. ط. ق ١/٢٥٢٤) (س. ط. ق ١/٢٥٢٠).



□لوحة رقم ــ ٥ ــ
سيف للسلطان قانصوه الغوري (٩٠٦ ــ ٩٢٢ هـ /١٥٠١ ــ ١٥١٦ م) صانعه إبراهيم المالكي. الطول بالكامل ٩٧ سم، النصل ٨٣ سم، الغمد ٨٦ سم.

وكل واحد من هذين السيفين مقوس، ذو حد واحد ومصنوع من صلب شامي على درجة عالية من الجودة. ويوحي شكل هذين السيفين بأنهما يرجعان إلى ما بعد الفترة المذكورة وربما إلى القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي نظراً لما عليهما من زخرفة وكتابات. بل أن الكتابة والزخرفة التي على جانبي كل منهما، إضافة إلى علامة السلطان محمد بن قلاوون، قد نفذت كلها بالأسلوب السائد في البلاط العثماني في القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد.

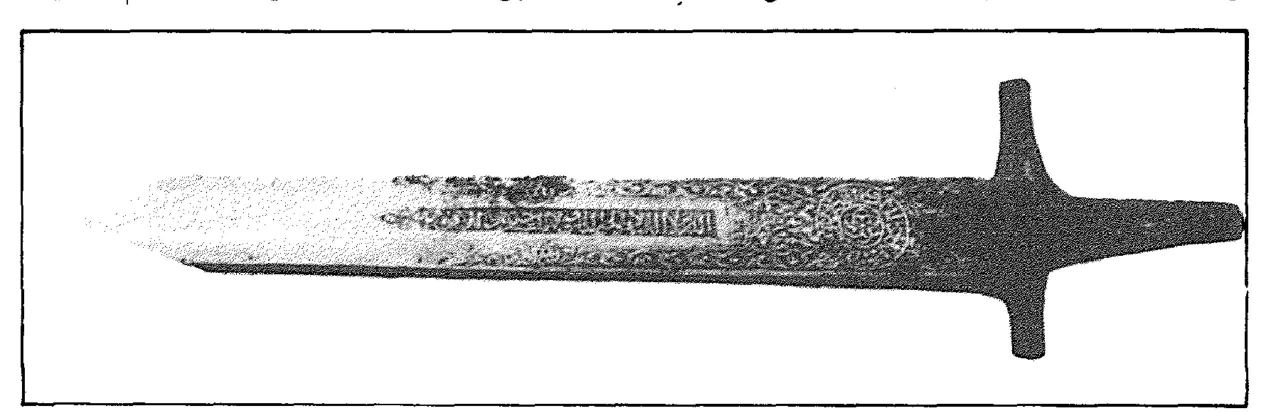
وبناء عليه، نفضل البدء بدراسة نصال السيوف المملوكية من خلال نموذج مؤكد، يرجع إلى نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وهذا النموذج هو سيف حسام الدين لاجين (٦٩٦ ـ ٦٩٨ هـ / ١٢٩٧ ـ ١٢٩٩ م) (س. ط. ق ١/٣٠٤ ـ لوحة رقم ٣) الذي، إضافة إلى كونه أقدم نموذج مملوكي بين أيدينا، فهو في الوقت ذاته أقدم نموذج للسيف الإسلامي المقوس ذي الحد الواحد. وهو الذي يظهر شكله في المنمنمات الإسلامية ولأول مرة في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي(٤).

يمثل هذا السيف القديم التطور الحقيقي الذي حدث في تلك المرحلة، كما يمثل مدى النجاح الذي تحقق في التوافق بين شكل السيف ووظيفته. ونلاحظ أن تقوس النصل يأخذ في ازدياد وهو يتجه نحو طرفه، ويظل عرضه ثابتاً حتى يصل الحدية البسيطة التي بالظهر، وبعدها يتحول ظهر النصل إلى حد ماض، مع ازدياد قليل في العرض قبيل طرفه المدبب. ونشاهد حزاً عريضاً وسط النصل، يبدأ على بعد ٧ سم من الواقية ويستمر حتى الطرف، ونجد في هذا السيف أول خصائص السيف المقوس، الذي بلغ شكله درجة الكمال في السيف المملوكي والعثماني أوائل القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي.

ثم نصادف بعد ذلك مرحلة تقرب من مائة وخمسين عاماً، قبل أن نصل إلى سيفين مقوسين للسلطان قايتباي (٨٧٢ ـ ٩٠١ هـ / ١٤٦٨ ـ ١٤٩٦ م)، تتضح فيهما التغيرات التي حدثت في تلك المرحلة (س. ط. ق ١/١٨١)، (س. ط. ق ١/١٨٢). وعلى أية حال فقد بقي عرض الظهر كما هو عليه، بينما ازداد عرض النصل وطوله، وتضاءلت درجة التقوس، وتضخمت حدبة الظهر بعض الشيء وأصبح الجزء المقوس أكثر عرضاً وأكثر مضاء من الجهتين. أما الحز الذي يتوسط بدن النصل فقد اقترب هنا من حافة الظهر، وقد يكون بديلاً عن حز الوسط أو إضافة إليه.

أما السيوف الأربعة الأخرى الخاصة بالسلطان قايتباي، فهي سيوف مستقيمة وذات حدين. وقد ظهرت في المنمنمات الإسلامية، التي تعود إلى القرنين السابع والثامن للهجرة/الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، رسوم للسيوف المستقيمة والمقوسة معاً. ولعل هذا الأسلوب قد استمر كذلك على يد المماليك في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي(٥).

سبق أن ذكرنا أن طريقة استخدام السيف



□لوحة رقم ـ ٦ ـ

سيف مملوكي، تاريخه: أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، صانعه: علي بن محمد المصري، الطول بالكامل ٩٤ سم، النصل ٨٥,٥ سم.

المستقيم، تختلف عن طريقة استخدام السيف المقوس كثيراً. ونضيف هنا أنه كان على المقاتل أن يتعلم الطريقتين معاً. ويتوفر لدينا الدليل الذي يشير إلى أن حداً واحداً فقط من السيوف المستقيمة ذات الحدين، هو الذي كان يستخدم. وفي أحد سيوف السلطان قايتباي المستقيمة، نجد سنادة أصبع تبرز في جهة واحدة من طرف المقبض على الرغم من أن المقبض مستقيم. كما نجد سيلانا (Tang) أو عصعصاً لنصل سيف آخر (لا مقبض له) يميل إلى أحد الجوانب. وهذان المثالان يدلان على أن السيفين قد استعملا من ناحية حد واحد فقط (س. ط. ق ١/١٨٠)، (س. ط. ق ١/١٨٣).

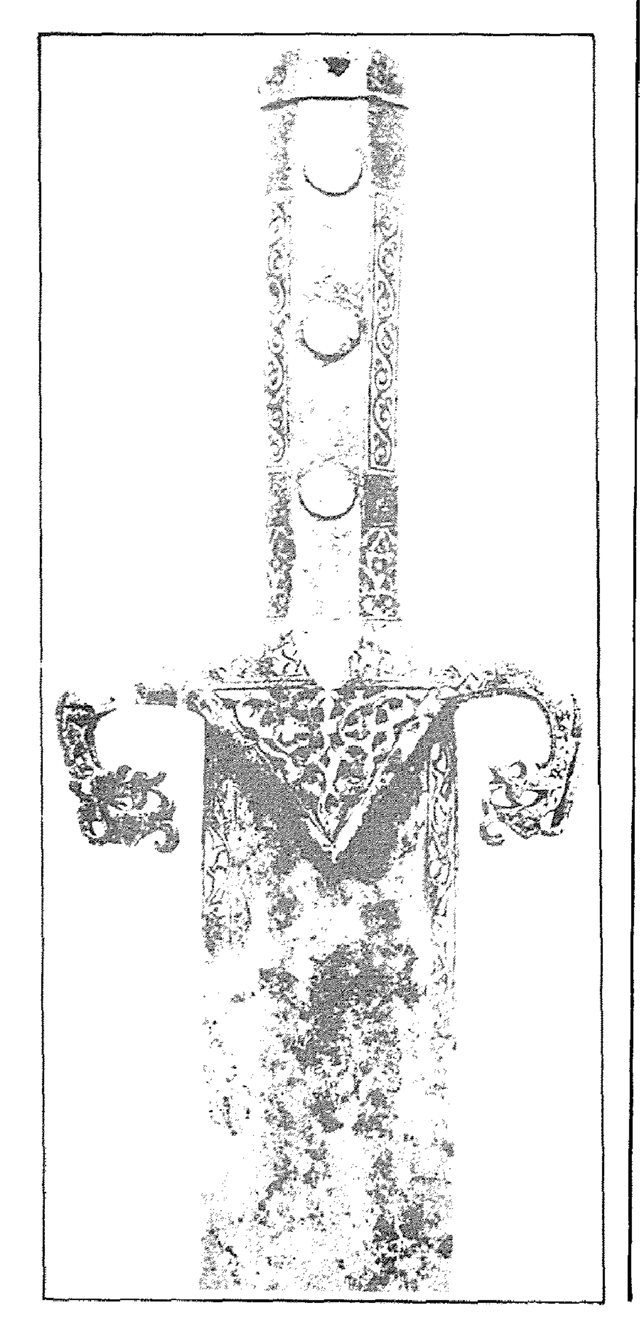
ونلاحظ أن نصل سيف الأمير يشبك (١٤٦٨ ـــ ١٤٨٠ م). أحد رجال السلطان قايتباي يأخذ شكلاً مختلفاً بين أشكال السيوف المستقيمة والمقوسة (س. ط. ق ١/١٨٤)، ذو حد واحد ويتقوس بخفة ورقة، ويستمر في الغالب بعرض ثابت حتى نقطة الطرف التي تبدو على هيئة كعب القدم (heel-shaped). وعلى الرغم من أن الحز الذي يتوسط النصل مفلطح وعريض بصورة غير مألوفة، وأن السيف غير مدببُ الطرف، فإنه يصبح ذا حدين ابتداء مما يلي حدبة الظهر (Back-Step-Ridge). ولعل هذا التغيير كان خطوة في طريق البحث عن شكل آخر بصرف النظر عن أسلوب الأداء.

يتمثل هذا الاستمرار في البحث عن شكل جديد، في سيف من سيوف الاحتفالات والمراسم تاريخه (٨٨٩ هـ) ١٤٨٤ م (س. ط. ق ١/٣٨٥). ونصل هذا السيف عريض وظهره كذلك بينما ترتفع شوكة الظهر أو نتوؤه قليلاً عن المألوف بنسبة (٢/٥) ويكون هذا الجزء حاداً في بدايته ثم ينتهي بطرف مدبب، وبهذا يكون السيف صالحاً للطعن والوخز وصالحاً للقطع كذلك.

وخلال النصف الثاني من القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، أخذ السيف المملوكي يتجه نحو تحديد شكله وخصائصه.

وعلى الرغم من أن استخدام السيوف المستقيمة لم يتوقف،إلا أنها أصبحت قليلة ونادرة. ونورد فيما يلي، خلاصة للعناصر الأساسية التي تحدد مميزات سيوف تلك الحقبة:

كان النصل ـــ بصفة عامة ـــ مقوساً قليلاً والظهر عريضاً، كما كان الحد مستمراً من المقبض حتى الطرف، مع وجود تقوس طفيف. وكان ظهر السيف مقعراً قليلاً في منتصفه، الأمر



□لوحة رقم ـــ ٧ ـــ
سيف السلطان قانصوه الغوري، الطول بالكامل ١٠١ سم، النصل ٨٧ سم.

الذي يجعل عرض النصل في الوسط أقل منه سائر البدن ويأخذ في الانحناء حتى نتوء المهموز (Mahmuz) وعنده يصبح النصل ذا حدين، أما الطرف فيأخذ شكل نهاية الإزميل (Spatula) أي أنه يكون معتدلاً. وفي معظم الأحيان لا تكون أطراف النصال مدببة جداً حيث أن وظيفتها الأول كانت القطع، وربما كان هذا هو السبب في خلو هذا النوع من السيوف من الحزوز التي تكون، إن وجدت، قرب حافة الظهر (س. ط. ق ١٢٣/١ ــ لوحة رقم ٤).

ونلاحظ أن «إبراهيم المالكي»، أحد صانعي السيوف أواخر العصر المملوكي. قد استقر على شكل ثابت وملفت للنظر في صنع السيوف المملوكية. وكأنه هو شكل المنتظر منذ وقت طويل. ويعتبر السيف الذي صنعه للسلطان قانصوه الغوري، نموذجاً كاملاً لهذا النوع (س. ط. ق ١١٠١٤/١ ــ لوحة رقم ٥). فقد توفرت لهذا الشكل من السيوف ميزتا القدرة على الوخز والقدرة على القطع، على قدر سواء. والحقيقة أن هذا السيف قد صنع بطريقة متزنة جعلته صالحاً تماماً لأداء كل الأغراض المطلوبة منه فضلاً عن روعته من الناحية الجمالية.

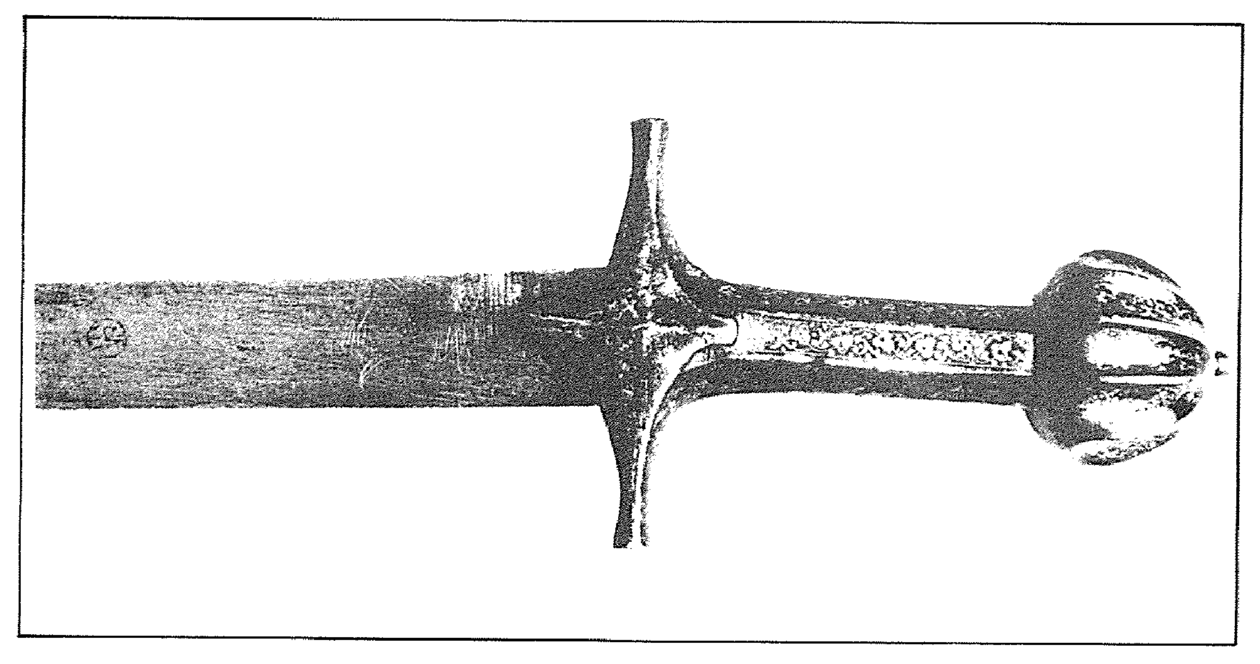
المقابض والواقيات:

لم تتوفر لدينا معلومات مؤكدة خاصة بمقابض ما يرجع من السيوف المملوكية وواقياتها إلى ما قبل القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. والواقع أن الموجود منها بين أيدينا ليس أصلياً، حيث أن الأصلي قد ضاع أو تلف مع الزمن أو أنه استبدل أثناء عمليات الترميم والإصلاح فيما بعد.

وعلى أية حال، فإن معرفتنا بأن خطوات التطوير كانت بطيئة ومتأنية لتساعدنا على تصور ما كانت عليه أشكال تلك الأجزاء في الماضي. وفيما يلي بعض الملاحظات على تلك الأجزاء:

(أ) كان شكل المقبض في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، مستقيماً أو منحنياً قليلاً، مثمن المقطع، وينتهي ببروز عند طرفه، ويكسو السيلان خشب مغطى بدوره بالجلد ولا سيما جلد السحالي أو الضباب ذات اللون الأخضر. أما قبيعته (طاقيته) فكانت تنتهي بقطعة معدنية مثمنة الشكل عليها زخارف محفورة ومخرمة، (س. ط. ق ٢٢٢/١ ــ لوحة رقم ٦).

وقد صنعت المقابض الحديدية لسيوف هذه المرحلة على نسق المقابض الخشبية (س. ط. ق



□لوحة رقم ــ ٨ ــ
سيف مملوكي، تاريخه: النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. الطول بالكامل ٩٦ سم، النصل ٨٠ سم.

١٢٣/١)، (س. ط. ق ١٢٥/١ ــ لوحة رقم ٧).

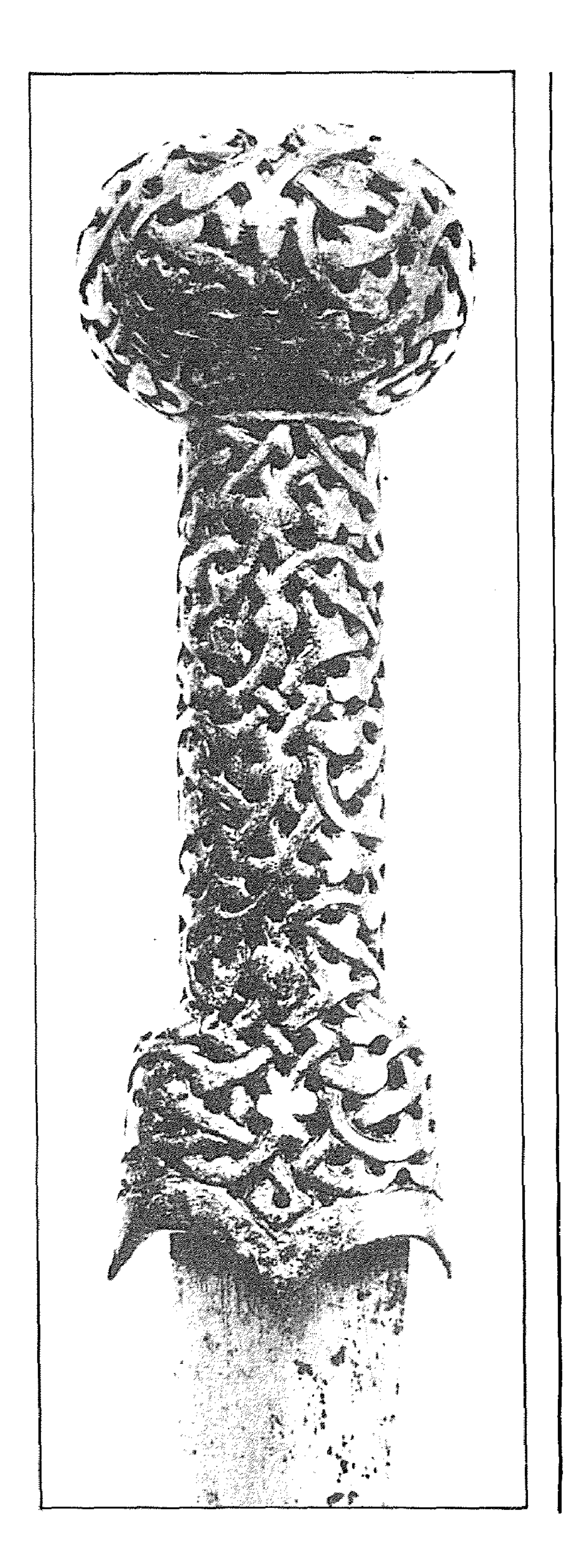
(ب) وهناك نوع آخر من المقابض المملوكية سيلانه مستقيم أو ملتو قليلاً وقطاعه عريض ومثمن أيضاً ولكن طرفه مستدير أو كروي (لوحة رقم ٤) ونماذج هذا النوع من المقابض تشبه مثيلاتها من مقابض السيوف العثمانية «في عهد بايزيد الثاني» وهي نادرة.

(ج) وهناك نوع ثالث من المقابض يكون طرفه على هيئة كرة من الحديد متصلة بالعصعص. وهذا النوع من السيوف إما أن يكون بلا واقية وإما أن تكون واقيته عبارة عن بروز أو انتفاخ، والأمثلة على هذا الشكل كثيرة. ونشير هنا إلى أن النماذج ذات المقابض كروية الرأس، وذات الواقيات معاً قليلة جداً، (س. ط. ق ٢١٣/١ ــ لوحة رقم ٨). وقد استعمل هذا النوع من المقابض في السيوف المِغْوَلية المملوكية (Mec-kilic) كما سنرى فيما بعد.

وواقيات النوعين السابقين أ، ب مصنوعة من الحديد، وذات أطراف غليظة، وهي بوجه عام متعامدة الشكل. وهناك نوع قليل جداً من الواقيات، تنحني أطرافها نحو الداخل وتنتهي برأس تنين (لوحة رقم ٧). وتتكون هذه الواقيات ومقابضها من قطعة واحدة من الحديد. أما بالنسبة للمقابض الخشبية فإنها تصنع على حدة، وهذا نوع نادر جداً (س. ط. ق ١٠٨/١).

الاغماد:

لدينا نماذج قليلة جداً من الاغماد التي تعود إلى العصر المملوكي، ولكن عمليات الترميم والتجديد تناولت الاغماد مثلما تناولت المقابض والواقيات. وجاءت النماذج الموجودة من الخشب المغطى بالجلد، أما الكعب والنصل وحلقتا التعليق فقد صنعت من الحديد أو الفضة. وتحلى الاغماد ــ بما عليها من كسوة جلدية أو حلقات معدنية ــ بزخارف ونقوش محفورة ومخرمة وتطعيمات مختلفة، وقد تكون بعض الأجزاء المعدنية مطلية بالذهب (لوحة رقم ٣).



□لوحة رقم ــ ٩ ــ
سيف مملوكي. تاريخه: النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، الطول بالكامل ٩٥ سم، النصل ٧٩ سم

السيوف المِغْوَلية المملوكية: (Mec-Kilic)

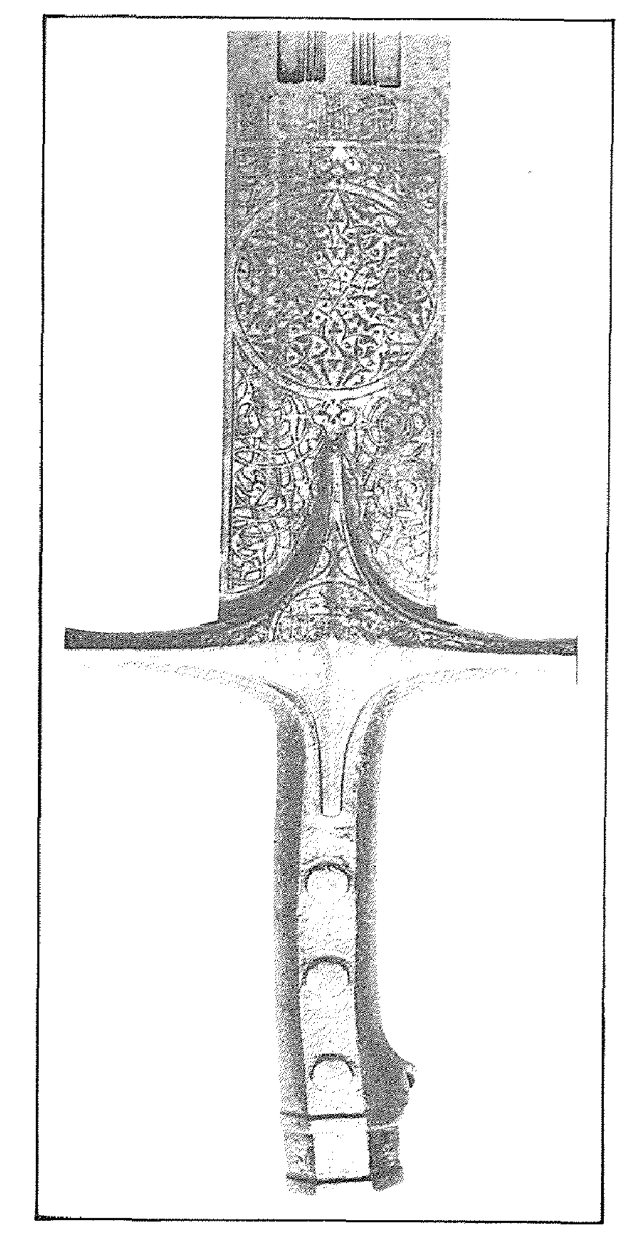
يضم المتحف العسكري باستانبـول ثـلاثة سيوف، تتشابه فيما بينها إلى حد كبير. ولذا فقد شكلت هذه السيوف الثلاثة نوعاً قائماً بذاته (س. م. ع ٢٤٤٣ ــ لوحة رقم ٩).

ونسمي مثـل هـذا النـوع من السيـوف المستقيمة ذات الحدين بـالسيـوف المِغْـوَلـيـة (Mec-Kilic) وهو النوع الذي يكون الوخز أول خصائصه. والنصل في هذا النوع ــ فيما بين الواقية وإلى مسافة تقرب من ١٢ ــ ٢٢ سم ــ غليـظ وحدّه كـظهره عـلى نفس القدر من السمك؛ أما مـا يلي هـذا الجزء فـذو حدين، ومهموز في كل جانب. وتكون أعرض منطقة من النصل في هذا الجزء، ثم يأخذ بعدها في الضيق شيئاً فشيئاً ليصبـح مدبباً عند الطرف. ومقابض السيوف الثلاثة من الحديد، وتكون قطعة واحدة مـع النصل، ونهاياتها كروية وليست لها واقيات. ولما كان الجزء الأدنى من نصال هذه السيوف حاداً لاستخدامه في القطـع، فقد رأينا ألا نسمي هذا النوع Mec فقط وإنما أسميناه Mec-Kilic لأنه يجمـع بين ميزتي الوخز والقطـع.

ونستطيـع أن نضيف إلى هذه المجموعة، سيفـاً آخـر ينسب إلى السلطان قـايتبـاي (س. ط. ق ١/٢١٠) مقبضـه من الحـديـد (ذي القطعة الواحدة)، ونهايته كرويـة أيضاً. والنصل هنا مستقيم، ويستدق في اتجاهه نحو الطرف. وله حدان يبدآن عند الواقية. ويمكننا أن نلحق بهذه المجموعـة سيفاً مملوكيـاً آخر بمتحف طوب قابـي، يرجـع إلى النصف الثاني من القـرن التاسـع الهجـري/الخـامس عشر الميلادي (س. ط. ق ١/٢١١).

المِغْوَل المملوكي (Mec):

قطعة السلاح التي تستخدم للوخز من مسافة قريبة، وتقتصر على الوخز فقط، نسميها «مِغْولاً» (Mec) وهناك نموذج واحد فقط لهذا النوع بين قـطـع السـلاح المملوكي (س. م. ع ٢٤٣١ ــ لوحة رقم ١٠). ونصل هذه القطعة مستقيم ويستدق تدريجياً حتى يصير مدبباً عند الطرف. وقطاعها مثلث الشكل، ولها بهذا ثلاثة حدود وثـلاثة جـوانب غائـرة نحو الداخـل. وينتهي المقبض على شكل كرة، ويكون مـع البدن قطعة واحدة. والواقية منحنيـة تنتهي برأس تنـين. ونلاحظ عدم التوافق بين جسم النصل وبـين المقبض وهذا يحملنا على القول بأن المقبض ليس أصلياً وإنما أضيف فيما بعد. ونرى نموذجاً



□لوحة رقم ــ ١٠ ــ
سيف مغربـي، تاريخه: القرن التاسـع الهجري/الخامس عشر الميلادي. صانعه: محمود... (المغربـي). الطول بالكامل ١٠٨ سم. النصل ٩٣ سم. الغمد ٩٩ سم.

مشابهاً جداً لهذا النصل في مِغوَل آخر للسلطان محمد الثاني (س. ط. ق ١/٩١) وهو يمثل نموذجاً فريداً آخر في مجموعة الأسلحة العثمانية.

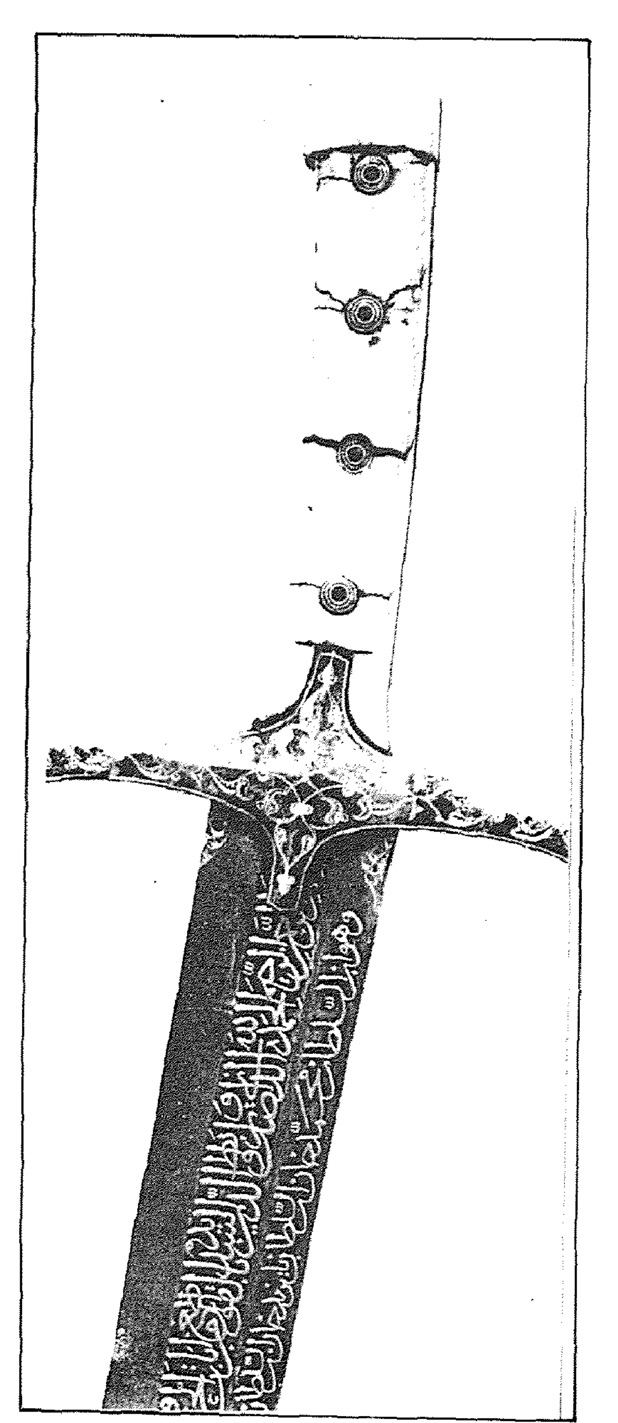
السيوف المملوكية السورية

سوف نضع تحت هذا القسم مجموعة من السيوف، محفوظة بالمتحف العسكري باستانبول، يستدل مما عليها من كتابات — ومعها بعض السيوف الأوروبية من العصر الوسيط — أنها كانت ضمن مدخرات قلعة الاسكندرية (قايتباي)، بين عامي ٧٧٠ — ٨٦٧ هـ (١٣٦٨ — ١٤٦٣ م). وهذه هي الأسلحة التي جيء بها إلى استانبول بعد فتح مصر، وأودعت في دار السلاح والجبخانة.

ونصال هذه السيوف مستقيمة وذات حدين، وفي أبدانها حزوز تتراوح ما بين واحد أو اثنين أو أكثر، وتبدأ هذه قريباً من المقبض وتستمر حتى الطرف. وقد وجدنا في الوقت نفسه نصالاً بدون حزوز كما كان بعض هذه النصال لا تتميز بخصائص بارزة.

تختلف مقابض هذه المجموعة عما نعرفه في مقابض السيوف الإسلامية الأخرى فهي مستقيمة وذات مقطع رباعي مسطح، كما أنها مصنوعة من الخشب ومغطاة بقطعتين منفصلتين من الحديد. لحمت بالقطعة العلوية طاقية معدنية شبه مستطيلة. ويوجد على المقبض حلقة تعلق بها قطعة السلاح هذه في الرسغ، أما الواقية فتتكون من قطعتين من الحديد لحمتا معاً بالمقبض (س. م. ع ٢٣٤٠). وهذا الشكل هو الشكل المألوف للواقية. ونلاحظ أحياناً بعض التغيرات ولا سيما في طرفي الواقية الملتوية إلى أسفل. على أن هذا لا يغير شيئاً في الشكل العام. وهناك نموذج واحد صنع المقبض فيه من قطعة واحدة (س. م. ع ٢٣٦٠).

ونرى تشابها قريباً بين نهاية مقبض السيف الأيوبي الوحيد الموجود بين أيدينا (س. م. ع ٢٣٥٥) وبين نهايات مقابض هذه السيوف المملوكية. واستناداً على هذا التشابه، يمكننا القول بأن النماذج المبكرة من هذه السيوف موضوع البحث، ربما كانت سورية أو عراقية أو من جنوب بلاد الأناضول في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد. ونلاحظ أن كتابة



□لوحة رقم — ١١ —
سيف السلطان محمد الثاني (الفاتح) (٨٤٨ — ٨٥٠ هـ /١٤٤٤ — ١٤٤٦ م ٨٥٥ — ٨٨٦ هـ /١٤٥١ — ١٤٨١ م).
الطول بالكامل ١٢٦.٥ سم، النصل ١٠٦ سم.

حجج وقف معظم السيوف، التي تدخل مقابضها ضمن هذا النوع، مؤرخة في عام ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ ــ ١٣٦٩ م)، ولم يصل إلينا من اغماد هذه السيوف شيء حتى الآن[٦].

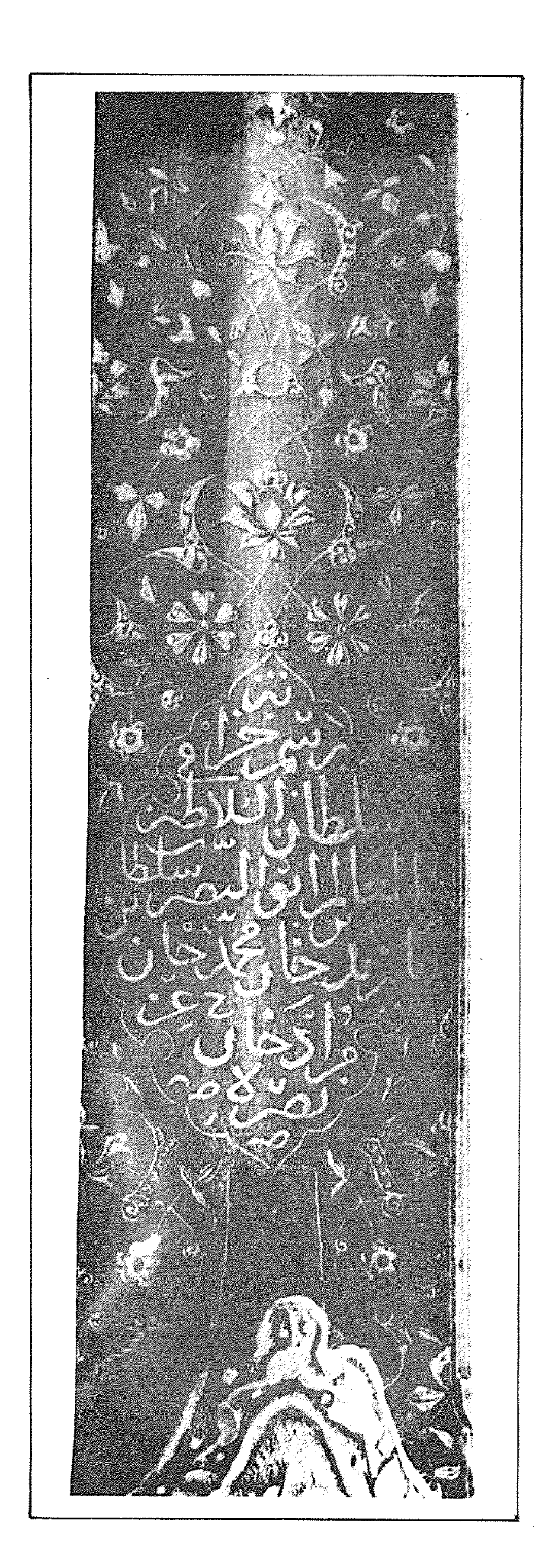
٤ ــ السيوف المغربية:

للسيوف المغربية شهرة فائقة في العالم الإسلامي في العصر الوسيط، فنصالها المستقيمة، ذات الحدين مصنوعة من صلب على درجة عالية من الجودة، وهي طويلة وعريضة، لكنها رقيقة، حتى أنها إذا مدت بجنبها موازية للأرض، مالت بطرفها نحو الأرض قليلاً. ونرى حزوزاً رفيعة تبدأ على بعد حوالي ١٠ ــ ١٥ سم من المقبض وتستمر حتى طرف النصل محدثة فيما بينها خطوطاً متقاطعة. وهذه الحزوز الدقيقة الرقيقة، لا تعطي الدليل فقط على أنها مصنوعة من صلب غاية في الجودة وإنما تدل على ما تتمتع به صناعتها من مستوى فني رفيع. وكان المماليك يقدرون قيمة هذه السيوف، بل إنهم كانوا يستقدمون الصناع المغاربة لصنعها؛ وكان هؤلاء يقومون أيضاً بعمل المقابض والواقيات وفق أسلوبهم أو حسب الأساليب الأخرى (س. ط. ق ١/١٢٩ ــ لوحة رقم ١١).

٥ ــ السيوف العثمانية:

نلاحظ أن تطور أشكال السيوف العثمانية، بدأ في النصف الثاني من القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، وقد لجأنا إلى قول ذلك نظراً لعدم حصولنا على سيف عثماني الصناعة يرجع إلى ما قبل عهد السلطان محمد الفاتح (٨٥٥ ــ ٨٨٦هـ / ١٤٥١ ــ ١٤٨١م). وما تزال مسألة عدم وجود نماذج من سيوف العصر العثماني المبكر (٦٩٩ ــ ٨٥٧ هـ / ١٢٩٩ ــ ١٤٥٣ م) موضع جدل. وتنحصر وجهات النظر في هذا الموضوع فيما يلي:

(أ) إن معدن الصلب لم يكن متوفراً في الأراضي العثمانية في ذلك العهد، بل كان من المواد الثمينة التي تستورد من الخارج. وقد



□لوحة رقم ــ ١٢ ــ
سيف للسلطان بايزيد الثاني. الطول بالكامل ١٠١ سم، النصل ٨٥ سم.

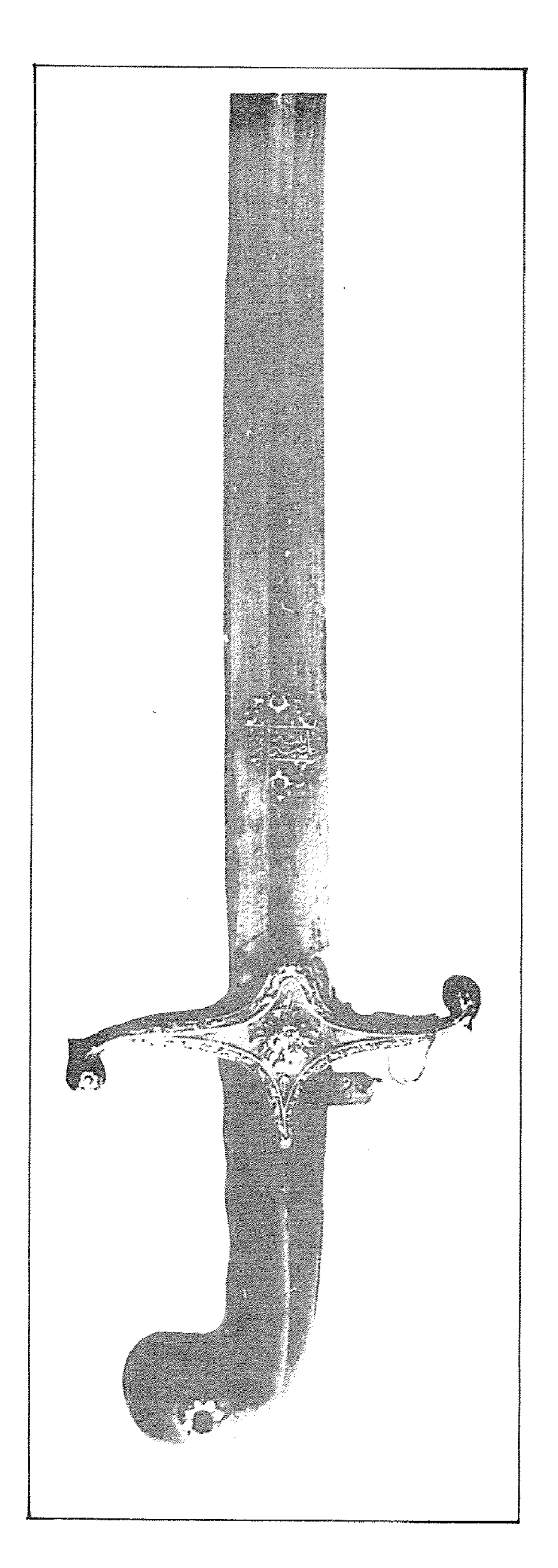
يكون هذا من أسباب اضطرارهم إلى صهر السيوف القديمة لإعادة عمل سيوف جديدة منها.

(ب) ظل مخزون السلاح في «بورصه» و«أدرنه» في مكانه ولم ينقل منه شيء إلى استانبول بعد الفتح مما أدى إلى تبدده مع الزمن(٧).

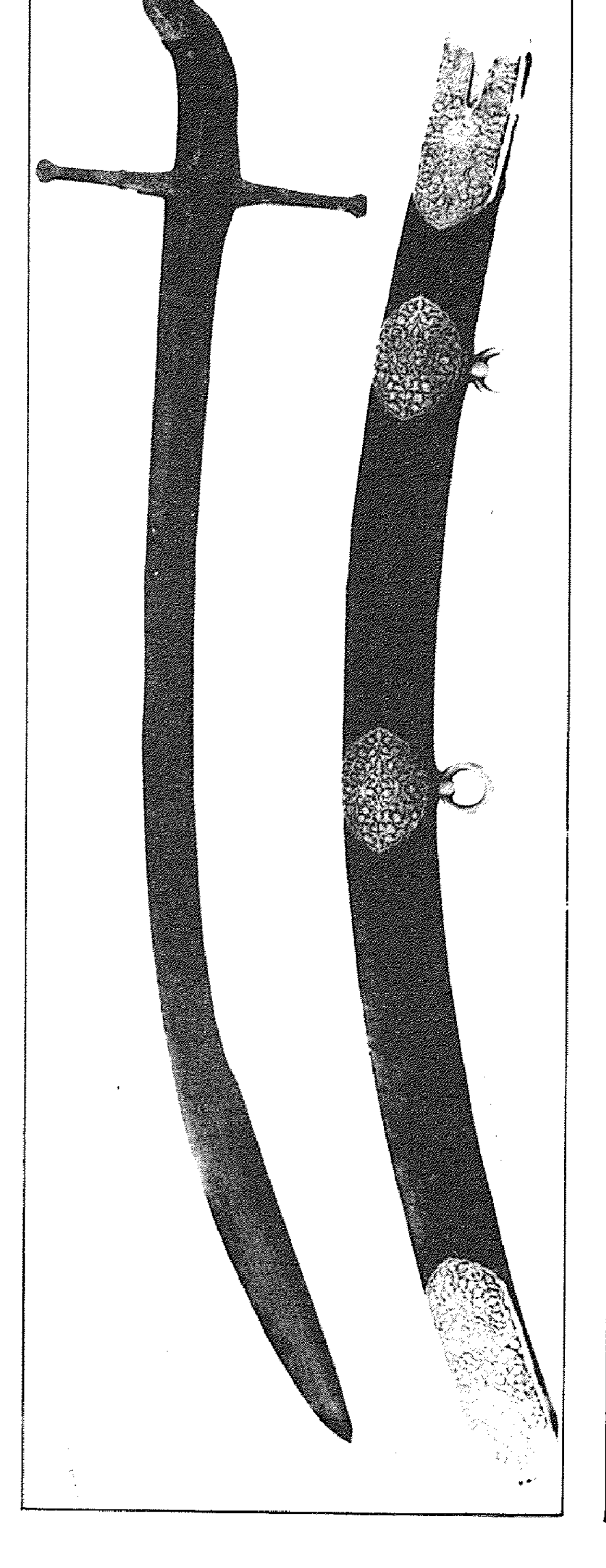
النصال:

تبدأ نماذج السيوف العثمانية، بأربعة تحمل اسم ولقب السلطان محمد الثاني (٨٥٥ ــ ٨٨٦ هـ / ١٤٥١ ــ ١٤٨١ م). ومما يلفت الانتباه، للوهلة الأولى، في هذه السيوف الأربعة والسيوف الأخرى التي ترجع إلى هذا العهد، أنها تمثل نموذجاً خاصاً بالمرحلة التالية. ويعتبر سيف المراسم المنسوب إلى السلطان محمد الثاني، نموذجاً مثالياً للسيوف العثمانية حينذاك بما له من شكل جميل (س. ط. ق ١/٩٠ ــ لوحة رقم ١٢). النصل في هذا النموذج ذو حد واحد مقوس قليلاً والظهر سميك، والجزء الذي يلي المهموز حاد من الجانبين ويشكل أكثر من ثلث النصل، والطرف مدبب. وإذا عرفنا أن السيف المقوس دخل إلى الأناضول في النصف الأول من القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد(٨)، أمكننا القول بأن هذا الشكل، إنما هو نتيجة تطور كان قد حدث منذ مائتي سنة على الأقل.

يتميز اثنان من سيوف محمد الفاتح الأربعة، بكونهما مستقيمان وبحدين من الجانبين. وعلى الرغم من تشابه هذين السيفين فيما بينهما ولا سيما في الحزوز العريضة والأطراف غير المدببة، إلا أنهما يختلفان من حيث الجودة (س. ط. ق ١/٣٧٦)، (س. ط. ق ١/٣٧٤). ولعل السيف الأخير الذي يتمتع بدرجة أعلى من الجودة يرجع في أصله إلى أوروبا أو إلى شمال أفريقية؛ ولعله أيضاً كان قد قدم هدية للسلطان. إن الرسوم الزخرفية المنفذة على جانبي نصله تقدم لنا، بشبهها من التاج، دليلاً على صحة هذا القول. ولا نجد نصالاً عثمانية مستقيمة وذات



□لوحة رقم ــ ١٣ ــ
سيف عثماني، تاريخه: بداية القرن القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد. الطول بالكامل ١٠٢ سم، النصل ٨٧ سم. الغمد ٩٠ سم



حدين سوى في هـذين السيفين اللذين يمكن اعتبارهما استثناء من القاعدة. ولعلنا نستطيـع القول أن مرحلة الانتقال من السيوف المستقيمة إلى السيوف المقوسة قد بدأت عند العثمانيين قبل المماليك.

تطور شكل السيف المقوس في عهد السلطان بـايـزيـد الثـانـي (٨٨٦ ــ ٩١٨ هـ / ١٤٨١ ــ ١٥١٢ م) بصورة أوضـح، ويعتبر السيفان المنسوبان إلى هذا السلطان من النماذج الجيدة لهذا الشكل (س. ط. ق ١/٣٨٣ ــ لوحة رقم ١٣) والحقيقة أن الشكل العام لم يتغير كثيراً، ولكن تقوس النصل ازداد بعض الشيء عما كان عليه كما تضاءل سمك الظهر أيضاً. وتجدر الإشارة هنا إلى الشبـه القريب بـين هذين السيفـين وبين السيف الذي صنعه إبراهيم المالكي للسلطان المملوكي قانصوه الغوري (لوحة رقم ٥) ولعل الاتصال كان موجوداً بالفعل بسبب العلاقات المتبادلة بين البلدين ولم يكن نتيجة الصدفة.

وهناك نماذج ذات أشكال رمزيـة من عهد السلطان بايزيد الثاني وهي عبارة عن ثلاثـة سيوف متعرجة أو ثعبانيـة الشكل (س. ط. ق ١/٣٨٨). أحـدهـا يـنـسـب إلى السلطان كمـا يوجـد سيف آخـر ينسب إلى السلطان، وهو على شكل ذو الفقار (س. ط. ق ١/٣٨٤) وله حد واحد، كما أنه قليل النقوش وذو ظهر سميك. وفي الجزء العريض من أسفل نصله، حزوز (أخاديد) طولية. ولعله بشكله هذا يكون أكثر صلاحية للاستخدام من السيوف الأخرى، وهو يختلف كثيراً عن النماذج المملوكي من نوع (ذو الفقـار) والذي نشـاهـده في (س. ط. ق ١/٢١٥).

إن عدد ما لدينا من السيوف التي تعود إلى عـهـد السـلطان سـليـم الأول (٩١٨ ــ ٩٢٦ هـ /١٥١٢ ــ ١٥٢٠ م) محـدود جداً. والسيف الوحيـد الذي يعـرف صـاحبـه، هـو السيف الذي ينسب إلى هـذا السلطان نفسـه (س. ط. ق ١/٩٤).

□لوحة رقم ــ ١٤ ــ
سيف عثماني، تاريخه: الربـع الأول من القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد. صانعه: أحمد التوقاتي، الطول بالكامل ٩٣,٥ سم النصل ٨٠ سم، الغمد ٨٦ سم.

ونصل هذا السيف - يختلف كثيرا عن نصال سيوف عهد بايزيد الثاني، وعن السيف المملوكي الذي صنعه إبراهيم المالكي للسلطان سليم الأول، والذي يشبه السيوف السائدة في زمن بايزيد (س. م. ع ٢١٨٧٤). وهذا النصل (لوحة رقم ١٦)، على غير عادة السيوف العثمانية، ذو مقاس أقصر طولاً (٧٦ سم) وحدّ أقل مضاء، ومهموز أقل بروزاً، وسطح غفل من الحزوز. ونلاحظ أن أحد السيوف التي تم صنعها على يدي أحمد التوقاتي (س. ط. ق ١/٣١١ ــ لوحة رقم ١٤). ــ والذي يرجع إلى ذلك الوقت ــ يشبه في شكله سيف السلطان سليم الأول. ويبدو من هذه الأشكال أن ثمة بعض التطور في هذا العهد.

وتدل النماذج الكثيرة المتوفرة من زمن السلطان سليمان القانوني (٩٢٦ ــ ٩٧٤ هـ / ١٥٢٠ ــ ١٥٦٦ م) على أن السيف العثماني قد أهمل تطويره ابتداء من الربع الثاني من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، ولم يحظ بأي تجديد أو تغيير إيجابي، وأن كل ما حدث فيه من تطور هو مجرد تنويع في الأشكال التي ظهرت زمن السلطانين بايزيد الثاني وسليم الأول. ونرى في الوقت ذاته أن الشمشير الصفوي، الذي أضيف إلى مجموعة السيوف الإسلامية أواسط القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، قد أثر إلى حد ما في التنويع الذي حصل في سيوف هذه المرحلة، غير أن هذا الموضوع يعتبر خارجاً عن نطاق بحثنا.

المقابض والواقيات:

يعتبر شكل مقابض وواقيات ونصال السيوف العثمانية التي تعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي نتيجة طبيعية لتطور طويل المدى، استمر إلى أن استقر السيف أخيراً في شكله المتوازن.

وقد حصلنا على مقبض وواقية سيف من سيوف السلطان محمد الثاني وهو سيف مستقيم ذو حدين (س. ط. ق ١/٣٧٦). والمقبض مستقيم كذلك، ويبلغ طوله مرة ونصف المرة بالنسبة للمقابض العادية، وهذا ينسجم مع طول النصل الأصلي قبل تحطمه.

ينتهي المقبض بنتوء في كلا الجانبين، مما يدل على استخدام حدّية. وعندما تحول المقاتلون إلى استخدام السيف المقوس ذي الحد الواحد، لم يلجأ العثمانيون إلى تقويس مقابض سيوفهم ولا إلى استخدام السيوف ذات الحد الواحد، كما حدث في بعض السيوف المملوكية، بل حدث في المقابل أن مال عصعص النصل قليلاً في السيف المستقيم المنسوب إلى السلطان محمد الفاتح (س. ط. ق ١/٣٧٤).

ونرى في مقابض السيوف زمن السلطان بايزيد الثاني شكلاً مختلفاً، وذلك أنها بينما كانت تغطي بعظم بعض أنواع السمك، أصبحت تصنع من الخشب أو الحديد ذي القطعة الواحدة، إضافة إلى ازدياد في التقوس والعرض، كما تكورت طاقية طرف المقبض الذي مال نحو أحد الجانبين، وطرأ عليه بروز بسيط كأنه اصبع صغير. ولم يحدث في هذه المرحلة أي تغيير في الواقية. وبوجه عام فإن مقابض السيوف في عهد بايزيد الثاني، بأنواعها هذه، تبدو متناسقة مع نصالها. ونشاهد هذه المقابض ذاتها في السيوف المتماوجة أو الثعبانية المعاصرة ذات الحدين.

ووتجدر الإشارة هنا إلى أن أشكال هذه المقابض ذات الطواقي المائلة وواقياتها ذات الأطراف الطويلة والرفيعة يذكرنا بمقابض السيوف الصفوية التي ستظهر بعد ٢٠ ــ ٣٠ عاماً من هذا التاريخ. ولعل مقابض السيوف الصفوية المبكرة التي لا يتوفر لدينا نماذج منها في الوقت الحاضر، كانت تشبه مقابض السيوف في عهد السلطان سليم الأول، حيث كان هناك تأثير متبادل بينهما.

الاغماد

اغماد السيوف العثمانية مصنوعة من الخشب ومغطاة بالجلد، أما الفوهات وحلقات التعليق فمصنوعة من الحديد. وبصفة عامة، تخلو الأجزاء المعدنية في الاغماد في عهد محمد الثاني من الزينة، كما هو الحال في طواقي المقابض وفي الواقيات. أما في عهد بايزيد الثاني فقد زينت الأجزاء المعدنية بالتكفيت بالذهب.

المغول العثماني: (Mec)

لم نر عند العثمانين ذلك النوع من السيوف المغْوَلية (Mec-Kilic) التي رأيناها عند المماليك. أما سلاح الوخز الذي ورد في وثائق الأرشيف باسم متش (Mec) أو شيش (Sis) فيوجد منه نموذج واحد فقط يحمل اسم السلطان محمد الثاني (س. ط. ق ٩١/١).

وهو يشبه المغْوَل المملوكي الذي عرفناه سابقاً (لوحة رقم ١١). ويكون نصل هذا النوع طويلاً وذا ثلاثة أوجه ويستدق تدريجياً ابتداء من قاعدته إلى أن يصبح مدبباً عند طرفه. والفارق الوحيد بين النموذجين هو أن تقعر الجوانب في النوع العثماني أقل منه في النوع المملوكي، وأن طول المقبض يبلغ مرة ونصف المرة بالنسبة للطول المعروف ليتعادل مع طول النصل؛ فضلاً عن أنه مستقيم ومغطى بعظم السمك. وللطاقة نتوء من الجانبين. وقد حل محل الواقية جسم معدني في أحد جانبيه بروز على هيئة محارة. وغمد هذا النوع مصنوع من الخشب المغطى بالجلد، وبه حلقتان للتعليق ونعل في نهايته، وليست له فوهة معدنية.

٦ ــ السيوف الصفوية المبكرة:

أشرنا فيما سبق إلى أننا لم نعثر على نماذج حقيقية لسيوف ترجع إلى ما قبل العصر الصفوي أو إلى بدايته، ولهذا لا نستطيع دراسة المراحل الأولى لشكل السيف الصفوي (الشمشير) الذي ظهر في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي. ومع هذا ففي الإمكان، عن طريق الحدس والتخمين، التوصل إلى بعض الأفكار استناداً إلى ما هنالك من تشابه بين بعض السيوف. ونلخص هذا التشابه في الآتي: يشبه أحد السيوف العثمانية زمن السلطان سليم الأول في شكله شكل السيف الصفوي المبكر. وفرضاً، لو أننا ثنينا طاقية المقبض بمقدار ٩٠، وألغينا المهموز، وقوسنا النصل قليلاً أمامنا شكل الشمشير الصفوي (يشبهه بعض العثمانيين بذيل الأسد). وتلك في تصوري هي المراحل التي مر بها شكل السيف الإيراني.

الهـوامش

(١) د. حتي، فيليب: **تاريخ العرب، مطول**، الجزء الأول، ط ٣٠. (بيروت ــ ١٩٦١)، ص ١٨٧.

(٢) د. حسن، إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي**، ج ١، ط ٦. (القاهرة ــ ١٩٦٤) ص ٤٧٩.

(*) الضبّور، هو آلة تشبه الدبابة، مصنوعة من الخشب ومغطاة بالجلد، ينكفىء المهاجمون في داخلها ويغيرون على العدو يقاتلونه وهم في داخلها.

(**) أشار المؤلف إلى السيوف المحفوظة في طوب قابي بـ (س. ط. ق.) وإلى السيوف المحفوظة في المتحف العسكري بـ (س. م. ع.).

(٣) إن تثبيت منشأ السيف المقوس وعهود انتشاره وطرق هذا الانتشار، وكذلك تثبيت فنون القتال التي تستخدم فيها هذه السيوف، خارج نطاق هذا البحث. للأمور المتعلقة بهذه المواضيع انظر:
W.W.Arendt: «Türkische sabel aus den VII-IX. Jahrhunderten», Archeologia Hungarica, 1934, Vol. 16, pp. 48-69.
Bahaeddin Ögel: «Türk Kilicinin mense ve tekâmülü hakkinda», Ankara Üniversitesi Dil ve Tarih-Cografya Fakültesi Dergisi, 1948, Vol. 6, pp. 431-460.
Ünsal Yücel: «Türkische Kriegführung und Waffen», Wien 1529-Die erste Türkenbelagerung, Wien 1979, pp. 107-121.

(٤) توجد مجموعة من السيوف الإسلامية في جناح الأسلحة بمتحف طوب قابي لا يمكن تثبيت العصور التي ترجع إليها والمدارس الفنية التي تنسب إليها بصورة قطعية. ومن الممكن إرجاع بعضاً من هذه السيوف إلى أطراف إيران وإلى القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وحتى إلى القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي. ولم نتطرق في بحثنا الذي يستند لدراسة النماذج المعروفة والمثبتة، إلى تلك السيوف التي تؤدي كل منها إلى دراسة ومناقشة طويلة.

(٥) يحيى بن محمود الواسطي: مقامات الحريري (١٢٣٧)، المكتبة العالمية، باريس، الرقم: ٥٨٤٧.

(٦) Varka ve Gülsah Mesnevisi, 13. yüzyil ilk yarisi (Anadolu), Topkapi Sarayi Müzesi Kütüphanesi, H. 841.

(٧) المصدر السابق. وكذلك انظر: جامع التواريخ (الربع الأول من القرن الثامن للهجرة / الرابع

عشر للميلاد)، مكتبة متحف طوب قابي، إستانبول، الرقم: H. 1653.

(٨) يبلغ مجموع عدد هذه السيوف في المتحف العسكري عشرة سيوف. ولكننا تناولنا أربعة منها فقط في بحثنا هذا. أما بقية السيوف المحفوظة في المتحف العسكري وعددها ستة سيوف فإنها مسجلة تحت الأرقام الآتية: (٢٣٥٩، ٢٣٧٦، ٢٣٨٣، ٦٤٠١، ١١١٩٣، ١٤٧٨١). ولأجل إيجاد توضيح للمسائل المتعلقة بالسيوف المنسوبة إلى أطراف سوريا والعراق، وكذلك السيوف التي بقيت في مصر منذ القديم، والتي نقلت فيما بعد إلى أوروبا بعد استيلاء نابليون، يجب القيام بدراسة مستقلة في هذا الخصوص.

(٩) إن النماذج الذي لم تصل إلينا من هذا العهد، ليست السيوف فحسب، بل كافة أنواع الأسلحة الأخرى، وإن التي وصلت إلينا هي الخوذة الوحيدة التي تنسب إلى السلطان أورخان (١٣٢٦ ــ ١٣٥٩) فقط.

(١٠) Varka ve Gülsah Mesnevisi, 13. yüzyil ilk yarisi (Anadolu) Topkapi Sarayi Müzesi Kütüphanesi, H. 841.

المراجع

ــ زكي، عبد الرحمن: «بعض قطع الأسلحة الإسلامية في استانبول»، المقتطف، نيسان/أبريل ١٩٤٠، العدد ٩٦، ص ٢٩٣ ــ ٢٩٧.

ــ زكي، عبد الرحمن: «السيف في العالم الإسلامي»، الهلال، القسم الأول، القاهرة، ١٩٤٠، ص ٥٧ ــ ٦٦.

ــ زكي، عبد الرحمن: «السيف في الإسلام»، القاهرة، ١٩٥١.

ــ زكي، عبد الرحمن: «السيوف وأجناسها»، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة: ١٩٥٢، العدد ١٤ (٢)، ص ١ ــ ٣٦.

ــ زكي، عبد الرحمن: «السيف في العالم الإسلامي»، القاهرة، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

ــ د. حتي، فيليب: تاريخ العرب المطول، الجزء الأول، ط. ٢، (بيروت ١٩٦١).

ــ د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج ١، ط ٦،(القاهرة، ١٩٦٤).

Ahmed Refik: «Fatih Devrine Ait Vesikalar», Tarih-i OsmaniEncümeni Mecmuasi, 1335-37 (1919-21), Nr. 49: 62, pp. 1-58.

Bikkul, Ahat Ural: «Topkapi Sarayi Silâh Müzesindeki Eserler», Türk Etnografya Dergisi, 1957, Nr: 2, pp. 35-52, 8 figs, 1 plan.

Bikkul, Ahat Ural: «Topkapi Sarayi Müzesindeki Türk Kiliclari», Türk Etnografya Dergisi, 1961, Nr: 4, pp. 20-28, 4 figs.

Hoffmeyer, Ada Bruhn: «Middelalderens islamiske svaerd», (Summary in English: «Islamic Swords of the Middle Ages»), Vaabenhistoriske Aarboger, Kobenhaun, 1956, Vol. VIII, b-c, pp. 63-80, 3 figs.

Mayer, L.A. : «Islamic Armourers and Their Works, Geneva (Albert Kunding) 1962.

Muhtar, O. Sermed: Müze-i Askeri-i Osmani-Rehber, 3 Vol, Istanbul 1, 1920-1922.

Ögel, Bahaeddin: «Türk Kilicinin Mense ve TekâmülüHakkinda», Ankara Universites Dil ve Tarih Cografya Fakültesi Dergisi, 1948, Vol. 6, pp. 431-460, 19 figs.

Öz, Tahsin: Hirka-i Saadet Dairesi ve Emanat-i Mukaddese, Istanbul, 1953, pp. 36-46, fig. 17-35.

Öz, Tahsin: «Fatih Sultan Mehmet II'ye Ait Eserler, Ankara, (Türk Tarih Kurumu Yayini) 1953.

Stöcklein, Hans: «Die Waffenschätze in Topkapu Sarayi Müzesi zu Istanbul-Ein Vorlangiger Bericht», Ars Islamica, 1934, Vol. 1, pp. 200-218, 18 figs.

Stöcklein, Hans: «Arms and Armour», A.U. Pope: Survey of Persian Art, 1939, Vol. III, p. 2555-2585, pls. 1405-1433.

Yücel, Ünsal: «Türk Kilic ustalari», Türk Etnografya Dergisi, 1964-1965, Nr: 7-8, pp. 59-99, 45 figs.

Yücel, Unsal: «Thirteen Centuries of Islamic Arms», Apollo July 1970, pp. 46-49, fig. 1-3, 5.

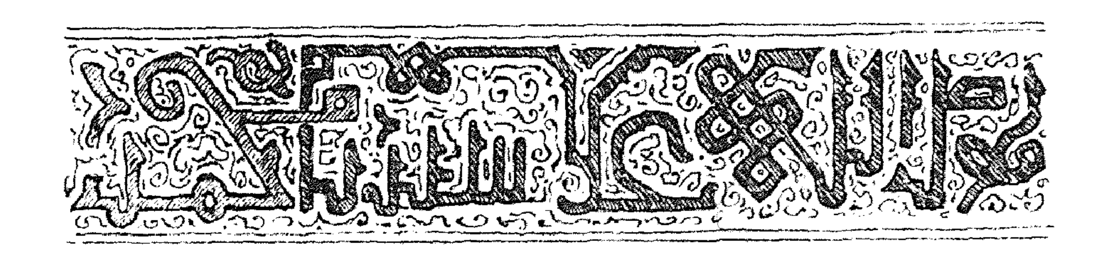
Zaky, 'Abd al-Rahman: «Islamic Swords in the Middle Ages», Bull. de l'Institut d'Egypt, Cairo, 1954, Vol. XXXVI, 7 plates, pp. 365-379.

Zaky, 'Abd al-Rahman: «Military Literature of the Arabs», Cahiers d'Histoire Egyptienne, sér. VII, fasc. 3 1955, pp. 149-160.

Zaky, 'Abd al-Rahman: «Nogle Blankvaben pa Museet forislamisk Kunst i Cairo» (Summary in English: «Important swords in the Museum of Islamic Art in Cairo»), Vaabenhistoriske Aarborger, Kobenhaum, 1966, Vol. XII, pp. 143-157, 7 figs.

Zaky, 'Abd al-Rahman: «On Islamic Swords», Studies in Islamic Art and Architecture in Honour of Professor K. A.C. Creswell, The American University in Cairo Press, 1965, 1965, pp. 270-291, 18 figs.

Zaky, 'Abd al-Rahman: «Medieval Arab Arms», in Islamic Arms and Armour, edited by Robert Elgood, London Scholar Press, 1979, pp. 202-212, 12 figs.



التاريخ في الأندلس

حتى القرن الحادي عشر ميلادي (الخامس هجري)

بقلم: حياة بوعلوان

ترمي هذه الدراسة إلى توضيح بعض المعالم الرئيسية للتاريخ الأندلسي حتى القرن الحادي عشر ميلادي من خلال نخبة من المؤرخين عكسوا الاتجاهات المختلفة وأبرزوا في كتاباتهم التطوّر المرحلي والحضاري في مفهومهم للتاريخ. بهذا المعنى سوف لن تكون معالجتنا تعداداً لجميع المؤرخين أو سرداً مفصلاً لسيرهم[1] وإنما سنحاول هنا الإجابة على ثلاث نقاط: أولاً، الغاية التي من أجلها كتب المؤرخ، لماذا كتب وكيف تطوّرت تلك الكتابة من قرن إلى قرن. ثانياً، المنهج، أيّ طريق اتّبع المؤرخ، هل كان موضوعياً أم منحرفاً تجاه أسرة حاكمة أو ميل معين. ثالثاً، طريقة الانتقاء، ما هي الأخبار التي رواها وهل كان لديه مفهوم خاص للحوادث أو للتأريخ، هل كان اهتمامه بالإنسان بكامله، أم بنواحي معيّنة من الشخصية الإنسانية. وهكذا، ومن خلال تلك التساؤلات التي ستتداخل بلا شك أثناء البحث، سنحاول أن نتتبّع سير التاريخ الأندلسي ونتلمس الخيوط التي كانت حافزاً وإلهاماً لمؤرخي القرن الحادي عشر ميلادي ليتطلعوا إلى الأمم السالفة ويبحثوا عن تاريخها وعلومها.

□ أستاذة التاريخ والحضارات في كلية بيروت الجامعية.



لم يكتب التاريخ في القرون الأولى بعد فتح الأندلس إلا نادراً لأن العرب اعتمدوا على الحفظ والذاكرة، وكانت تقاليد العائلة تنتقل من الآباء إلى الأبناء، يروونها في المجتمعات وفي الأسواق وفي القصور. لم يكن هنالك على ما يبدو حاجة إلى تاريخ مكتوب، ويقال أن التاريخ الإسلامي كان يعلّم شفهياً في المدارس. فقد جاء في ابن القوطية، وفي أخبار الصميل بن حاتم الكلبي رئيس المضرية، بأنه: «خطر يوماً بمؤدّب يأدب الصبيان وهو يقرأ وتلك الأيام نداولها بين الناس فقال الصميل تداولها بين العرب فقال له المؤدب بين الناس، فقال الصميل وهكذا نزلت الآية قال له نعم هكذا نزلت...»[٢].

كان المجتمع في البداية مجتمع محاربين شغلتهم أمور الحاضر عن التلفّت إلى الماضي فقلّ الكتّاب المحترفون ومعظمهم علماء دين، ألّفوا كتباً تناسب طفولة تلك الحضارة في عصر يبدو وكأن الإيمان كان فيه متعطشاً لأية هداية تعطى له كما يقول دوزي[٣]. لقد كان الاهتمام، حتى في فترة متأخرة، بغير كتب الدين يعتبر شيئاً لا قيمة له؛ ويقال أن أبا محمد الباجي الراوية، الذي عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر ميلادي)، دخل يوماً على المنصور ابن أبي عامر ووجّه إليه اللّوم قائلاً: «... أدخلت يدك في الدنيا فانغمست في لجّها وطلبت الفضول فعلمت أخباراً كثيرة...»[٤].

إن أول مؤرخ نستطيع أن نتتبع أثره في أسبانيا الإسلامية هو عبد الملك بن حبيب. ولد في حصن واط قرب غرناطة سنة ١٨٠/٧٩٦، اعتنق مذهب مالك بن أنس[٥] عندما ذهب إلى الحج ونشره عند عودته إلى الأندلس. كانت وفاته في قرطبة سنة ٢٣٨/٨٥٢[٦].

لم يبق من كتب عبد الملك بن حبيب التاريخية سوى الكتاب المسمى **بالتاريخ**. وهو يعكس الثقافة العربية الأسبانية المعروفة بذلك العصر، ويعدّ من أوائل الكتب العربية الإسلامية عن التاريخ العالمي[٧].

يبدأ ابن حبيب كتابه بخلق الدنيا ويحكي عن قصة آدم وحواء والأنبياء حتى يصل إلى محمد. يذكر الكتب المنزلة وسير الخلفاء حتى يصل إلى فتح الأندلس فيذكر ما يوجد فيها من الذهب والفضة وما يستخرج منها من الثروة ثم يقص سير من حكم من الملوك ومن غزا من الفاتحين. في آخر الكتاب نجد فصولاً عن الفقه والأخلاق والآداب، وطائفة من الأشعار ثم يختتم الكتاب بالتكلم عن قضاة الأندلس[٨].

إن كتاب عبد الملك بن حبيب يعكس التأثير المصري على التاريخ في أسبانيا الإسلامية. لقد تأثّر عبد الملك بشيوخه المصريين، كغيره من الأندلسيين الذين وفدوا إلى المشرق. هؤلاء المصريون كانوا ينظرون إلى بلاد الأندلس باحتقار وهم يجهلون الكثير عنها، فيقصّون على تلامذتهم حكايات ملأى بالخرافات والأساطير، فتأثّر بذلك التأريخ الأندلسي، الذي يعتبر في تلك الفترة، تأريخاً مصرياً عن الأندلس[٩].

وهكذا، وفي بدء القرن التاسع، لم يكن هناك تأريخ في أسبانيا بالمعنى الصحيح. ذلك التأريخ ابتدأ بآل الرازي، أحمد بن محمد بن موسى، وابنه عيسى بن أحمد. فأحمد جمع معلومات عن الرجال المسنّين وناقلي الأخبار وألّف منها تاريخاً، ونقرأ في **المقتبس** لابن حيان عن لسان عيسى أن أباه أحمد شبّ في الأندلس وأحب التاريخ الذي لم يكن علماً يعرفه الأندلسيون «... وابنه أحمد والدي يومئذ طفل ابن ثلاثة أعوام، فأقرّه أهله بالأندلس ونشأ فيها، فطلب العلم ومال إلى الأدب، فغلب عليه حب الخبر والتنقير عنه، ولم يكن من شأن أهل الأندلس، فالتقطه عمّن لحقه عن مشيختهم ورواتهم ودوّنه، ووضع قواعد التاريخ بالأندلس مبتدئاً، فأزلفه بالسلطان، واعتلت به منزلة ولده من بعده، وأكسبوا أهل الأندلس علماً لم يكونوا يحسنونه»[١٠].

ولد أحمد الرازي الملقب «بالتاريخي» سنة ٢٧٤/٨٨٨، وتوفي سنة ٣٢٥/٩٣٥[١١]. ألّف كتباً كثيرة لم يصلنا منها إلا قطعة في صفة الأندلس مترجمة للأسبانية تحت عنوان **Cronica del Moro Basi** والكتاب في الصورة التي وصل إلينا بها قليل القيمة، وهو واحد من تلك الملخصات التاريخية التي كانت ذائعة الصيت في القرن الثالث عشر ميلادي[١٢].

ولقد اعتمد على الرازي الكثير من المؤرخين الأندلسيين أمثال ابن حيان في **المقتبس**، وابن الغرناطي في **فرحة الأنفس**، وابن الخطيب.

تأخذ كتب الرازي وجهة نظر أمراء الأندلس وخلفائه، فقد عاش في فترة نستطيع أن نسميها حقبة الولادة والنمو في التاريخ الأندلسي، حيث كان المؤرخون يكتبون عن السلالة الأموية وهم موالون لهم. كان بعض هؤلاء من العرب، والبعض الآخر من غير العرب، يتنكرون لأصلهم متبعين السلالة الأموية، وملفقين في معظم الأحيان نسباً غايته التوصل إلى نعم البلاط وميزات القصور. كتب هؤلاء المؤرخون عن تاريخ أسبانيا فأغرقهم الأمير بالأموال والنعم حتى أصبحوا عاجزين عن الكتابة الموضوعية الكاملة أو عن إغضاب الأمير الحاكم فامتنعوا، وهم يكتبون أخبار الأندلس، عن إبراز أي ميل للقواد، عربياً كان أم بربرياً؛ لم يستطع المؤرخ كذلك أن يكتب عن الشعوب الأخرى التي تكوّن منها المجتمع الأسباني[١٣]. كانت تلك الفترة فترة الاهتمام بالفتوحات والحروب، ويبدو أن مفهوم التاريخ اتجه نحو الخاصة من القوم من محاربين وغيرهم. فلم يكتب عن تاريخ الأمة بل عن الأسرة المالكة وتاريخ الأمراء خاصة، حتى إذا ما تغير الإطار الاجتماعي والسياسي، تغير معه اتجاه المفكر، وأخذ يهتم بأشياء جديدة وطبقات أخرى في المجتمع.

قلنا أن المؤرخين في هذه الفترة أهملوا تاريخ الأمة ولذا جاءت كتاباتهم سرداً لأخبار البلاطات والملوك أو سجلاً لعائلات الأشراف، حيث نرى لائحة بأسماء رجال الدولة والنساء ومشاغل الملك اليومية أو موت رجال الدين والأدباء مهملين أحداثاً اجتماعية وسياسية مهمة، ولذلك فإن تواريخهم لم تبرز لنا مزايا عصرهم بشمول، وهم بالتالي لم يتنبهوا للواقع المرير بأن أمراء قرطبة لم يستطيعوا صهر الفئات المختلفة في المجتمع.

إن ذلك الإهمال لطبقات المجتمع الدنيا يوازيه عدم الاهتمام بالنبلاء الأسبان، والسؤال الذي يطرح نفسه هو إن كان قد كتب التاريخ من وجهة نظر ثانية غير النظرة الأموية، وعمّا إذا وجد هؤلاء النبلاء من الأسبان من كتب عنهم وأنصفهم!

نعرف أن هناك تاريخاً عن ابن حفصون وعن عبد الرحمن ابن مروان الجلّيقي الذي كان سيداً مريداً (Merida) وبطليوس (Badajos)، وتاريخاً لبني فاسي ولكن لا نعرف من كتبه. هنالك أيضاً مؤلفات لأصحاب المعاقل وللجند الستة السوريين الذين جاءوا لأسبانيا واستقروا هناك[١٤]. هذه أيضاً نجهل منهجها وطابعها وعمّا إذا كان ميلها أموياً أم عكس ذلك.

ومن مؤرخي هذه الفترة الأولى ابن القوطية[١٥]، وهو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز من حفدة سارة القوطية. ولد ابن القوطية بقرطبة ودرس في أشبيلية حيث اهتم بعلوم اللغة والتاريخ، وكتابه، **تاريخ افتتاح الأندلس**، هو إحدى الكتب التي كان يلقيها على تلاميذه. يحكي ابن القوطية في هذا الكتاب عن تاريخ الأندلس من لدن فتحه إلى نهاية أيام الأمير عبد الله بن محمد (٢٩٩ هجرية، ٩١٢ ميلادية). ويبدأ الكتاب على النحو التتالي: «أبو بكر محمد ابن عمر ابن عبد العزيز أخبرنا ما يلي»، مما يدل على أن الكتاب هو مجموعة أخبار رواها ابن القوطية وكتبها أحد تلاميذه.

كان ابن القوطية المتوفى سنة ٩٧٧/٣٦٧ من موالي البيت الأموي ولكنه أدخل في رواياته عنصراً قومياً قوطياً، ففي أخبار أرطباس مثلاً مع الصميل بن حاتم وميمون العابد، يظهر العرب في صورة الجهلاء ويصوّر أرطباس بالرجل القوطي ذي المواهب العظيمة والأخلاق الحميدة[١٦]. في الوقت ذاته، نراه لا يتكلم عن خصوم بني أمية مهملاً الفئات اليهودية والمسيحية في المجتمع الأسباني. وهكذا فهو يجمع بين ولائه للأمويين وتعصبه لأصله القوطي.

كتاب ثان تجدر الإشارة إليه هنا وهو **أخبار مجموعة**. نشرها وترجمها لافونتي الكانترا (Lafuente Alcantara)، وهي مجموعة مذكرات وفقرات تاريخية سجلها صاحبها شيئاً فشيئاً دون أن يراعي الربط المنهجي أو الترتيب الزمني. في هذا الكتاب اهتمام بالتاريخ الأندلسي، ويظهر أنه من تأليف عدة كتّاب وضعوا أخباراً تختلف نوعاً وفكراً وذوقاً: بعضها يذكر الحروب وشؤون السياسة، وبعضها يهتم بالأمور



□ البيروني.

الدينية وبالفقه والأخلاق؛ ولكن هناك قاسم مشترك بين أجزاء الكتاب، ألا وهو حب البيت الأموي والقرشيين، وكسائر كتب هذه الفترة يهتم بعرب الأندلس والبيت الأموي دون غيرهم في المجتمع مهملاً بذلك بقية طبقات أهل الأندلس الإسلامي وأجناسهم الأخرى إهمالاً يكاد أن يكون كاملاً.

وتختلف الآراء على الفترة التي ألف فيها هذا الكتاب: ج. ريبيرا (J. Ribera) يقول بأنها كتبت في عصر عبد الرحمن الناصر في القرن الرابع الهجري، العاشر ميلادي، أما لافونتي الكانترا (Lafuente Alcantara)، فمثل دوزي، قال بأنها كتبت في القرن العاشر ميلادي، وذلك استناداً لفقرة جاءت في الكتاب: «... وليت الله كان أبقاه حتى يفعل، فإن مصيرهم إلى بوار إلا أن يرحمهم الله»[١٧]. وقد ظن دوزي أن ذلك إشارة إلى الفتنة في القرن الحادي عشر ميلادي. أما ريبيرا فيرى أن ذلك إشارة إلى سعي عبد الرحمن الناصر في إضعاف سلطان رؤساء العرب وإحلال موالي الأندلسيين محلهم في الوظائف الكبرى، وقد استنتج ريبيرا بأن أصحاب كتاب **أخبار مجموعة** عرب قرشيين، فإن حالة المسلمين بنظرهم كانت سيئة في ذلك الوقت بعد أن فقد الجنس العربي نفوذه القديم. وهكذا افترض ريبيرا أن **أخبار مجموعة** ألف في القرن الرابع الهجري، العاشر ميلادي[١٨].

قلنا أنه في هذه الفترة كان التاريخ محدوداً ولكنه اتسع مع الزمن بتمازج الشعوب والعلوم، ثم زاد استقلالاً في القرن الحادي عشر

ولو انه بقي بصفاته المميزة تاريخاً أندلسيا. هذا لا يعني أن المؤلفين الأندلسيين لم يهتموا بالبلاد الإسلامية الأخرى بل بالعكس، هنالك من كتب عن تاريخ المشرق كعريب بن سعد المتوفى سنة ٣٧٠/ ٩٨٠ الذي لخص كتاب الطبري وزاد عليه تاريخ المغرب والأندلس.

كان عريب من قرطبة، مولى لبني أمية، ولذلك جاء في كتابه، خاصة فيما يتعلق بالأندلس، «أخبار بلاط» ميل واضح للأمويين. فهو لا فرق عنده بين المنصف والظالم، يدل على ذلك عندما كتب عن الأمير عبد الله، فهو لا يذكر مثلاً كيف قتل عبد الله أخاه المنذر حتى يستأثر بالسلطة[١٩]. ولكي يظهر لنا الفارق بين هذه الفترة والفترة التي تليها، أي القرن الخامس هجري، الحادي عشر ميلادي، علينا فقط أن نقرأ ما كتبه ابن حيان القرطبي عن لسان ابن حزم في الموضوع ذاته. قال إن عبد الله كان قتّالاً تهون عليه الدماء، احتال على أخيه المنذر بن محمد وقتله وهو نازل لمقاتلة ابن حفصون الثائر الأسباني، ثم قتل ولديه معاً بالسيف، محمد والد الخليفة الناصر لدين الله، وأخاه، عدوه المطرّف وغيرهم[٢٠].

من هنا نرى كيف أن عريب لم يشأ أو لم يجرؤ على المجاهرة بالحقيقة، عكس ابن حزم في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي، الذي جاهر بتلك الحقيقة رغم حبه للأمويين. كل ذلك يدل على أن تغير الإطار السياسي والاجتماعي قد غيّر المفاهيم والنظرة إلى الأمور والحوادث.

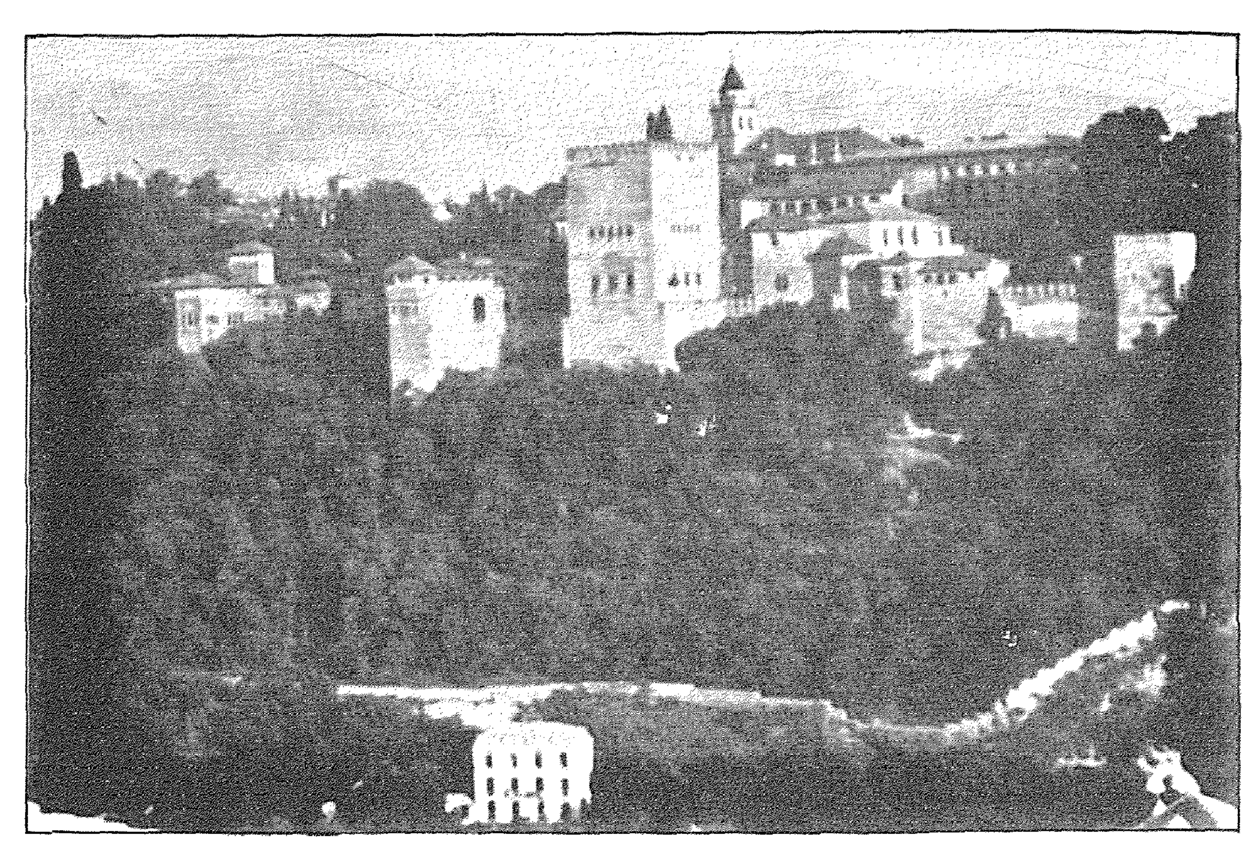
وميل عريب بن سعد للأمويين يجب أن لا يجعلنا نتجاهل بعض النقاط الهامة في كتاباته. فوظيفته ككاتب للحكم الثاني المتوفى سنة ٣٦٦/ ٩٧٦ جعلته يطلع على وثائق مهمة فيستفيد منها في مؤلفاته، ولكن كتاباته على العموم تمثل وتختتم الفترة الأولى من تاريخ الأندلس، فترة مؤرخي الملوك والحكام. وهو، وإن كان يعتبر أحياناً من فئة الذين كتبوا في التاريخ العام، بقي في نطاق المسيحية واليهودية والإيرانية ولم يتخط ذلك لينطلق للأمم السالفة، كاليونان والهند والصين وغيرهم.

ولا نستطيع أن نترك هذه الفترة دون أن نشير إلى نوع آخر من التاريخ الذي نال رواجا وشهرة في الأندلس. ذلك هو كتابة التراجم والسير. فالتراجم أسهمت منذ البداية في التاريخ الإسلامي واستطاعت بمرور الزمن أن تظفر بمكانة رفيعة، فسيرة الرسول مثلاً اعتمدت على رجال كان قبول إسنادهم يتوقف على ما يعرف من سيرهم، ثم أن النزاع بين الفرق في الإسلام نشب معظمه حول الشخصيات المختلفة وفضائل الناس أو عيوبهم، فأعطت التراجم بذلك فرصة للمؤرخين ليصبحوا مفيدين لأسباب فقهية. كما وأن كثيراً من فروع المعرفة والعلوم فهم تاريخها كمجموعة تراجم العلماء، والمثال على ذلك، تواريخ بعض العلوم كالطب وتاريخ الأديان والأنساب المقارن. وهكذا فمبدأ التراجم طبق فيما بعد في تاريخ العلم والمعرفة عند الأمم المختلفة مثال على ذلك ابن جلجل وصاعد الأندلسي الذين رتّبوا سير العلماء بحسب الأمم التي انتموا إليها[٢١].

انتشر في الأندلس هذا النوع من الكتابة وهناك نموذج معاجم رجال جامعة مثل كتاب ابن الفرضي، ومعاجم أعلام الفقهاء التي وضعها في القرن الحادي عشر أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر، وفهرسة ابن خير الأشبيلي. كذلك ألّفت كتب في تراجم صنوف معينة من الرجال كالزّهاد والمتصوفين والكتّاب والمحدثين والفقهاء وغيرهم، ومنها ما ألف في رجال من مدينة معينة أم من ناحية من النواحي[٢٢].

نتوقف هنا عند مؤرخين اثنين، هما الخشني وابن الفرضي ـــ الأول هو أبو عبد الله محمد بن الحارث بن أسد الخشني القيرواني، جاء إلى الأندلس سنة ٣١١ أو ٣١٢/٩٢٣ أو ٩٢٤. خدم الحكم المستنصر واشتهر بكتابه **تاريخ قضاة قرطبة** من الفتح الإسلامي حتى سنة ٣٥٧/٩٦٨، وتوفي في قرطبة سنة ٣٦١/٩٧١[٢٣].

كتب الخشني وفي حوزته الكثير من الوثائق القيمة فجاء كتابه ليعطي فكرة واضحة عن الحياة الاجتماعية في عصره. نجده بعيداً عن كتابة الأساطير أو اللجوء إلى العوامل الغيبية في سرده للحوادث، كذلك نراه لا يهتم بمداهنة أرباب الدولة، فهو بصحبة الحكم المستنصر يذكر



□قصر «الحمرا» في غرناطة، يعكس مدى القوة التي توصل إليها المسلمون في اسبانيا. (القرن ١٣ — ١٤ ميلادي).

أشياء غير مستحبة عن البيت الأموي، فيقول مثلاً بأن عبد الرحمن الداخل كان عصبياً عنيفاً، ولكنه يعبر أيضاً عن إعجابه عندما يصف هشام الربضي بطيبة القلب والرحمة، والحكم الربضي بالنشاط والحزم. هذا الكتاب يعطينا صورة واضحة عن المجتمع السياسي الأندلسي آنذاك فيصور طبقات الأندلس من قرشيين يطمحون إلى الحكم وينزعون إلى الشر والفوضى، وأسر منحدرة عن أصول أسبانية، وخدم من غلمان وصقالبة، ونصارى وزهاد مسلمين، ثم يحكي عن قرطبة وما كان يشغل الناس من أمور الدين والدنيا، وعن توقيرهم للعلم فنجد أنفسنا في قلب قرطبة في عهد الإمارة ونتعرف على نظام القضاء في الأندلس ونكتشف الصفات الفاضلة التي تحلّى بها قضاة ذلك العصر.

والمؤرخ الثاني في هذا الباب هو ابن الفرضي الحجاري وهو أبو الوليد عبد الله بن محمد بن الفرضي، المتوفي سنة ١٠١٢/٤٠٣، من أهل قرطبة[٢٤]. كان قاضياً وشاعراً وشهرته في كتابه **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**، وهو على ما يبدو من أقدم معاجم أهل العلم. يذكر المؤلف في بدايته أنه قصد الاختصار فيما جمعه عن فقهاء الأندلس وعلمائهم ورواتهم، ثم يقول: «وغرضنا فيه: ذكر أسماء الرجال وكناهم وأنسابهم، ومن كان يغلب عليه حفظ الرأي منهم، ومن كان الحديث والرواية أملك به وأغلب عليه، ومن كانت له إلى المشرق رحلة؛ وعمن روى، ومن أجل من لقي ومن بلغ منهم مبلغ الأخذ عنه، ومن كان يشاور في الأحكام ويستفتي، ومن ولي منهم خطة القضاء؛ و: من المولد والوفاة؛ ما أمكنني: على حسب ما قيدته»[٢٥]. ويقول ابن الفرضي أنه سأل الشيوخ والأقران حتى اجتمع له ما أراده فجاء في كتابه من المعلومات ما لم يقيد في أي كتاب غيره في الأندلس[٢٦].

هكذا نرى ابن الفرضي يبدأ كتابه بإعطاء القارىء فكرة عن المنهج الذي سيتبعه والمادة التي سيكتب عنها مراعياً بذلك الأمانة الفكرية. كذلك يذكر المصادر التي استقى منها أو سمعها بكل دقة حتى يبدو للقارىء أحياناً أنه يختصر في ترجماته كي لا يذكر شيئاً ليس متأكداً منه.

وشيئاً فشيئاً أخذ الأندلسيون يهتمون بخارج نطاق بلدهم وديانتهم، فرحلاتهم إلى المشرق

الإسلامي وتعرّفهم على المؤلفات المترجمة وغيرها، وضعتهم وجهاً لوجه أمام أمم أخرى وديانات مختلفة. هكذا توسعت آفاقهم وأثيرت أمامهم المشكلات الفكرية التي سبق وشغلت المفكر الإسلامي في المشرق منذ القرن الثالث هجري، التاسع ميلادي. فهناك في بغداد وغيرها كان المؤرخ الإسلامي قد واجه أمماً قديمةومعاصرة له، وصلت إلى الذروة دون أن يكون لديها أي تراث ديني أو إسلامي، فأخذ يفكّر في معنى ومغزى تاريخ تلك الأمم وما خلّفته للعالم الإسلامي، وانصبّ يدرس ذلك التاريخ، يشرح ويقابل ويقارن، ويغوص في تراث فارس واليونان القديم وغيره ليتفهّم أفكار وعادات تلك الشعوب محاولاً اكتشاف العامل الذي يحرّك الحضارة ويبعثها، ثم يرفعها إلى القمة ليعود ويرميها في طور الانحطاط والزوال.

ومؤرخو الأمم كتبوا التاريخ بطرق مختلفة تتوقف على اهتماماتهم وفلسفتهم في الحياة. ذلك المفهوم الحياتي الفلسفي برز عندما قسّم بعضهم الأمم القديمة، فالجاحظ مثلاً، الذي عاش في القرن الثالث هجري، التاسع ميلادي، يقسّم الأمم التي فيها الأخلاق والأدب والحكم والعلم إلى أربعة[٢٧]: العرب والفرس والروم والهند[٢٨]. أما اليعقوبي، فإنه اختصر في الجزء الأول من كتابه ابتداء الكون وأخبار الأوائل من الأمم المتقدمة والممالك المتفرقة، وفي جزئه الثاني يتكلم عن سيرة الرسول والخلفاء حتى سنة ٢٥٨ هجرية[٢٩]. وتاريخ اليعقوبي على ما يبدو من أوائل التواريخ التي نحت ذاك المنحى العالمي الذي كان الأدب قد مهد الطريق إليه.

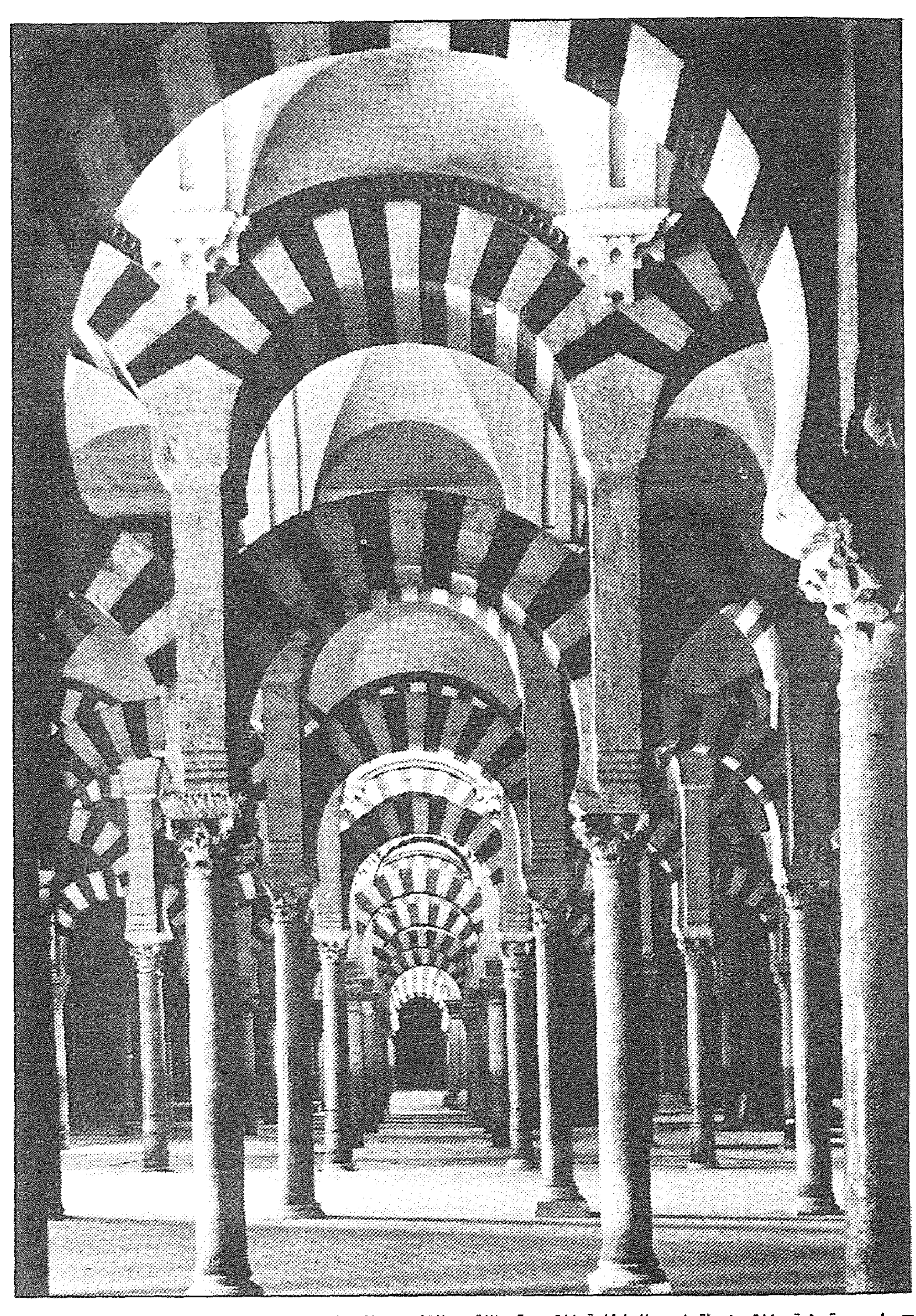
أما البيروني (توفي حوالي ٤٤٢/ ١٠٥٠) فإنه قسم الأمم إلى ثمانية: الروم والأغريق والقبط والإسرائيليون واللخميون والغسانيون واليمنيون وأهل كندة وأمة الإسلام[٣٠]، وقد كانت غاية البيروني إعطاء تقويم تاريخي للأمم المختلفة فحقّق في المدة التي حكم فيها الولاة كل بمفرده، كما وأنه حاول إيجاد أوجه شبه أو قواسم مشتركة بين الأمم المعاصرة[٣١].

والمسعودي (توفي سنة ٣٤٥/٩٥٦) قسّم الأمم إلى سبعة[٣٢]، تميزت بالشيم والخلق الطبيعية واللغات[٣٣]، الفرس والكلدان واليونان وأهل مصر والأتراك وأهل الصين والهند.

أما في الأندلس، وفي أواخر القرن الرابع هجري، العاشر ميلادي، فنرى للمرة الأولى اهتماماً بأمم ما قبل الإسلام ومحاولة للتعرّف إليها من خلال سير علمائهم، فنصادف كتاباً يعد وثيقة هامة في تاريخ العلوم وتطور حركة الترجمة والتأليف في القرن الرابع الهجري، العاشر ميلادي. ذلك هو **طبقات الأطباء والحكماء** لأبي سليمان حسان ابن جلجل. وميزة كتاب ابن جلجل أنه يستند فيما رجع إليه من مصادر إلى تراجم عربية لأصول قديمة من لاتينية وغيرها، وربما كان كتاب ابن جلجل أول كتاب استفاد من هذه الترجمات التي تمت في عصره أو قبلها بقليل[٣٤].

لقد كتب ابن جلجل سير علماء ما قبل الإسلام حسب الأمم التي انتموا إليها واستفاد من عدة كتب تاريخية وعلمية دخلت الأندلس، ففي ذلك العصر ترجمت بعض المؤلفات التاريخية إلى العربية ولربما كان أهمها كتاب باولوس أوروسيوس (Paulus Orosius) والذي يذكره ابن جلجل باسم «هوروشيوش»[٣٥]. وكتاب **الحشائش** لديسقوريدس، كذلك يبدو أنه أدرك نقولا الراهب الذي ترجم في أيام الحكم المستنصر كتاب ديسقوريدس في الطب من اليونانية إلى اللاتينية، ويظهر أن ابن جلجل قد أسهم بنفسه في هذه الترجمات. كذلك عرف في الأندلس كتاب **الأدوار والألوف** لأبي معشر المنجمي المتوفي سنة ٢٧٢ هجرية، وقد استفاد ابن جلجل من هذه المراجع وغيرها[٣٦] فطوّر كتابته عمن سبقه، في بلاد الأندلس وألهم صاعد الأندلسي الذي استقى فيما بعد من ابن جلجل ومراجعه.

وجّه ابن جلجل كتابه لأحد أشراف عصره ولا شك أنه أحد أبناء الخلفاء الأمويين فهو يصفه في آخر مقدمته «الأموي القرشي نجل الخلفاء...»[٣٧]. ثم يتابع: «سألت أيها الشريف الأديب أن أكتب إليك بما تأدى إليّ علمه مما تصفحت من كتب الماضين وسير المتقدمين، عن أول من وضع صناعة الطب وتكلّم فيها في بدء الزمان، وقبل الطوفان وبعده، وفي أي زمان كان كل متكلّم فيه، ممن شنع اسمه وفشا ذكره وصحت براعته ونمت حكمته وخلّد علماً نافعاً



□جامـع «قرطبة» المتميز بأقواسه الداخلية المتعددة. (القرن الثامن ميلادي).

وذكراً باقياً»[٣٨]. ثم يمدح ابن جلجل هذا القرشي الأموي ويخبره بأنه حقق في الكتب القديمة قبل أن يكتب إليه، في كتاب **الألوف** لأبي معشر المنجم، وكتاب **هوروشيوش** صاحب القصص[٣٩] وكتاب **القراونقة** (Chronica) ليرونم الترجمان[٤٠]، كذلك تتبع أخبار حكماء اليونان وأسماء ملوكهم.

يقسم ابن جلجل الحكماء ممن كانوا في الدولة السريانية والكسروية قبل الطوفان وبعده، ثم حكماء اليونانية في دولتهم ثم الروم ثم الاسكندرانيون ثم من لم يكن في أصله رومياً ولا سريانياً ولا فارسياً. يصل بعدها إلى الإسلام وهنا نراه يرى مجيء الرسول كنقطة التحول في التاريخ العالمي. فالأمم السالفة أهميتها حضارية بقدر ما أعطت للإسلام: «لما أظهر الله الإسلام وفشت دعوة نبيّنا محمد ، وذلك في دولة هرقل وقيصر، وكان مسكنه بالشام بأنطاكية انحسمت بدعوة الإسلام كل دعوة ظاهرة. ثم أعلا الله كلمة التقوى ومنار الهدى، فصارت للعرب الدولة العظمى، والرئاسة الكبرى، والحكمة البالغة العلى، وخمدت كل دولة قاهرة وكل ملّة ظاهرة، واختار الله له يثرب داراً، والحجاز قراراً، والأنصار أصحاباً»[٤١].

هنا نرى مشكلة أساسية في تاريخ ما قبل الإسلام،فقد أثيرت التساؤلات بعد مجيء محمد الذي كان من الأهمية بحيث اعتبر ما سبقه من تاريخ سلسلة من التحضيرات فائدته حضارية وثقافية فحسب، ولم يأبهوا بذلك التاريخ من الوجهة السياسية والدينية، ومن الملاحظ أن هذا التاريخ ينقلب تاريخاً سياسياً عندما يصل المؤرخ إلى الفترة الإسلامية وذلك تسهيلاً لاستخدام الفقهاء[٤٢].

ويتكلم ابن جلجل عن حكماء الحضارة الإسلامية ممن برع في الطب والفلسفة، منهم مسلمون ومسيحيون كمحمد بن زكريا الرازي ويوحنا البطريق ويوحنا بن ماسويه وغيرهم. وهو يخبرنا عن سيرة الرازي مثلاً وعن مؤلفاته وعن فقدان بصره[٤٣] دون تحليل لفلسفته، وهذا يدل على أن القرن الرابع هجري، العاشر ميلادي، الذي عاش فيه ابن جلجل، كان فترة بدء الانفتاح الحضاري الذي سيتطوّر فيما بعد.

ويتكلم ابن جلجل عن حكماء الإسلام الذين سكنوا المغرب ثم عن الطبقة الأندلسية الحكمية منهم والطبّية فيبدأ بمقدمة عن كتاب **الأبريشم (الجامع والمجموع)**[٤٤]، وينهي ابن جلجل كتابه مخاطباً الأمير القرشي المذكور بقطعة سأوردها لأهميتها:

«قد ذكرت أيها الشريف، ما أحاط به علمي، وبلغه إدراكي، من وصف الحكماء والأطباء المشهورين غير المشكوك فيهم، من لدن آدم عليه السلام، إلى الزمان الذي كنا فيه، وهو زمن المؤيد بالله، بحوزة الأندلس، وذكرنا من كان منهم بالمشرق والمغرب، ولم نذكر من كان بالمشرق مشهوراً، من لدن دول الراضي إلى أيام الطايع لله إذ لم تكن حوزتنا ولا جهتنا. ولا ظهر رجل بارع في تلك الدول، فيكون معروفاً برئاسته ومشهوراً بإحسانه، مع تراخي تلك الدول، بما دخل فيها من ملك الديلم والأتراك، الذين لا نفاق بشيء من العلم عندهم، وإنما يظهر الحكماء بظهور دول الملوك الطالبين للحكمة. واقتصرنا على من عرفنا بناحيتنا بالأندلس، إذ كانوا مشهورين معروفين ظاهرين، في دول أئمة للعلم طالبين. وعن الحكمة باحثين ملوك أبناء ملوك واقتصرنا على ذكر المشهورين الظاهرين الخادمين، وأضربنا عن ذكر من كان في زمانهم، من لم يوازيهم، ولا حل محلّهم، إذ لم يكونوا من اتساع الذكر بمحل هؤلاء. ووصفت صفاتهم وإقدارهم وما ظهر لهم من النوادر والأخبار، واقتصرنا على قليل من كثير، لئلا يملّه قاريه، وليسهل على النفس حفظه. والكلام إذا طال تقل وحسبنا أن نبهّنا وأنبأنا من كل شيء بأحسنه وأخفه...»[٤٥].

وهكذا نرى أن نظرة ابن جلجل للتاريخ على ما يبدو هي نظرة حضارية، والتاريخ هو وسيلة لفهم تطور الحكمة والشريعة. كل هذه الأفكار سيطوّرها من سيأتي بعد ابن جلجل في القرن الخامس للهجرة، الحادي عشر ميلادي، فإن الأحوال السياسية والتيارات الخارجية والداخلية ستضع فكرة ابن جلجل في إطار مختلف وسيأتي مؤرخون وفلاسفة ومفكرون ليكتبوا عن الأمم والعلوم القديمة بمنظار ثان وأبعاد مختلفة.

في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر

ميلادي، ابتدأت فترة جديدة في التاريخ الأندلسي، فترة النمو والازدهار، فترة ابن حزم وابن حيان.

كانت الدولة الأموية يومها قد بدأت تتفكك وتنهار وأخذت بعض المدن تستقل، فموت عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر (سانجولو) سنة ٣٩٩/١٠٠٩، كانت بداية عهد الفتنة اقتطع بعدها كل حاكم قسماً من الدولة وأخذ يحاول الإبقاء عليها بأي وسيلة كانت. وهكذا ولأكثر من ستين سنة تنازع الحكام فيما بينهم حتى إذا ما اتحدت النصرانية وتقدمت، كانت العرب متفككة لا تستطيع أن تقف وقفة موحدة فاستولى الفونسو السادس على طليطلة سنة ١٠٨٥ ميلادية وكانت بداية النهاية. لكن ذلك لم يؤثر على الحركة الفكرية في الأندلس بل بالعكس، فقد اتبعت الأقاليم والمدن المستقلة تقاليد خلفاء الأمويين، عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني، ولم تعد قرطبة وحدها مركزاً للعلم والثقافة وإنما أصبحت هنالك مدن كاشبيلية وبطليوس والمرية وغرناطة مراكزاً للأدباء والفنانين والشعراء. أما طليطلة وسرقسطة فقد أصبحتا مرتعاً للرياضيين وعلماء النجوم والطب والفلاسفة.

في تلك الفترة من التناقض حيث استمر الفكر والفن مزدهراً رغم الاستقرار السياسي، برز مفكرين، ابن حزم الأندلسي وابن حيان القرطبي فكان عصر الازدهار والاكتمال.

كان تقليد المشافهة ما يزال حياً فاستطاع مؤرخو هذه الفترة أن يصحّحوا أخبار من سبقهم، فهم ورغم موالاتهم للأمويين، أصبحوا في ظل الوضع الجديد، أكثر قدرة على التصريح بعلمهم وافكارهم، فمعظم كتّاب القرن الحادي عشر انصرفوا إلى التفكير والتحليل، عرفوا المعنى الحقيقي للمشاكل التي عصفت ونخرت بالأندلس فوسعوا أفق كتاباتهم ليشمل كل القوى والبيوتات المعروفة التي توصلت أخيراً للإطاحة بخلافة قرطبة، تلك الخلافة التي أسست على ركائز اجتماعية واهية دون أي انصهار لفئات المجتمع المختلفة.

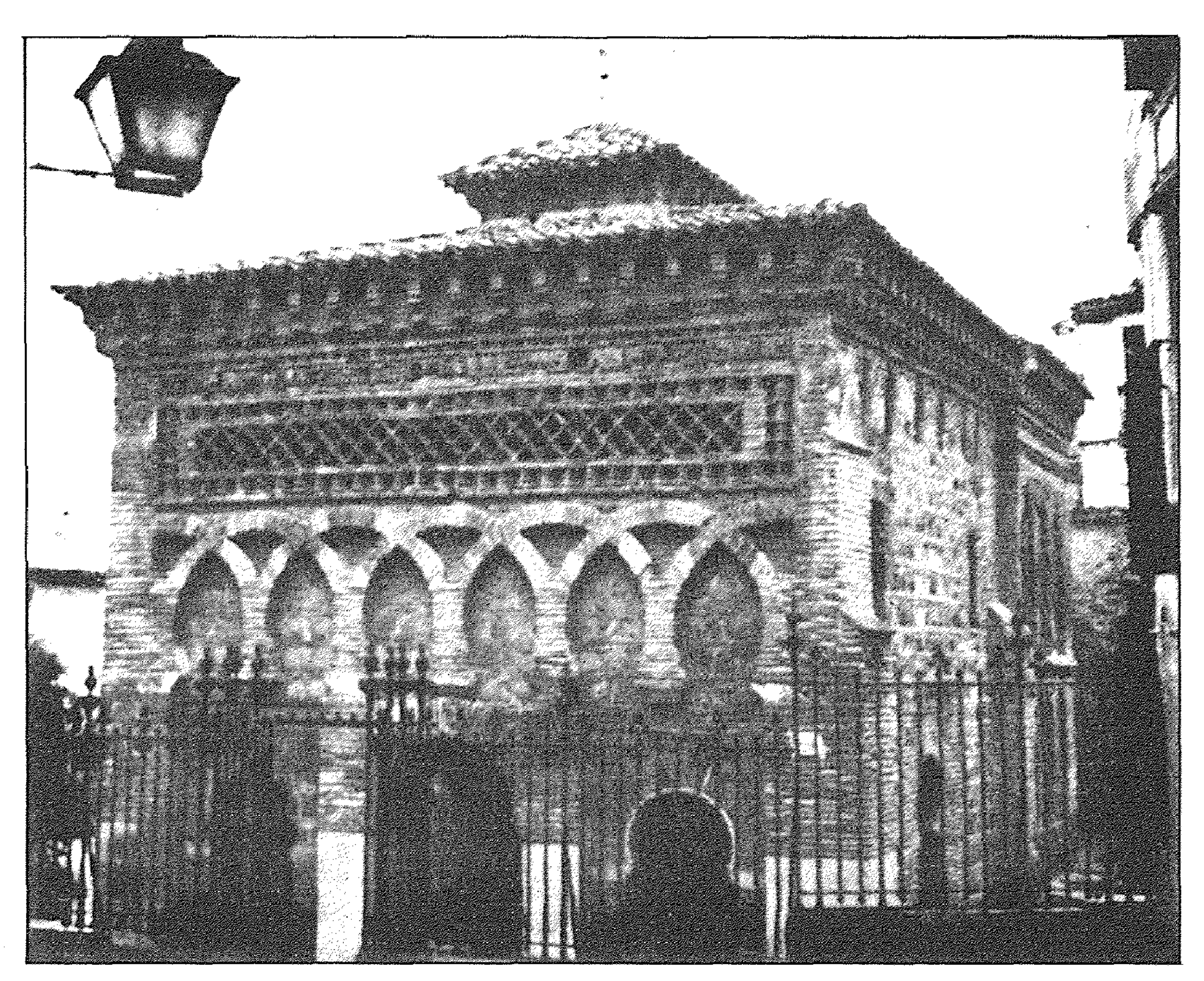
تتمثل هذه المدرسة الجديدة أولاً في ابن حزم ٣٨٣ ــ ٩٩٤/٤٥٤ ــ ١٠٦٣(٤٦). كان أبوه أحد وزراء المنصور والمظفّر ابن المنصور، وكان ابن حزم وزيرا لعبد الرحمن الخامس. كان يحب البيت الأموي وينتمي للمدرسة التاريخية التي أسميناها مدرسة «الرواة ومؤرخي البلاط».

ما إن سقط البيت الأموي حتى قاده تأثره لأن يفكر بالأسباب الرئيسية لهذا الانحدار فكان أن نمق الدراسة التاريخية باتجاه خاص جديد. بقي يحب الأمويين، ومع ذلك لم يغفل عن أخطائهم. رأى تفتت الأندلس بعد أن كانت متماسكة في عهد عبد الرحمن الثالث والمنصور فقاده ذلك إلى التأمل والتفكر في أسباب تفكك الدول إجمالاً.

كان للتاريخ مكانة هامة في نظر ابن حزم ولو أنه احتل حيزاً صغيراً من مؤلفاته(٤٧). فهو يعتقد بأن التاريخ «علم» ذو خصائص وغايات متميزة، أما عن العلوم فيقول بأنها سبعة عند كل أمة وهي علم شريعتها وعلم أخبارها وعلم لغتها ــ وفيها تتميز كل أمة ــ وعلم النجوم وعلم العدد وعلم الطب وعلم الفلسفة وفيها تتفق الأمم كلها(٤٨). أما الأمم التي يتحدث ابن حزم عنها فهي الأمم الإسلامية وبنوا إسرائيل والروم وأمم الشمال من ترك وخزر وغيرهم وأمم السودان والهنود والصينيون والأمم الدائرة كالقبط واليمانيين والسريانيين والأشمانيين وعمون وموآب والفرس.

نرى ابن حزم هنا يقسّم الأمم إلى ثمانية. أما لماذا الاطلاع على تواريخ الأمم فابن حزم يجيب أنه للتزهيد في الدنيا المتقلبة وللقدوة الحسنة وللعبرة بالزوال ولتمييز الصواب من الخطأ في الأخبار، ثم للّذة في القراءة والتعلّم والتنشيط، فالتاريخ برأي ابن حزم مفيد لبناء الشخصية الإنسانية أخلاقياً ونفسياً وهو، لسهولته، يستطيع أن يكتسبه الإنسان من دون معلم(٤٩).

كان ابن حزم واسع الاطلاع خاصة على تواريخ الأمم: اطلع على التوراة والأنجيل وتاريخ يوسيفوس (Josephus)، وكتاب هوروشيوش، هذا فضلاً عن اطلاعه على الروايات الشفوية؛ ثم أن لوالده الفضل الأكبر في توجيهه للتاريخ بحكم شخصه ومكانته. هذه الأمور أتاحت لابن حزم التعرّف على دقائق ما يجري في الدولة وعلى شخصيات العصر ومحاورة الأقوان وهو يقول في هذا المضمار «ولقد



□جامـع «باب مردم» المستطيل الشكل، في طليطلة (القرن التاسـع ــ العاشر الميلادي).

شاهدنا الناس وبلغتنا أخبار أهل البلاد البعيدة وكثر بحثنا عما غاب عنا منها ووصلت إلينا التواريخ الكثيرة المجموعة في أخبار من سلف من عرب وعجم في كثير من الأمم»(٥٠).

كان ابن حزم، فضلاً عن سعة اطلاعه، ذا نقد دقيق وقد أدرك أهمية الجغرافيا والاقتصاد لفهم التاريخ(٥١). فهو عندما يحدد بلاداً ما يحاول أن يعطي القارىء فكرة أكثر وضوحاً وتفهماً أوسع عن حالة تلك البلاد ويثير بذلك التساؤل والتحليل عن العوامل السياسية والاقتصادية. كذلك فهو يعطي نظرة شمولية لفهم التاريخ، سابقاً بذلك ابن حيان وصاعد الأندلسي الذي يضع كل أمة في إطارها التاريخي والجغرافي قبل التكلّم عنها.

كان التاريخ بالنسبة لابن حزم وسيلة لا غاية، وسيلة لخدمة الشريعة ولنمو الشخصية الإنسانية، فالغاية هو الخالق المتكامل وكل شيء فان وزائل، وتلك الأمم السالفة وعلومها لها مغزاها إذا ساعدت على فهم الأشياء وينبوعها وتسلسلها عبر الزمن. وكأن حال الأندلس وملكها الذي سار من المجد إلى الانحلال قد أقنعه بزوال المخلوقات وبقاء الخالق، فعلم التاريخ وحتى علم الشريعة، هما وسيلة، والفائدة منهما بقدر ما يوصلان إلى الغاية المنشودة، وهي صلاح البشر.

تكلمنا فيما سبق عن حقبة التفكك حين تدهور الحال في الأندلس، وتراجع العرب أمام الممالك المسيحية فكان الانهيار السياسي والتألق الفكري، وكأنما رابط يربط بين هذين الأمرين. في ذلك العصر القلق عاش رجل وقف ملكاته على التاريخ جاعلاً منه وسيلة وغاية بالوقت نفسه. ذلك هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي. المتوفي سنة ٤٦٩/١٠٧٦. شغل وظيفة صاحب الشرطة أو صاحب المدينة في

قرطبة زماناً(٥٢).

الكتب التي بقيت لنا من مؤلفات ابن حيان اثنان أولها **المقتبس من أنباء أهل الأندلس** ويقع في عشرة أجزاء لم يكتشف منه حتى اليوم سوى أربعة. **والمتين** ويقع في ستين مجلّدة وهو تاريخ ابن حيان الكبير كما سماه ابن بسام في **الذخيرة**. هذا «التاريخ الكبير» لم يبق منه سوى فقرات نقلها من أتى بعده كابن بسام وابن الخطيب.

انقطع ابن حيان لكتابة التاريخ، وفي «المتين» يظهر أصالة في التفكير وفهماً دقيقاً للحوادث السياسية الجارية. كان من موالي البيت الأموي ولكن ذلك لم يمنعه عن التحليل والتفكر في أسباب سقوط خلافتهم. كذلك، وعلى نمط ابن حزم، وجّه انتقاداته لعلماء الدين الذين نسوا تعليم الشريعة وتذللوا إلى الحكام فقال «... فقد خصّ الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا هذين. بما لا كفاية له ولا مخلص منه، فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق... والفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صدوف عما أكد الله عليهم في التبيين لهم، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم، خائض في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم آخذ بالتقية في صدقهم، وأولئك هم الأقلون فيهم، فما القول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها»(٥٣).

وهكذا نرى ابن حيان شاهداً على عصره وعلى تاريخ الأندلس كله محللاً مختلف مظاهر الحياة الإنسانية، ينظر إلى تقلب الأزمان والحوادث كدروس حياتية يجب أن يعتبر بها المرء، وينظر إلى تاريخ الأمم السالفة نظرة فلسفية متعظاً ومعتبراً، يراها تزول بزوال ملوكها وسؤددها فيتلفت إلى الواحد الباقي الذي لا يزول(٥٤).

فالتاريخ عند ابن حيان علم نافع يتعظ الإنسان فيه بأخبار الأمم السالفة ويتعلم ويقتدي ويتفهّم غاية الخلق. أما العلم فلقد اعتبره ابن حيان عطية من الله وفضيلة يحصل عليها الإنسان. «... خلق الإنسان علّمه البيان، وأجرى بيده فلك القلم العظيم الشأن فعلمه ما لم يعلم وأشهده ما لم يحضر وكرّر عليه نبأ ما لم يلحق من القرون الماضية والأمم البائدة وأراه سبيل منقلبهم عن هذه الدنيا الفانية، التي استعمرها فيها قرناً بعد قرن ليبلوهم فيما أتاهم فتأفتوا في شهدها، وتهالكوا كالأذبة عليها، لا الآخر بما انتهى إليه عن الأول معتبر ولا الغابر بما مر عليه الماضي مزدجر، حكمه بالغه فما تغني النذر، إذ كل مقدر كائن، وكل مربوب مسخر»(٥٥).

أما انصرافه للتاريخ فيبدو من خلال كتابته، فما أن انبعثت الفتنة البربرية حتى توقفت يده عن الكتابة فقال: «وأنسأتني المدة إلى أن لحقت بيدي منبعث هذه الفتنة البربرية الشنعاء المدلهمة المفرقة للجماعة، الهادمة للمملكة المؤثلة، المغربة الشأو على جميع ما مضى من الفتن الإسلامية، ففاضت أهوالها تعاظماً أدلهني عن تقييدها، ووهمني ألا مخلص منها فعطّلت التاريخ إلى أن خلا صدر منها... فاستأنفت من يومئذ تقييد ما استقبلته من أحداثها؛ فأنعمت البحث عن ذلك عند من بقي يومئذ من أهل العلم والأدب لدينا، فلم أظفر منه إلا بما لا قدر له، لزهد من قبلنا قديماً وحديثاً في هذا الفن، ونفيهم له عن أنواع العلم...»(٥٦).

هكذا انصرف ابن حيان يكتب التاريخ يأخذ من المشرق الإسلامي وبنفس الوقت يعجب كيف ولماذا كتب بعض هؤلاء المشارقة عن أمم لا فائدة منها كالديلم والأتراك والأعاجم. ثم يعود فيستدرك قائلاً: «وإن ذلك لا محالة كان لاستغرابهم شأنها، وإكبارهم مجيء الزمان بمثلها، وأشاركهم إلى أنها طرقت هادمة لما بنته الدنيا، مغيرة لمحاسنها، مزهدة فيها، مؤذنة بانقطاعها، كي يكون البقاء لمن تفرد بجبروته، ويدوم البهاء لمن لا تتسلط الغير على ملكوته»(٥٧).

نجد ابن حيان يفلسف التاريخ ويتخذ من الحوادث الجارية في الحاضر والماضي دروساً تساعده على فهم الحياة وطبيعة الكون. إن الأمم التي سبقت الإسلام كالديلم والأتراك لا قيمة لها إلا بقدر ما يستطيع أن يستفيد الإنسان ويعتبر بدراستها: هذه الأمم التي لم تعط علماً ولا معرفة لا قيمة لها، أما الأمم التي أعطت الحضارة فأهميتها بقدر ما تطوّر العلم من بعدها ليصل إلى الإسلام وإلى النبي محمد خاتمة الأنبياء.

وللتاريخ عند ابن حيان مفهومه الخاص

الشمولي الذي يحيط بالحياة الإنسانية بجميع مظاهرها ـ لذلك، وهو المحلل في التاريخ، لم يكتف بقراءة الأخبار والروايات القديمة، والقصص الغير الموضوعية، بل أراد تاريخاً دقيقاً مبنياً على قواعد نظرية تحليلية. لم يرض أن يفسّر حوادث التاريخ تفسيراً أحديّ الجانب مهما كان ذلك مهماً. بل وسّع جوانب التاريخ غير مقتصر على ذكر الحوادث والأخبار والسياسة، بل تعدّى ذلك للتفكر بالأسباب والنتائج. حلّل النواحي الاقتصادية والجغرافية والاجتماعية فكتب عن الأمراض والزلازل والثورات الداخلية والمجاعات، ووصف الأسواق والضرائب وتطرق إلى العقائد الدينية المتطرّفة، وإلى أمور فكرية وثقافية متعددة استقى منها من جاء بعده من المؤرخين وكان ذلك تمهيداً لتفكير ابن خلدون في القرن الرابع عشر ميلادي(٥٨).

عاش ابن حيان حوالي تسعين سنة، عاصر عظمة الخلافة الأموية كما عاصر الأحداث الدامية التي أدت إلى سقوطها، وهذا أثّر على ما يبدو في حياته وكتاباته حيث نتلمس شيئاً من القسوة والمرارة وسلاطة اللسان(٥٩). هذه الحدة لم يستطع التخلي عنها مؤلفو هذه الفترة فعبّر عنها كل واحد منهم بطريقته.

●

الهوامش

(١) انظر في هذا المضمار: **رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها**، **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تح. إحسان عباس (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، والنشر، ١٩٨١)، ص ١٨٣ ــ ١٨٤؛ غ. بالنسيا، **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة حسين مؤنس (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥)؛ كارل بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة يعقوب كشل ورمضان عبد التواب (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧)، ٦: ١٠١ ــ ١٣٠. أيضاً:

R. Dozy, **Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne pendant le Moyen Age,** Vol. I (Leyde: 1849), Vol. II (Leyde: 1881); F. Pons Boigues, **Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo — espanoles** (Madrid: 1898); P. Ch. Gendron, «Historiografia medieval hispana-arabica», **Al-And,** 37 (1972), pp. 353-404; C. Pellat, «The Origin and Development of History in Muslim Spain», **Historians of the Middle East,** ed. B. Lewis & P. M. Holt (London: Oxford University Press, 1962), pp. 277-289.

(٢) ابن القوطية، **تاريخ فتح الأندلس** (مصر: مطبعة التوفيق لا. ت.)، ص ٣٠ ــ ٣١؛ انظر أيضاً:

R. Dozy, **Histoire de l'Afrique et de l'Espagne, Al Bayano'l Mogrib** par Ibn Adha'ri **et fragments de la chronique d'Arib** (Leyde: Imprimerie de l'universite, 1848-1851), p. 8.

(٣) R. Dozy, **Histoire de l'Afrique et de l'Espagne,** pp. 7-8.

(٤) ابن الأبار، **الحلة السيراء**، تح. حسين مؤنس، (القاهرة: الشركة العربية للطباعة، ١٩٦٣)، ١: ٢٧٤.

(٥) عن المالكية في الأندلس انظر:

E. Levi Provençal, **Histoire de l'Espagne Musulmane,** (Paris: G.P. Maisonneuve et Cie, 1953), 3:470-476.

(٦) انظر: ابن الفرضي، **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٥٤)، ١: ٣١٢ ــ ٣١٥؛ ابن عذارى المراكشي، **البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، تح: ج. س. كولان وليفي بروفنسال (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٧)، ٢: ٢، ٢٠، ١٧١؛ ابن خاقان، **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس** (القسطنطينية: مطبعة الجوانب، ١٣٠٢هـ)، ص ٣٦ ــ ٣٧؛

M. Makki, «Egipto y los origenes de la historiografia arabigo-espanola», **Instituto de estudios islamicos** (1957), 5:189-200.

(٧) الكتاب لا يزال مخطوطاً في مكتبة بودليان باوكسفورد رقم ١٢٧، أما القسم الأندلسي من الكتاب فقد نشره الدكتور محمود علي مكي في مجلة **معهد الدراسات الإسلامية** بمدريد:

(Instituto de estudios islamicos), pp. 221-243.

(٨) M. Makki, «Egipto y los origenes de la historiografia arabigo-espanola», pp. 221-243.

(٩) أول كتاب وصل إلينا عن تاريخ المغرب والأندلس كتبه المؤرخ المصري عبد الرحمن بن عبد الحكم وعنوانه **فتوح مصر والمغرب والأندلس**. عاش هذا المؤرخ في القرن الثالث هجري، التاسع ميلادي، وكتابه يعتبر من احسن ما كتب عن المغرب والأندلس وأبعدها عن الأساطير. وقد اهتم المستشرقون بنشر هذا الكتاب أمثال تشارلز توري (Charles Torrey) والبوت جاتو (A. Gateau) الذي نشر الجزء الخاص بفتح المغرب والأندلس

مـع ترجمة فرنسية بعنوان **Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne** وعن كتاب ابن عبد الحكم المصري أخذ الكثير من الأندلسيين فيما بعد أمثال ابن الفرضي في **تاريـخ علماء الأندلس**، وابن خير في **فهرسته** والحميدي في **جذوة المقتبس** وغيرهم.

وعن فترة التأثر بالمؤرخين المصريين أنظر: غونزاليس بالنسيا، **تاريـخ الفكر الأندلسي**، ١٩٥ ــ ١٩٦؛
M. Makki, «Egipto y los origenes de la historiografia arabigo-espanola», pp. 153-209.

(١٠) ابن حيان القرطبـي، **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، تـح: محمود مكي (بيروت: دار الكتاب العربـي، ١٩٧٣)، ص ٢٦٩.

(١١) أنظر: Pons Boigues, **Ensayo**, pp. 145-154. وعن كتبه التي صنفها أنظر: **رسالة في فضل الأندلس**، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، ٢:١٣٨.

وعن الرازي أيضاً:
R. Dozy, **Histoire de l'Afrique et de l'Espagne**, pp. 8-13; E. Levi Provencal, **Histoire de l'Espagne, 3:501-506.**

(١٢) غ. بالنسيا، **تاريـخ الفكر الأندلسي**، ص ١٩٧ ــ ١٩٨؛
R. Dozy, **Histoire de l'Afrique et de l'Espagne**, p. 14.

(١٣) هنالك شرح واف عن طبقات المجتمـع الأندلسي في:
E. Levi Provençal, **Histoire de l'Espagne**, 3:163-232.

(١٤) رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تـح: إحسان عباس، ٢:١٨٣ ــ ١٨٤.

(١٥) ابن الفرضي، **تاريـخ العلماء**، ٢:٧٨ ــ ٧٩؛ ابن خاقان، **مطمـح الأنفس**، ص ٥٦.

(١٦) ابن القوطية، **تاريـخ افتتاح الأندلس**، ص ٢٨ ــ ٣٤.

(١٧) أنظر: R. Dozy, **Histoire de l'Afrique et de l'Espagne**, pp. 10-12.

(١٨) أنظر: غ. بالنسيا، **تاريـخ الفكر الأندلسي**، ص ١٩٩ ــ ٢٠٢؛
R. Dozy, **Histoire de l'Afrique et de l'Espagne**, pp. 14-17.

(١٩) أنظر التحليل في: R. Dozy, **Histoire de l'Afrique et de l'Espagne**, pp. 61-63.

كذلك عن عريب بن سعد كمؤرخ وكاتب:
Dozy, **Histoire de l'Afrique et de l'Espagne**, pp. 37-63.

(٢٠) ابن حيان القرطبـي، **المقتبس في تاريـخ رجال الأندلس**، تـح: ملشور أنطونية (باريس: ١٩٣٧)، ص ٤١.

(٢١) F. Rosenthal, **A History of Muslim Historiography** (Leiden: Brill, 1968), pp. 92, 101.

(٢٢) **رسالة في مراتب العلوم**، **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تـح: إحسان عباس، ٢:١٧٩ ــ ١٨٠، أيضـاً: ابن عبد البر، **القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم** (القـاهرة: مكتبـة القدس، ١٣٥٠هـ)؛ غ. بالنسيا، **تاريـخ الفكر الأندلسي**، ص ٢٧٦ ــ ٢٨١؛
H.A.R. Gibb, «Tarikh» **Studies in the Civilization of Islam** (Boston: Beacon Press, 1968), pp. 122-124.

(٢٣) أنظر ترجمته في ابن الفرضي، **تاريـخ العلماء**، ٢:١١٤ ــ ١١٥؛ الضبـي، **بغية الملتمس في تاريـخ رجال الأندلس** (القاهرة: دار الكتاب العربـي، ١٩٦٧)، ص ٣٣٧.

(٢٤) أنظر: الضبـي، **بغية الملتمس**، ص ٣٣٤ ــ ٣٣٦؛ غ. بالنسيا، **تاريـخ الأدب الأندلسي**، ص ٢٧٠ ــ ٢٧٣.

(٢٥) ابن الفرضي، **تاريـخ العلماء**، ١:٩.

(٢٦) المصدر السابق عينه.

(٢٧) وتقسيم الأمم السالفة إلى أربعة يعود إلى الإغريق. أنظر:
T. Khalidi, **Islamic Historiography** (Albany: State University of New York Press, 1975), p. 90 and note 2.

(٢٨) أنظر: T. Khalidi, **Islamic Historiography**, p. 90

(٢٩) يبدأ اليعقوبـي في **تاريـخ**، ج: ١ ــ بالتكلّم عن آدم وحواء ونوح وإبراهيم وإسحق حتى يصل إلى أنبياء إسرائيل، ينتقل بعدها إلى المسيـح وملوك السريان ثم ملوك الموصل ونينوى وبابل والهند واليونان وملوك البربر حتى يصل إلى العرب وأسواقها.

(٣٠) البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، تـح: أ. سافو (ليبزيـغ: ١٨٧٨).

(٣١) F. Rosenthal, **A History of Muslim Historiograpny**, p. 137.

(٣٢) وتقسيم الأمم إلى سبعة لم يكن معروفاً في التاريـخ الإسلامي قبل المسعودي. أنظر:
T. Khalidi, **Islamic Historiography**, p. 90 and note 2.

وفي مفهوم الأمة أنظر ناصيف نصار، **مفهوم الأمة بين الدين والتاريـخ** (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٨).

(٣٣) المسعودي، **التنبيه والإشراف** (ليدن: ١٨٩٤)، ص ٧٧.

(٣٤) أنظر المقدمة في ابن جلجل، **طبقات الأطباء والحكماء**، تـح: فؤاد السيد (القاهرة: مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥).

(٣٥) أنظر أوروسيوس، **تاريخ العالم**، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٢). وهو تحقيق للترجمة العربية لأوروسيوس التي كانت متداولة منذ منتصف القرن الرابع الهجري، العاشر ميلادي.

(٣٦) للتفصيل أنظر مقدمة فؤاد السيد في ابن جلجل، **طبقات الأطباء**.

(٣٧) ابن جلجل، **طبقات الأطباء**، ص ٤.

(٣٨) ابن جلجل، **طبقات الأطباء**، ص ١.

(٣٩) يذكره بأنه «تاريخ للروم عجيب فيه أخبار الدهور وقصص الملوك الأول وفوائد عظيمة»، ص ٢.

(٤٠) هو سفرونيوس يوسيبوس إيروينموس الترجمان ــ كان قديساً مسيحياً وشيخ المتكلّمين وأحد علماء الكنيسة اللاتينية في عصره. ولد بين ٣٤٠ و ٣٥٠ ميلادية في ستريدون Stridon (دلماسيا)، وتوفي في بيت لحم سنة ٤٢٠ ميلادية واشتهر باسم القديس إيرونيم St. Jerome. أما لقب ترجمان فلأنه اشتهر بالترجمة خاصة ترجمة «الكتاب المقدس» الشهير بـ Vulgate، إلى اللاتينية، وكتاب قراونقة (Chronica) ترجمه من اليونانية إلى اللاتينية عن يوسيفوس Eusebius القيسراني، أسقف قيسارية، وزاد فيه كثيراً فأصبح المرجع الرئيسي للأحداث التاريخية القديمة. عنه أنظر: تواريخ الكنيسة المعروفة كتاريخ:
A. Fliche & V. Martin, **Histoire de l'Eglise** (Bloud & Gay, 1945), 3:415-417.

(٤١) ابن جلجل، **طبقات الأطباء**، ص ٥٣.

(٤٢) P. Ch. Çendron, «Historiografia medieval hispana-arabica», pp. 353-404; F. Rosenthal, **Technique and Approach of Muslim Scholarship** (Roma: Pontificium Institutum Biblicum, 1947), pp. 69-71.

(٤٣) ابن جلجل، **طبقات الأطباء**، ص ٧٨.

(٤٤) أنظر مقدمة فؤاد السيد في ابن جلجل، **طبقات الأطباء**.

(٤٥) ابن جلجل، **طبقات الأطباء**، ص ١١٦.

(٤٦) واسمه علي بن أحمد بن سعيد بن حزم.أنظر: غ. بالنسيا، **تاريخ الأدب الأندلسي**، ص ٢١٣ ــ ٢٣٩؛ أيضاً: **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تح: إحسان عباس، ٣ أجزاء حيث يجد الباحث تحقيقاً لرسائل ابن حزم وتحليلاً لكتاباته ونظرياته الفلسفية والتاريخية والأدبية.

(٤٧) هنالك دراسات عديدة عن حياة وفكر ابن حزم جاء ذكر اسمائها في **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تح: إحسان عباس ١:٤٨.

(٤٨) ابن حزم، **رسالة في مراتب العلوم**، تح: إحسان عباس (القاهرة: ١٩٥٤)، ص ٧٨.

(٤٩) أنظر: **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تح: إحسان عباس، ٢:٥١٠ وحاشية نمرة ٣.

(٥٠) ابن حزم، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، (القاهرة: المطبعة الأدبية، ١٣١٧ ــ ١٣٢١هـ)، ١:١٧٥.

(٥١) **رسائل ابن حزم**، تح: إحسان عباس، ٢:١٢، ١٣.

(٥٢) أنظر: ابن بشكوال، **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ومحدثيهم وفقائهم وأدبائهم**، تح: عزت العطار الحسيني (القاهرة: ١٩٥٥)، ١:١٥٠؛ ابن بسام، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تح: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٩)، ١/٢، ٥٧٣؛ مقدمة محمود مكي في **المقتبس** (دار الكتاب العربي، ١٩٧٣)، ص ٨ ــ ١٥٣؛ غ. بالنسيا، **تاريخ الفكر الأندلسي**، ص ٢٠٨ ــ ٢١١؛
P. Ch. Gendron, «Historiografia medieval hispona-arabica», pp. 353-404.

(٥٣) ابن بسام، **الذخيرة**، ٣/١: ١٨٠ ــ ١٨١.

(٥٤) ابن بسام، **الذخيرة**، ١/٢، ٥٧٥.

(٥٥) ابن بسام، **الذخيرة**، ١/٢، ٥٧٥.

(٥٦) ابن بسام، **الذخيرة**، ١/٢، ٥٧٦.

(٥٧) ابن بسام، **الذخيرة**، ١/٢، ٥٧٥.

(٥٨) أنظر: P. Ch. Gendron, «Historiografia medieval hispana-arbica», p. 384;
أيضاً ابن بسام، **الذخيرة**، ١/٢، ٥٧٨.

(٥٩) ابن بسام، **الذخيرة**، ١/٢، ٥٧٤؛ أيضاً: **المقتبس**، تح: أنطونية، ص ٤١؛ **رسائل ابن حزم**، تح: إحسان عباس، ٢:٢٩.



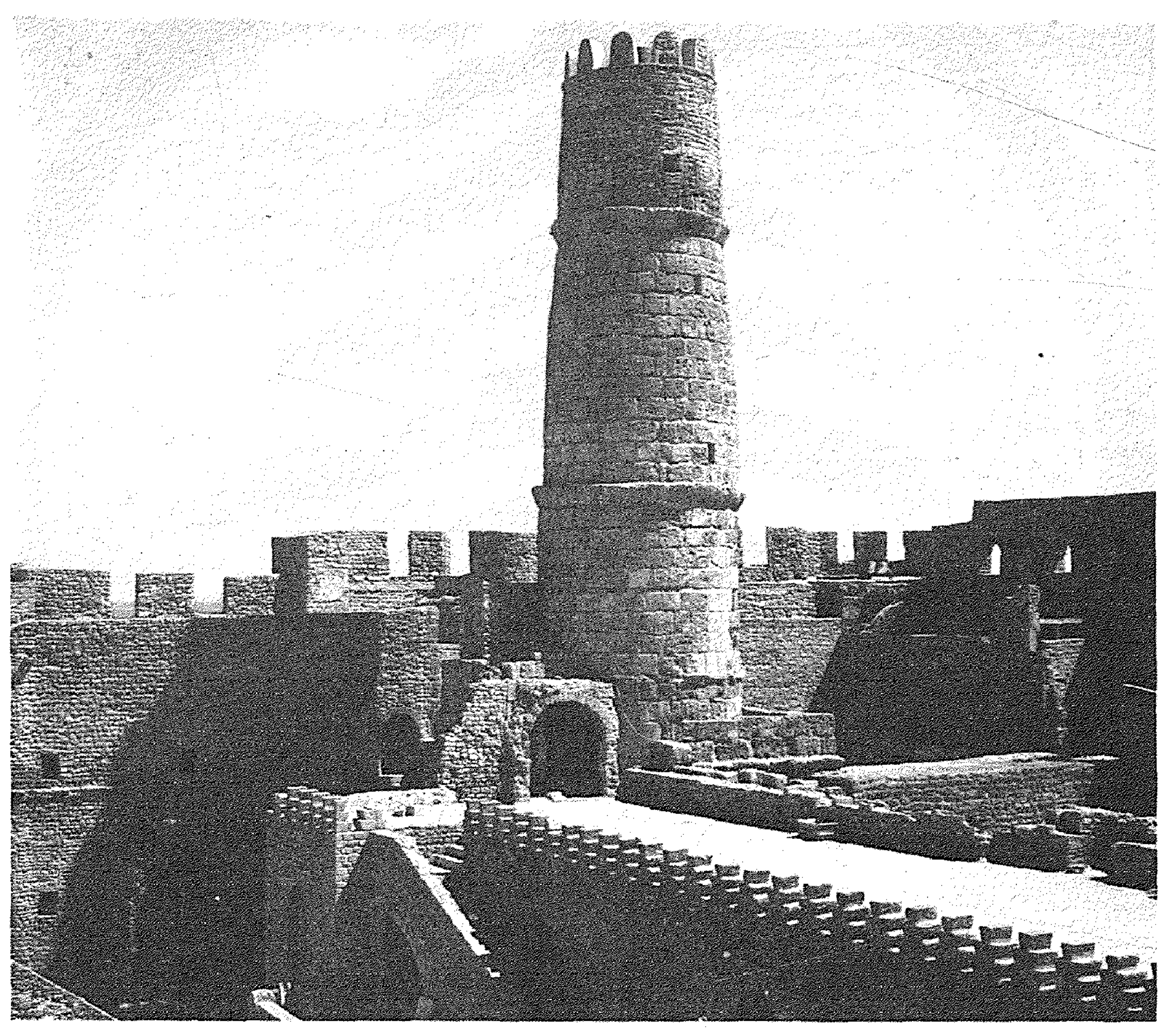
موطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا

MEA

نيويورك
لندن
باريس
كوبنهاغن
فرانكفورت
بروكسل
جنيف
مدريد
زوريخ
تونس
نيس
مونروفيا
ميلانو
ابيدجان
روما
لاغوس
اثينا
كانو
اسطنبول
بيروت
القاهرة
لرنكا
انقرة
عمان
بغداد
جدة
الخرطوم
عدن
الكويت
الظهران
البحرين
الدوحة
دبي
أبوظبي
رأس الخيمة
مسقط

روائع
الآثار الإسلامية
في جمهورية الجزائر

بقلم الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم



□ حصن «رباط» على شاطىء شمالي افريقيا، حيث كان حكام دولة بني زيري يدفنون موتاهم. (١٠٥٧ ــ ١١٤٨م)

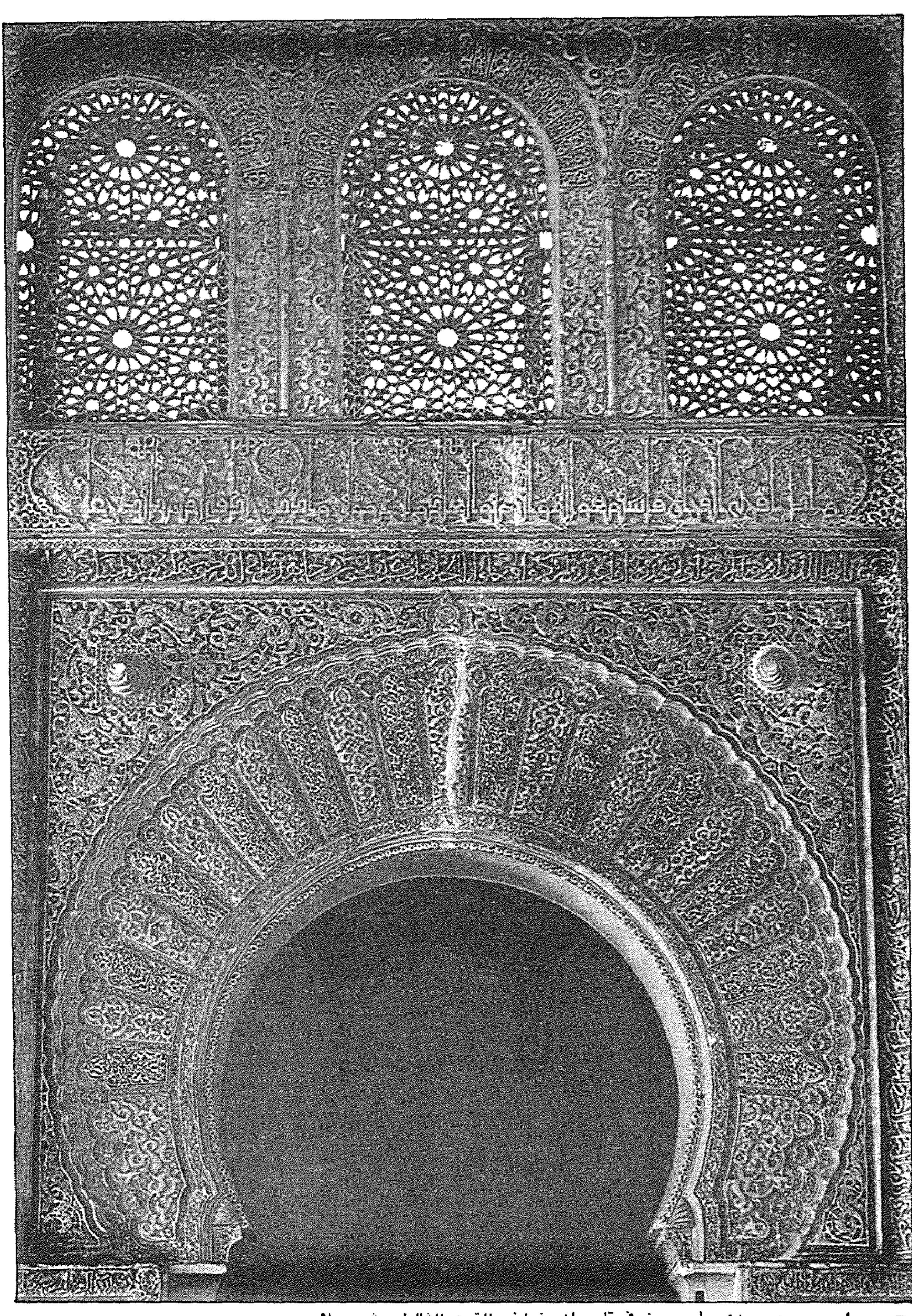
لم يكن لدولة الجزائر اسم تتميز به حتى طليعة القرن التاسع عشر. إذ أن اسم الجزائر الذي عرفت به قد ابتكرته القوات الفرنسية عام ١٨٣٠ وأطلقته عليها وزارة الحربية الفرنسية من باريس في ١٤ من أكتوبر سنة ١٨٣٩.

وكانت بلاد الجزائر تؤلف منذ أقدم العصور مع تونس والمغرب الأقصى وحدة جغرافية وإثنولوجية. فلقد كانت تربطها بهذه البلاد روابط طبيعية وسياسية وثيقة، كما كان يسكنها منذ عصور ما قبل التاريخ عنصر واحد من السكان هم البربر.

وتمّ فتح العرب لبلاد المغرب بعد محاولات طويلة استغرقت نحواً من سبعين سنة. وانتشر الإسلام تدريجياً بين أمة البربر. وما لبثت أن تقبلت هذا الدين في حماس منقطع النظير وأخلصت له عن إيمان راسخ، وأصبحت للعرب قوة صادقة اعتمدوا عليها بعد ذلك في فتح شبه جزيرة أيبيريا، وظلت دعامة قوية استند عليها الإسلام في الأندلس في الصراع الذي انتهى بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢.

وأطلق العرب على بلاد الجزائر منذ القرن التاسع الميلادي اسم «المغرب الأوسط» تمييزاً له عن المغرب الأدنى (بلاد تونس) والمغرب الأقصى (مراكش). وشهد المغرب الإسلامي منذ ذلك العهد البعيد انقساماً جغرافياً ثلاثياً. وتألفت فيه ثلاث ولايات في آن واحد: ففي المغرب الأقصى قامت دولة الأدارسة ١٧٢ ــ ٣٦٣هـ (٧٨٨ ــ ٩٧٤م) وفي المغرب الأوسط، وهو الجزائر، قامت دولة الرستميين ١٤٤ ــ ٢٩٦هـ (٧٦١ ــ ٩٠٩م) واستقلت بالمغرب الأدنى دولة الأغالبة ١٨٤ ــ ٢٩٦هـ (٨٠٠ ــ ٩٠٩م).

أما الرستميون فقد كانوا من الخوارج الإباضية المعارضين للدولة الأموية. وشيد عبد الرحمن بن رستم الفارسي مؤسس هذه الدولة، مدينة تاهرت في إقليم وهران واتخذها عاصمة لدولته، ودامت هذه الدولة قرابة قرن ونصف قرن من الزمان، ثم سقطت على أيدي الفاطميين الذين أعادوا المغرب إلى سابق وحدته. وفي سنة ١٠٥٠م. شق المغرب عصا الطاعة على الفاطميين وانقسم إلى ولايتين صنهاجيتين: شرقية وغربية. فقامت في المغرب الأدنى دولة بني زيري وكان مقرّها القيروان والمهدية، وقامت في المغرب الأوسط دولة بني حماد واتخذوا «قلعة بني حماد» مقرًا لهم. فأراد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله أن ينتقم منهم فأرسل إلى بلادهم بعض الأعراب النهّابة الذين كانوا يستوطنون صعيد مصر، فعاثوا فيها فساداً وعزلوا القيروان عن سائر المدن، ولحق الخراب بدولة بني حماد فهجروا قلعتهم لمصيرها التعس واستقرُّوا في بِجّاية، واستحكمت الفوضى بهذه البلاد حتى استولى المرابطون في أواخر القرن الحادي عشر على غربي المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر. ولما قامت دولة الموحّدين، أخضع خليفتهم عبد المؤمن بن علي المغرب الأوسط لسلطانه سنة ٥٤٧هـ (١١٥٢م)، واستولى على وهران وتلمسان ثم دخل بجاية واستولى على قلعة بني حماد، معقلهم الأعظم وحرزهم الأمنع، وهكذا ضاع استقلال هذه البلاد في عهد الموحدين. ثم عاد التقسيم الثلاثي لبلاد المغرب مرة أخرى بعد سقوط دولة الموحدين سنة ١٢٦٩م، إذ قامت على أنقاضها ثلاث دويلات، فتألفت في المغرب الأدنى دولة بني حفص وفي المغرب الأقصى دولة بني مرين وقامت في المغرب الأوسط دولة بني عبد الواد (بني زيان). وقد تم قيام هذه الدولة الأخيرة بموافقة الموحدين أنفسهم إذ وضع رؤساء قبائل بني عبد الواد أنفسهم في خدمة الموحدين وساهموا مساهمة فعالة في الدفاع عن منطقة وهران. وتلقّوا الامتيازات نظير ذلك، إذ عيّن خليفة الموحدين زعيماً منهم حاكماً على تِلِمْسان وبلاد زناتة عام ١٢٢٧م، واستقل هذا الحاكم بالبلاد بعد أربعين عاماً تقريباً عقب سقوط دولة الموحدين واتخذ تلمسان مقرًا له. والواقع أن استقلال بني عبد الواد بالمغرب الأوسط لم يكن كاملاً من جميع الوجوه، وكان لموقع الجزائر أثره في التنبؤ بمصيرهم، فلقد



□ محراب مسجد سيدي بل حسن في تلمسان. أواخر القرن الثالث عشر ميلادي.

كان الأعراب المهاجرون يسيطرون على وديان الساحل الشمالي للجزائر ويفرضون الإتاوات على سكانه، ولم تكن حكومة الجزائر بالقوة التي تمكنها من إخضاعهم في الوقت الذي كان خطر جيرانها من الشرق والغرب يهدد استقلالها، فمن الشرق كان بنو حفص بتونس يزعمون أنهم ورثة الموحدين وأن لهم الحق في فرض سيطرتهم على المغرب الأوسط؛ ومن الغرب أخذ بنو مرين يترقبون الفرصة المواتية للتدخل في المغرب الأوسط وضمه إلى حوزتهم، وقدمت جيوش بني مرين وعسكرت أمام أسوار تِلِمْسان الحصينة محاولة حصارها، وطال أمد الحصار فأسست مدينة حربية كبيرة تجاه تلمسان سميت بالمنصورة لتكون مركزاً لعملياتها الحربية. واستمرت جيوش بني مرين تحاصر تلمسان حتى سقطت هذه الحاضرة في ١٣٣٧، وظلت أحد عشر عاماً مركزاً لحكومة مرينية، وأخذ يحكم المغرب الأوسط أمراء من تلمسان خاضعين لحكومة فاس، وكان نصيب من تجرَّأ منهم على الخروج عن طاعة بني مرين العزل.

وازدهرت تِلِمْسان في عهدهم بالرغم من هذه العواصف والأنواء، وكان لمياهها الجارية فضل كبير في حياطتها بالجنان والبساتين مستعيدة بذلك مجدها القديم ثم بدأ عهد من الاضطراب والفوضى منذ القرن الخامس عشر هيأ المجال لدخول عناصر جديدة على المسرح فقد تفككت دولة الجزائر. وألّفت مدن الساحل جمهوريات مستقلة أخذت تسلم نفسها شيئاً فشيئاً لقراصنة البحار وكانت حركة الاسترداد الإسباني بالأندلس وقتئذ على أشدها، فدفعت غارات القراصنة المسلمين على سواحل إسبانيا الشرقية الإسبان إلى الاستيلاء على بعض المدن الساحلية بالجزائر، فاستولو على وهران، ثم سقطت بجاية في أيديهم سنة ١٥١٠ وعاشت مدينة الجزائر الحصينة تحت تهديد المدافع الاسبانية التي كانت تصيبها من قلعة بنيون المشيدة في جزيرة مجاورة للساحل، فاحتمى أهل الجزائر وراء أحد القراصنة الأتراك ،ويعرف باسم «عروج» ولكنه استبدَّ بالمدينة وقمع كل محاولة قام بها السكان للتحرر من استبداده، وخضعت المدينة بعد مقتله أمام تلمسان في سنة ١٥١٨ لأخيه أمير البحر خير الدين المعروف باسم بربروسة، واستطاع خير الدين هذا أن يستولي على بنيون سنة ١٥٢٩ ويخلص مدينة الجزائر من الخطر الاسباني، ولكنه يعدُّ مسؤولاً أمام التاريخ عن استيلاء الأتراك على الجزائر إذ قدم مدينة الجزائر هدية لسلطان القسطنطينية، وبالتدريج أصبح المغرب الأوسط ولاية تركية.

ظلت الجزائر في العصر التركي مركزاً للقرصنة التي أصبحت صناعة لكل فرد، وأضفى عليها طرد المسلمين من إسبانيا مسحة من القومية والجهاد مما زاد من إغارات القراصنة المسلمين على سواحل اسبانيا وشلّ خطوط الملاحة التجارية للدول المسيحية، وغنمت الجزائر من وراء ذلك غنائم كثيرة. وكان بقاء مدينة الجزائر على هذا النحو مركزاً للقرصنة في نظر الدول الأوروبية خطراً يهدد سلامتها فعمدت إلى مهاجمة الجزائر بجميع الطرق. واستغلت فرنسا الامتيازات التي منحها لها الباب العالي فجعلت لها قنصلاً يحمي مصالحها بالجزائر، كما نجحت القوى العظمى في الدفاع عن مصالحها عن طريق الهبات تقدمها إلى الداي وأعوانه، وأدَّى ذلك إلى اضمحلال القرصنة في القرن الثامن عشر. ثم بدأ عهد خطير في تاريخ الجزائر، إذ حدث في أبريل سنة ١٨٢٧ أن أهان الداي حسين حاكم الجزائر قنصل فرنسا فاتخذت فرنسا من ذلك ذريعة للتدخل العسكري المسلح، ولم تقوَ مدينة الجزائر التي طالما هزت دول المسيحية بقراصنتها على مقاومة الجيش الفرنسي في يوليو سنة ١٨٣٠، فاحتلها الفرنسيون، وانتهى أمر المدن الجزائرية الأخرى إلى التسليم.

وهكذا بدأ الاستعمار الفرنسي ينشب أظفاره في أرض الجزائر الحرة.

وتزخر الجزائر بتراث هائل من الآثار الإسلامية الجليلة من مختلف العهود وكلها آثار تسجل ما مرَّ بها من أحداث. وأقدم هذه الآثار ما يرجع إلى دولة الرستميين الذين اتخذوا من تاهرت عاصمة لهم. وقد تبقى بهذه العاصمة آثار قصبتها[1] التي يذكرنا بناؤها بالقصور الأموية التي شيّدها خلفاء بني أمية في بادية الشام مما لا يدع مجالاً للشك في أن الرستميين تأثروا بالتقاليد المعمارية السورية.

وسور هذه القصبة مستطيل الشكل له موقع استراتيجي رائع يسيطر على المدينة وما يحوطها من مروج، ويسبق سورها في الجانب الشمالي الشرقي سور أمامي صغير. وفي الداخل فناء فسيح يشغل الجزء الأعظم من القصبة. وتلتصق بجدرانها من الداخل غرف مختلفة الاتساع.

ولما سقطت دولة الرستميين على أيدي الفاطميين لم تنقرض سلالتهم من الجزائر، بل هاجرت فلولهم إلى الشرق وأوغلت في الصحراء واستقرت في واحة «ورجلة» وظلت هناك حتى إذا ما داهمتها جيوش المرابطين هاجرت من مقرها إلى «مزاب» وهي منطقة صحراوية، وما لبثت بقايا الرستميين أن حفرت الآبار في هذه البقاع الجدباء وعمرتها وجعلت من هذه الأماكن واحات خصبة سميت فيما بعد باسم «سبع مدن».

وتبقت من آثارهم بقايا معمارية في واحة صغيرة تعرف باسم سدراته تقع على بعد ٦٠٠ كيلومتر جنوب شرقي مدينة الجزائر، و ١٤ كيلومتراً جنوبي ورجلة.

وقد أسفرت الحفائر التي أجراها علماء الآثار الفرنسيون أمثال تاري وفوشيه والآنسة مرجريت فان برشام عن كشف آثار بناء يعتقد أنه مسجد، ويعتقد تاري أن بيت صلاة هذا المسجد كانت تعلوه قباب بيضاوية الشكل ملتصق بعضها ببعض، وأنه كان يشتمل على ثلاثة صفوف من الدعائم الاسطوانية. وكان أحد جدرانه مزيناً بطاقات حفرت فيها جوفات مقوسة تعلوها أنصاف قباب مسطحة، إحداها مزين بضلوع بارزة كالفصوص وتشبه إلى حد كبير جوفات قصر الأخيضر بالعراق أو طاقات كنيسة طيسفون بإيران، مما يدل على مدى تأثر فن الرستميين بالفن العراقي الفارسي. كذلك أسفرت الحفريات الأثرية عن كشف بقايا دُور كانت مزينة بزخارف جصية رائعة تشبه زخارف سامراء بالعراق، وقوامها العناصر الهندسية التي تتألف من مربعات وجامات مستديرة وفصوص والعناصر النباتية التي تقوم على الفروع المموجة التي تتوزع فيما بينها التوريقات.

* * *

أما بنو حماد الذين أعلنوا استقلال الجزائر عن الفاطميين، فقد استقروا في قلعتهم التي بناها جدُّهم حماد في موقع غاية في المناعة، وكانت تقوم على هضبة مرتفعة، جوانبها شديدة الانحدار. أما أسوارها فكانت تتوج حواف هذه الهضبة وتتكىء على القمم السامقة التي كانت تقوم مقام حصن طبيعي لها. وقد ازدهرت قلعة بني حماد وأصبحت في عهدهم مركزاً تجارياً وعلمياً ممتازاً يفد إليه التجار والطلاب من جميع بلاد المغرب، فأقيمت بها القصور في عهد المنصور بن الناصر. ومع ذلك فقد كان لبني حماد منذ عهد الناصر حتى عهد باديس بن المنصور أي طيلة سبع وثلاثين سنة عاصمة ثانية هي بجاية. وكان يربطها بالقلعة طريق ملكي ذكره الشريف الإدريسي في كتابه «نزهة المشتاق» فلما أغار عرب بني هلال وغيرهم على قلعة بني حماد ونثروا فيها بذور الدمار انتقل بنو حماد إلى بجاية عاصمتهم الثانية، واستقروا فيها وسمَّوها بالناصرية نسبة للأمير الناصر بن حماد الذي عمرها بمنشآته وأمهرها بقصوره وجنانه. وظلت بجاية عاصمة بني حماد حتى منتصف القرن الثاني عشر.

وتبقى من قلعة بني حماد آثار مسجدها الجامع الذي أقامه مؤسس القلعة في طليعة القرن الحادي عشر. وآثار هذا المسجد لا تعدو بقايا المئذنة التي ترتفع اليوم إلى نحو ٢٥ متراً، ولقد أجرى الأستاذ بلانشيه وجنرال دي بيلييه في أرض هذا المسجد حفائر أثرية أتاحت لنا معرفة تخطيطه القديم. وكان يشغل مستطيلاً طوله ٦٤ متراً وعرضه ٥٦ متراً، وكانت بيت صلاته يضم ثلاث عشرة بلاطة تتجه كلها عمودية على جدار القبلة على النحو الذي نراه في مساجد الأندلس. أما المئذنة التي ما تزال قائمة حتى وقتنا هذا فكانت تتكىء من الداخل على الجدار الشمالي للمسجد وهو الجدار المواجه لجدار المحراب، كما كانت تقع في محور المسجد. وقد فقدت هذه المئذنة رأسها العلوي وأجزاء من جدران شرفتها. وتكسو وجهها المقابل للمحراب تجويفات وطاقات تتوزع طولياً على ثلاث مناطق كما هو الشأن في مئذنة المسجد الجامع بإشبيلية المعروفة بالجيرالدا ويعلو هذه الطاقات عقود تتناوب فيها فصوص مستديرة



□ البوابة المؤدية الى مسجد المنصورة المدنية الحربية التي بناها بنو مرين اثناء حصارهم لتلمسان

الراس مـع فصوص مدببة الرأس بحيث تشبه عقود ضريـح السيدة أم كلثوم بالقاهرة ويرجـع إلى سنوات ١١٢٦ ــ ١١٥٥م.

أما قصور قلعة بني حماد فقد خربت كلها وأصبحت أثراً بعد عين، ولم يبق منها سوى بقايا يسيرة من قصر المنار، وكان يقـع شرقي المدينة عـلى حافـة الهضبة التي تشـرف على الوادي العميق الذي يشقه نهر «وادي فرج». وقد أجرى الجنرال دي بيليه سنة ١٩٠٨ حفائر أثرية في مواضـع هذه القصـور أسفرت عن كشف بـعض الأسس لجـدران قصر البحـر الحمادي. وكان موقعه وسط المدينة. ويتألف دار البحر الحمادي، من منار مربـع الشكل زينت جدرانه من الخـارج بتجويفـات طولية نصف أسطوانية تنتهي من أعلاها بـأنصاف قبـاب بداخلها ثلاثة صفوف من الحفر المضلعة التي تشبه خلايا النحل، وتعتبر هذه الحفر أساساً للمقرنصات. وتتناوب هذه التجاويف الطولية مـع ركائز قوية تكسب البناء مظهر الحصون.

ومن آثار بني حماد الحربية بقايا باب تحتفظ به قلعتهم، ومدخل هذا الباب مُنْحَنٍ على شكل مرفق ويعرف بباب الأقواس.

وأروع آثار الجزائر يرجـع إلى عهد المرابطين الذين ضموا إلى دولتهم الجزء الغـربـي من المغرب الأوسط حتى مدينة الجـزائر. ويـذكر المؤرخون أن الأمير يوسف بن ناشفين مؤسس دولة المرابطين كان مولعاً ببناء المساجد، فقد شيد بفاس عدداً كبيراً من المساجد، ويذكر ابن أبـي زرع أنه كان إذا وجد حارة لا يقوم فيها مسجـد انتقد أهلهـا. وقد سجّـل المرابـطون وجودهم في المغرب الأوسط بأبنية ومؤسسات دينية وحربية ومدنية غاية في الروعة والبهاء، مما يثبت أن عصر المرابطين كان بحق عصر ازدهار في الآداب والفنـون عـلى عكس مـا ذهب إليـه المستشـرق الهـولنـدي دوزي والمستشـرقـان الإسبانيان كوديرة وغرسيه جومث. وقد أثبتت الحقـائق التاريخيـة والأثريـة أن يوسف ابن تاشفين وابنه عليّاً بالذات وقفا موقفاً مشـرّفاً حيال الفن، وأنّهما أتاحا الفرصة لتطعيم الفن المغربـي بعناصر أندلسية وأنهما لم يترددا قط في توثيق العلاقات الفنية بين المغرب والأندلس. وإذا كان يوسف بن تاشفين الذي أنقذ الأندلس من

خطر الاسترداد المسيحي في موقعة الزلاقة قد انتقد ملوك الطوائف بالأندلس لانغماسهم في الترف واستنامتهم لمظاهر الرقة وملذات الحياة فإنه ما لبث أن جارى هو هذه الحياة. وبعث ابنه علياً إلى الأندلس ليتذوق حياة الترف هذه. ويذكر المؤرخون أن يوسف بن تاشفين استقدم إلى المغرب كثيراً من عرفاء قرطبة ومهندسيهم لإقامة المنشآت بحاضرته فاس، كما أقام في عهده عدد كبير من أهل الأندلس في مدينة سبتة واستقروا لها. وقدم عدد هائل منهم إلى حي الأندلسيين بمدينة فاس. وتأثر ذلك فن المرابطين في المغرب بالفن الأندلسي الذي كان قد بلغ ذروة تطوره، وتطعَّم بفنون الأندلس المزدهرة مما تشهد به آثارهم الرائعة.

وعمد علي بن يوسف بن تاشفين إلى نزع جفوة البدو وغلظة البربر عن نفسه، وشجع الفنون والعمارة وأقام المنشآت المعمارية في كل مكان حل فيه المرابطون وحاط نفسه بالشعراء والعلماء فنبغ في عهده شعراء فطاحل أمثال ابن قزمان وأعمى تطيلة وابن زهر.

وهكذا شهد الجزء الغربي من المغرب الأوسط عصراً من الازدهار الفني لم يشهده من قبل. واهتم المرابطون بالأبنية الدينية اهتماماً بالغاً، ومع ذلك لم يقصروا في بناء القصور والحصون. ولقد شيد يوسف بن تاشفين عام ١٠٨٢ مدينة حربية جديدة بعد استيلائه على أجادير وسماها تاجرارت وتعنى بالبربرية القاعدة الحربية، وأقام فيها مسجده الجامع، وهي مدينة تلمسان الجديدة نفسها، أسسها يوسف غربي أجادير أو تلمسان القديمة، وأقام بها القصر القديم (القصر البالي) بالقرب من المسجد الجامع. وحاط تاجرارت بالأسوار وفتح فيها الأبواب الكبيرة التي تبقى منها باب القرمدين، وتتجلى روعة فن المرابطين فيما تخلف من عهدهم من آثار مساجد مدينة الجزائر وندرومة وتلمسان. وتشف عمارة المسجدين الأولين عن بساطة في الزخرفة، وتنطق بما كان يتسم به هذا الفن في بداية عصر المرابطين من غلظة وخشونة على حين يمثل المسجد الجامع بتلمسان مدى ما وصل إليه فن المرابطين بعد اتصالهم بالأندلس وتأثرهم بمظاهر الرقة والثراء الزخرفي التي كانت تزخر بها آثار ملوك الطوائف في سرقسطة وإشبيلية ومالقة والمرية. ويغلب على الظن أن يوسف بن تاشفين هو الذي أقام هذا المسجد عام ١٠٨٢ عند بنائه لمدينة تاجرارت. وتم بناء هذا المسجد سنة ١١٣٦ (٥٣٠هـ) في عهد الأمير علي بن يوسف. ولما كان عليّ هذا متأثراً بمظاهر الرقة التي نشأ عليها في اسبانيا وخاصة أن أمه كانت من سبايا المسيحيين، فقد ظهر ذلك في إضافته لمسجد أبيه بتلمسان. وتتميز أعمال عليّ المعمارية في هذا المسجد بالسُقُف الأفقية التي تعلوها أسطح منشورية الشكل وهي سُقف تتألف من ألواح خشبية مسطحة مسمرة في جوائز طولية مربعة، ترتكز أطرافها على ركائن حشدت فيها الزخرفة النباتية التي تشبه نظائرها في كنيس سانتا ماريا لابلانكا بطليطلة وفي ركائن مسجد أحمد بن طولون بالقاهرة. وتقطع أفقية هذه السُقف المسطحة قبتان من أروع ما أبدعه فن العمارة في بلاد المغرب. ونظام وضع هاتين القبتين يعد تقليداً مباشراً لقباب جامع قرطبة، كما أن نظام بناء قبة المحراب في جامع تلمسان من الضلوع المتقاطعة يشف عن تطور في نظام البناء لقباب قرطبة مما يدل على أن بناء هذا المسجد أندلسي الأصل بل قرطبي. ويثبت ذلك أيضاً أنه قلّد جامع قرطبة، بخلاف ما سبق ذكره، في عقد المحراب وطرزه المستطيلة التي تحتشد فيها الطرز الكتابية وصفوف التوريقات، وغيرها. وتربط ضلوع قبة المحراب حشوات جصة بها زخارف نباتية من التوريقات المخرمة التي ينفذ منها الضوء، ويشغل الفراغ المتخلف من تقاطع ضلوع القبة قبيبة صغيرة من المقرنصات تُعدّ أول مثال لقباب المقرنصات في بلاد المغرب والأندلس.

وهكذا أبدع فنانو المرابطين في زخرفة محراب هذا المسجد وكسوه ثوباً قشيباً من الزخرفة النباتية الثرية التي تشف عن مدى التفاعل الذي حدث في عهد علي بن يوسف بين زخرفة المرابطين البسيطة والزخرفة الأندلسية الكثيفة التي تتمثل بأروع صورة في المسجد الجامع بقرطبة.

ولم يكن الموحدون بأقل اهتماماً بالفنون من

المرابطين، فقد أعاد الخليفة عبد المؤمن بناء أسوار تلمسان التي كان قد هدمها عقب استيلائه عليها وشيد عماله فيها القصور وحاطوها بالقصاب العالية، كما جدد السيد أبو عمران موسى حفيد عبد المؤمن أسوار المدينة ١١٧٠ ــ ١١٨٤.

وتألقت تلمسان زمن الموحدين وعمرت أسواقها وازدهرت تجارتها، وتبقى فيها من عهدهم آثار حمام يعرف بحمام الصباغين، وتعلو قاعته الوسطى قبة تتشعب من قمتها فصوص، وتستند هذه القبة على عنق مثمن الشكل تحمله عقود متجاوزة تشبه حدوة الفرس. وتتوسط القاعة تحت هذه القبة فوارة للمياه في داخل حوض مربع. ولا يختلف هذا الحمام كثيراً عن حمامات المرابطين في الأندلس مثل حمام اليهود بمدينة بسطة وحمام بالمة بجزيرة ميورقة.

وحظيت مدينة تِلمسان بتراث ضخم من آثار بني عبد الواد، فقد تركوا فيها آثاراً رائعة، لا تقل في شيء عن آثار المرابطين. ويعتبر الأمير يغمراسن بن زيان (١٢٣٥ ــ ١٢٨٢) من مشاهير البناة، إذ أقام مئذنة لجامع أجادير وشيد أخرى للمسجد الجامع بتلمسان وهو الذي هجر القصر القديم الذي كان يجاور جامع تلمسان وأسس مقرًا جديدا له هو قصر الموشوار الذي تبقت منه بعض جدرانه. وأقيم في عهد السلطان أبي سعيد عثمان ١٢٩٦م مسجد سيدي بل حسن. وكان أبو تاشفين الأول (١٣١٨ ــ ١٣٣٧) خامس سلاطين بني عبد الواد أكثرهم حبًا للبناء والتعمير. وأروع آثاره ما تزال قائمة في المنصورة والعبّاد.

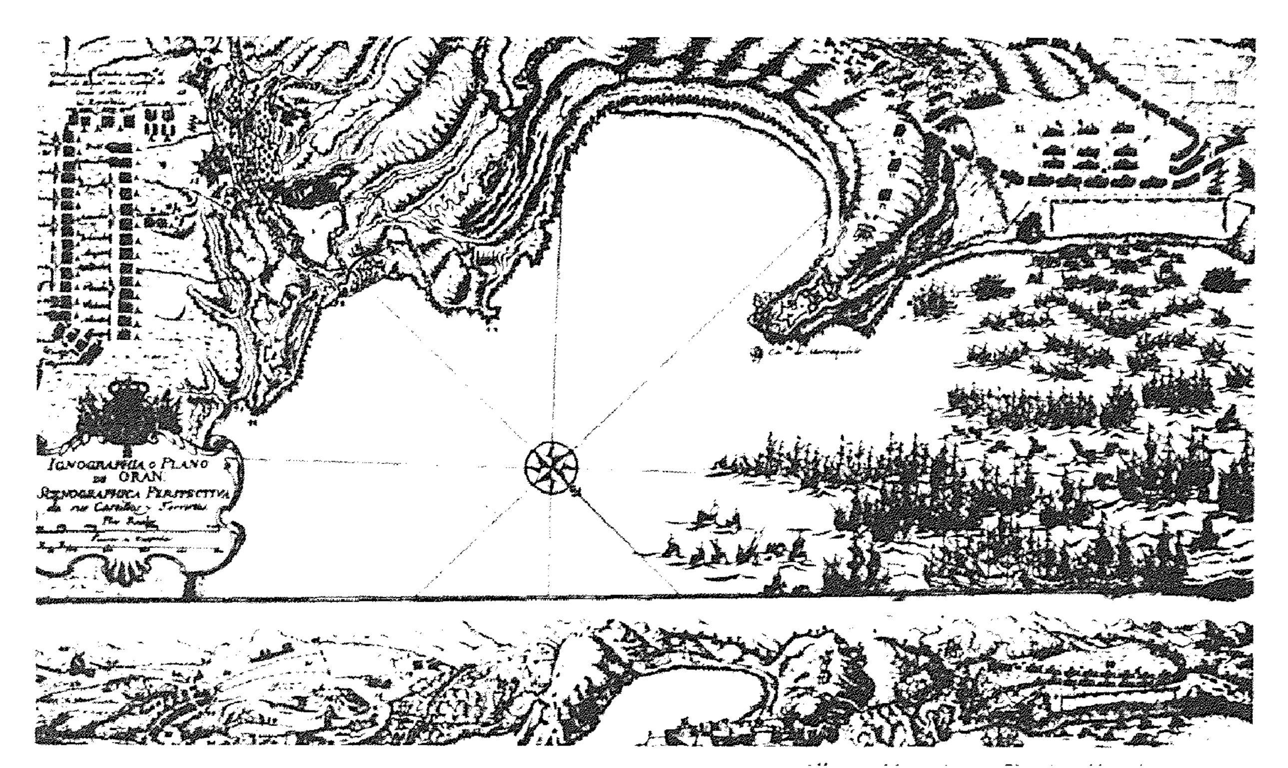
ومئذنتا يغمراسن مربعتا الشكل على نظام المآذن المغربية الأندلسية. وقد بنيت كلتاهما من الآجر وإن كانت قاعدة مئذنة أجادير أقيمت من الحجارة، وتشبه هاتان المئذنتان مئذنة المسجد الجامع بإشبيلية ومئذنة جامع الكتيبة بمراكش ومئذنة جامع حسن بالرباط، وقوام زخارفهما شبكات المعينات التي تنطلق من رؤوس العقود وتكسو جميع أوجه المئذنتين.

ومسجد سيدي بل حسن صغير في مساحته، وقد تحول اليوم إلى متحف لمدينة تلمسان، ومظهره الخارج بسيط، إلا أن مئذنته الصغيرة تعدُ من أروع أمثلة العمارة الإسلامية بالمغرب.

ولما حاصر بنو مرين تلمسان من ١٢٩٩ ــ ١٣٠٧ وأقاموا مدينتهم الحربية التي عرفت باسم المنصورة قبالتها، واستولوا على تلمسان سنة ١٣٣٧، ظلت هذه المدينة خاضعة لهم حتى ١٣٤٨، ثم خضعت لهم مرة أخرى منذ ١٣٥٣. وقد سجل بنو مرين سيطرتهم على بلاد الجزائر بثلاثة أبنية هامة منها جامع المنصورة الذي أقامه السلطان أبو يعقوب فيما يقرب من سنة ١٣٠٢ ولكن بناءه لم يتم إلا في سنة ١٣٣٧ في عهد السلطان أبي الحسن المريني. ولم يبق أهل تلمسان على مسجد أعدائهم، فجردوه من رخامه ولم يتبق منه سوى جزء من مئذنته وبعض أجزاء من سوره. وبقايا هذه المئذنة ترتفع اليوم إلى ما يقرب من ٣٨ متراً وتعتبر من أجمل الآثار الإسلامي بجمهورية الجزائر، ويمكن مقارنتها بمآذن الموحدين في إشبيلية والرباط. وباب المئذنة وهو نفسه باب المسجد تكسوه الزخارف النباتية والتوريقات، وتعلوه ظلة بارزة ترتكز على مساند، وتثير مئذنة المنصورة مئذنة الجامع بإشبيلية المعروفة بالجيرالدا وذلك بتقاسيمها الزخرفية وتفاصيلها المعمارية وإن كانت تفوقها بما رصعت به من فسيفساء.

كذلك تبقى من عهد السلطان أبي الحسن المريني مسجد العباد الملحق بضريح سيدي بومدين، وقد بني هذا المسجد في سنة ١٣٣٩ تخليداً لذكرى هذا المتصوف الأندلسي الكبير. وواجهة هذا المسجد صورة رائعة للفن المغربي الجزائري في عهد بني مرين، ولا يختلف هذا الفن في كثير أو قليل عن آثار الأندلس في عهد ملوك بني الأحمر إذ أن الزخارف النباتية والهندسية تكسو الجدران جميعاً، موزعة في تقاسيم غاية في الروعة والجمال.

ولقد أقام بنو عبد الواد نوعاً من المؤسسات الدينية الاجتماعية هو المدارس، والمدرسة منظمة يأوي إليها طلاب العلم في العصر الإسلامي ويتولى التدريس لهم فيها فئة صالحة من العلماء المبرزين. وقد ظهر هذا النوع من المؤسسات المعمارية في فارس والعراق وانتقل إلى السلاجقة وأقيم في دمشق وحلب وبعلبك عدد كبير منها. وأول من أدخل نظام المدارس في مصر



□ رسم اسباني لمدينة وهران والمرسي الكبير

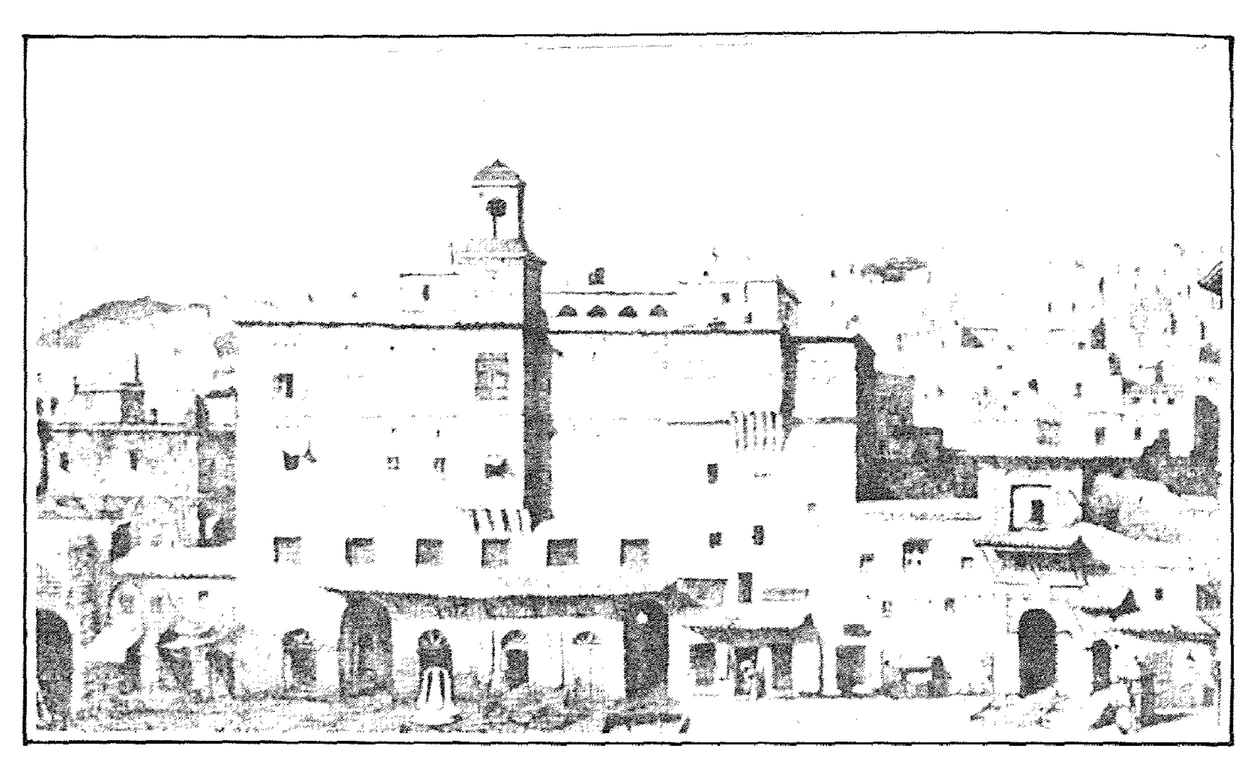
صلاح الدين الأيوبي وانتقلت تقاليد بناء المدارس من مصر إلى تونس أولاً ومنها انتقلت إلى مراكش بعد مضيّ ما يقرب من ثلاثين سنة في عهد بني مرين. ولقد أقيمت بتلمسان عدة مدارس في عهد بني عبد الواد منها المدرسة التشفينية التي أقامها أبو تاشفين المتوفى سنة ١٣٣٧. ولم يبق من هذه المدارس إلا آثار ضئيلة إذ أن أغلب مدارسهم في الجزائر قد اندثرت. ومن آثار هذه المدارس آثار مدرسة ببلدة العباد أقامها السلطان أبو الحسن المريني سنة ١٣٤٧ ويتوسط هذه المؤسسة فناء فسيح تحيط به بوائك من جهاته الأربع، واصطفت على جانبي البائكتين الشرقية والغربية إثنتا عشرة غرفة للطلبة ويعلو هذا الطابق طابق آخر به العدد نفسه من الغرف. وفي الجهة المقابلة للمدخل الرئيسي للمدرسة أقيم بيت الصلاة وهو مسقف مربع الشكل تعلوه قبة.

ويجب الا نترك آثار دولة بني مرين في الجزائر دون أن نذكر شيئاً عن آثارهم المدنية، فقد أولع سلاطين بني مرين وعلى الأخص السلطان أبو الحسن بالبناء، ويذكر المؤرخون أنه أقام في مدينة المنصورة سنة ١٣٤٤ قصراً عرف باسم دار الفتح شيده فوق ربوة عالية وحاطه بالأبراج ولم يبق منه إلا آثار ضئيلة تذكرنا بقصر الحمراء، كما أقام ببلدة العباد قصراً صغيراً بجوار ضريح سيدي بومدين ومسجده. وتدلنا الحفريات الأثرية التي أجريت في أرضه سنة ١٨٨٥ على أنه كان يتألف من ثلاث مجموعات من الأبنية متدرجة في المساحة لكل منها في وسطه بهو، ودلت آثار هذا القصر على أنه كان لا يقل في تراثه الزخرفي عن زخارف مدارس فاس.

ومن آثار بني مرين الحربية في الجزائر تبقى سور مدينة المنصورة، وهو سور مربع الشكل مثله في ذلك مثل بقية الأسوار التي أقامها بنو مرين حول مدنهم بمراكش وتبقت من عمائرهم الحربية أجزاء من سور تلمسان الذي أقيم على انقاض سور الموحدين.

* * *

وتزخر مدن الجزائر بالآثار التركية وكلها بنيت على نظام المساجد التركية بآسية الصغرى مثل مساجد بروسة ونيسة وغيرها من مدن الأناضول. وأقدم المساجد الجزائرية التي ترجع إلى العصر التركي والتي ما تزال قائمة إلى وقتنا هذا مسجد علي بتشنين، أقيم في النصف الأول من القرن السابع عشر، أقامه قرصان إيطالي اسمه Picenino، وقد أسلم وعرف باسم علي



□ قصر «الجنينة» مقر الإدارة المركزية العثمانية قبل أن يحرقه الفرنسيون.

بتشنين، ولقد تحول هذا المسجد في عهد الفرنسيين إلى كنيسة نوتردام دي فيكتوار مما غير نظامه المعماري الإسلامي. وكانت بيت الصلاة فيه يتألف من فراغ مربع فسيح تعلوه قبة ويحيط به من جهاته الأربع أروقة تعلوها قُبيبات صغيرة. ولم يتبق من مسجد علي خوجة بالجزائر حتى عهد قريب سوى مئذنته المربعة. ولقد أقام محمد باشا حاكم الجزائر فيما بين سنوات ١٧٦٥ و ١٧٩٠ مسجداً بمدينة الجزائر يعرف باسم مسجد السيدة وأقيم قريباً منه مسجد آخر أقامه حسن باشا سنة ١٧٩٤ وقد لحقت هذا المسجد الأخير أضرار جسيمة نشأت من تحوله إلى كاتدرائية الجزائر.

هذا وقد أقام الداي حسين آخر حكام الجزائر مسجدين بقصبة مدينة الجزائر؛ أحدهما سنة ١٨١٨ فَقَدَ اليوم بعد تحوُّله إلى كنيسة سانت كروا كثيراً من معالمه الإسلامية، والآخر — وما يزال قائماً — يتميز بأهم ما تتميز به مساجد القرنين السابع عشر والثامن عشر من قبة وسطى تحيط بها أربع مجنبات، تعلو كل مجنبة منها قبيبات.

وأقيم غير هذه المساجد التركية عدد آخر بتلمسان (مسجد لالاروية) ووهران (المسجد الجامع) وقسطنطينة (مسجد سوق الغزال ومسجد سيدي الأخضر ومسجد سيدي الكتاني) وكلها ترجع إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

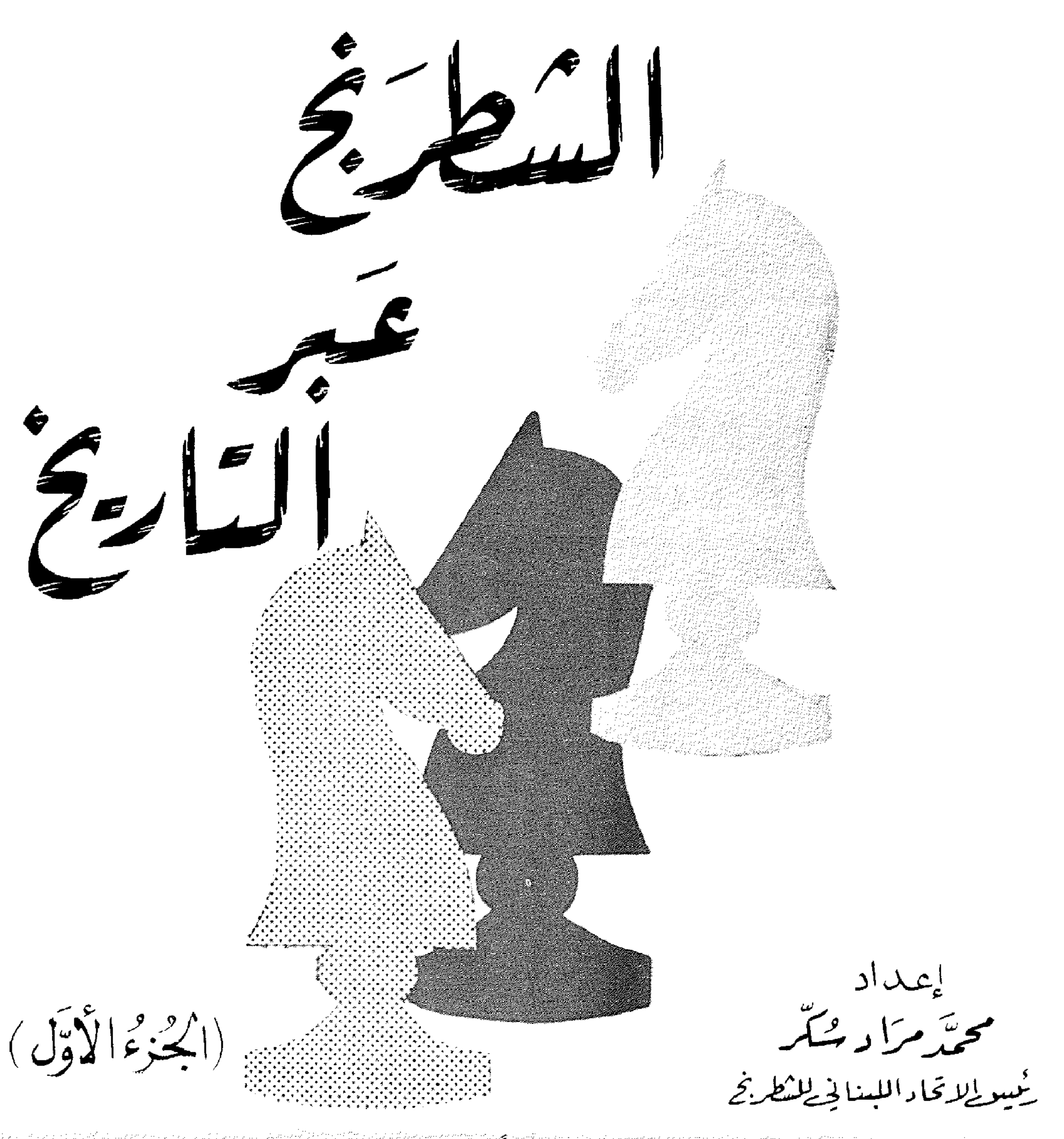
ومن الآثار المدنية في العصر التركي آثار دار السلطان بالجزائر والقصبة التي أقامها الداي علي خوجة سنة ١٨١٦ وكانت تجمع عدداً كبيراً من الأبنية والقصور كما تبقى بقسطنطينة القصر الذي بناه الباي الحاج أحمد منذ سنوات ١٨٢٦ إلى ١٨٣٥.

* * *

هذا استعراض موجز لأهم الآثار الإسلامية في الجزائر وكلها آثار تشهد بما تمتعت دولة الجزائر الحرة طوال العهد الإسلامي من حضارة تعتبر إلى حد كبير وريثة لحضارة الإسلام في الأندلس.

الهوامش

(١) القصبة في بلاد المغرب والأندلس حصن منيع يقام عادة في موقع مرتفع مثل قصبة مالقة وقصبة المرية بالأندلس وقصبة رباط وقصبة مراكش بالمغرب الأقصى.



محطات كثيرة يتوقف فيها المرء طويلاً وهو يحاول أن يضع دراسة علمية عن تاريخ الشطرنج عبر العصور، كل محطة فيها بحاجة إلى أكثر من محاضرة بل إلى دراسة وافية لا يتسع لها مجالنا اليوم، لذا فإننا في دراستنا اليوم سنوجز ما استطعنا محاولين إيفاء الموضوع بعض حقه دون أن ندع الملل يتطرق إلى القرّاء الكرام.

أولى هذه المحطات نشأة الشطرنج، هل هو من وضع شخص معين وتطور مع الزمن، أم أنه لعبة قديمة تطورت وأصبحت على ما نعرفه اليوم، ترى أين نشأ وترعرع، أيكون مهده الصين أم الهند أم روسيا القياصرة، هل وضعه الفرس أم أن العرب هم الذين وضعوه، أم هم الفراعنة في مصر، محطة يتوقف عندها طويلاً كثير من متتبعي هذا التاريخ، وكل يحاول أن يثبت رأيه بقصة أو أسطورة أو اكتشاف أو نقش أو أو إلخ.. ترى أين الحقيقة التاريخية؟



الدلائل التي لدينا مبهمة جداً، ولم يترك التاريخ لنا مستندات أو دراسات نعتمد عليها في سبيل تثبيت حقيقة تاريخية لا يأتيها الباطل من أية جهة، كل ما نملكه أساطير وخرافات وروايات متعددة. لذا فقد اختلف الرواة والمؤرخون في ذلك، فمنهم من نسبه إلى الفيلسوف اكزرسيس وإلى القائد اليوناني بالاميد، ومنهم من نسبه إلى الأخوين ليدو وتيرهان ونسبه آخرون كما قلنا إلى الفراعنة المصريين وإلى الفرس وآخرون إلى الهند وإلى بابل، وارجعه بعضهم إلى الإيرلنديين وإلى الشركس وغيرهم وغيرهم، وعلى الرغم من تأكيد كل مؤرخ لروايته فإن أحداً منهم لم يبرز أي دليل قوي على ذلك، ولكن الدلائل كلها تكاد تجمع على أن هذه اللعبة عرفت بين القرنين الخامس والسادس. ترى هل يرجع اختراع الشطرنج إلى شخص معين أم إلى مجموعة من الأشخاص من أصحاب المخيلات الواسعة، هذا ما لا يستطيع الإجابة عليه أحد، لغاية اليوم على الأقل.

ولا ندعي أننا سنستطيع في هذه الكلمات القليلة أن نثبت هذا بصورة قطعية،فالاكتشافات الجديدة في الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٧٢ لقطعتين شطرنجيتين عاجيتين عائدتين للقرن الثاني الميلادي واكتشافهم مؤخراً لمخطوطة عربية قديمة لم تصلنا تفاصيلها بعد قد يقلب المفاهيم كلها، سيما وأن هناك تلميحات إلى وجود لعبة صينية قديمة تشبه الشطرنج وتعود إلى تواريخ سابقة وهي غير الغوا (GOA) التي لا تزال تلعب في الصين لغاية اليوم وفيها شبه كبير للشطرنج وهذا ما يفسر تقدم اللاعبين الصينيين بسرعة بفهم الشطرنج الحديث اليوم وحصولهم بسرعة على لقب أساتذة في الشطرنج.

ولكننا اليوم سنكتفي بما لدينا، ونحاول بعد غربلة الأساطير والخرافات التي قرأناها، ولا أشك أن كثيراً منكم قد قرأها واطلع عليها، سنحاول أن نحتفظ باثنتين فقط قد تكونان على علاقة الواحدة بالأخرى وتكونان فعلاً أصل اختراع الشطرنج.

سنذكرهما طبعاً بإيجاز حتى لا يمل القارىء الكريم وحتى نستطيع الانتقال إلى المحطات الأخرى من تاريخ الشطرنج، وهي عديدة كما أسلفنا.

الأساطير

القصة الأولى أو الأسطورة الأولى، رواها المسعودي في كتابه مروج الذهب، إذ يقول:

كان في بلاد الهند ملك يسمى جمهور، وكان له الأمر على الممالك من كشمير إلى أرض الصين، وكانت مدينته «سندلي» دار ملكه ومستقر جنوده، وكانت له زوجة من بنات الملوك موصوفة بالرأي والعقل، فرزق منها ولداً أسماه كوا (وفي مكان آخر دعاه غو) فمات الملك بعد ولادة هذا الأبن وأوصى إلى زوجته. فاجتمعت الجنود عليها وبقيت تنهي وتأمر، وكان لزوجها أخ اسمه فاي وكان يسكن مدينة زنبر فقدم وتزوج بزوجة أخيه وقعد مقعده من سرير السلطنة واجتمعت عليه العساكر، فرزق منها ابناً وسماه طلخند، ثم توفي بعد سنتين من ولادة هذا الصبي، فاجتمعت العساكر واتفقت كلمتهم مرة أخرى على تقديم الطاعة لزوجة الملك وأشاروا عليها بأن تتقلد الأمر وتقوم بالملك وكفالة الولدين إلى أن يصلح أحدهما للسلطنة، وكان أحدهم غو ابن سبع سنين، والآخر طلخند ابن سنتين، ولما كبر الولدان طمع كل منهما بالملك، ولم يرض الأصغر طلخند أن يبايع أخاه الكبير، فدبت بينهما عقارب الشحناء يغذيها أهل النفاق فوقعت الحرب بينهما وتغلب رجال غوا فتفرق أصحاب طلخند، ولما وجد الآخير نفسه وحيداً في المعركة، فاضت روحه من الأسف والهم، فنقله أخوه بتابوت من العاج إلى دار ملكه.

ونتابع القصة كما وردت في الشهنامة، وهي أقدم مخطوطة فارسية ذكرت شيئاً عن الشطرنج.

تقول الشهنامه، وكانت أمهما مضطربة تنتظر ما تسفر عنه تلك المعركة، فلما طلعت رايات غو وفقدت أعلام طلخند أدركت الواقع وظنت أن أخوه قتله، فأوقدت ناراً عظيمة أرادت أن تحرق نفسها فيها على طريقة الهنود في ذلك الوقت، فأدركها غو وأقسم أنه لم يقتل أخاه وأخبرها

القصة مهدداً بقتل نفسه إن لم تصدقه الوالدة، فطلبت منه أن يستعيد المعركة على الأرض أمامها لعلها تتسلى من إعادة تمثيل المعركة فينجلي عنها الهم والحزن.

وبعد تشاور مع الوزير، جمع علماء الهند وذكر لهم ما طلبته الوالدة، بعد أن شرح لهم كيف جرت المعركة.

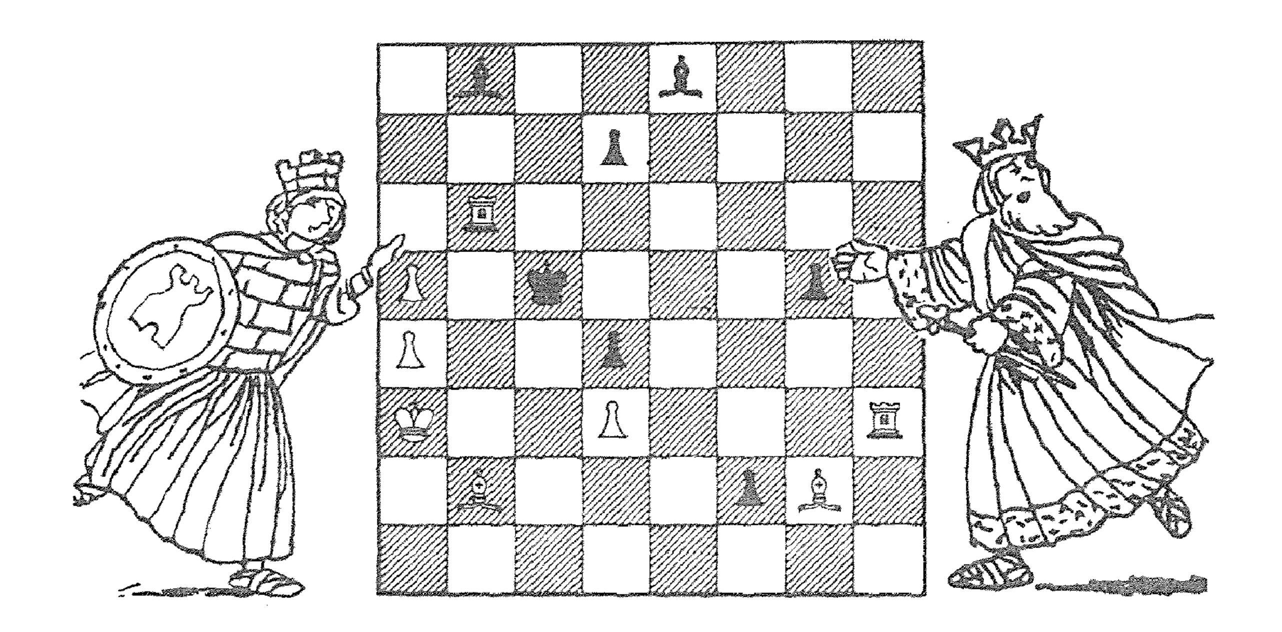
فاستحضر العلماء الابنوس وعملوا تختاً (المقصود بذلك رقعة كبيرة) وصوروا فيها مابة بيت ثم عملوا من الساج والعاج صورة شاهين معتصبين بالتاج مع جنودهما وخيولهما والفيلة والوزراء (وهناك نص طويل عن هذه المعركة وكيفية صف الجنود). نعف عن ترددادها اليوم.

إنما المهم، أنهم استطاعوا إعادة تمثيل المعركة على هذه الرقعة، فسرت الملكة واقتنعت، وأخذت تستعيد المعركة أياماً وليال طوال حتى توفيت، وعرف الشعب بالقصة، فأخذ يستعيد هذه المعركة على رقع صغيرة، وقد يكون ذلك أول عهد الناس بالشطرنج.

أما القصة الثانية فقد ذكرها البستاني في كتابه دائرة المعارف، وهذه القصة وردت في كثير من الكتب وعلى أشكال مختلفة، يقول البستاني: قام في بداءة القرن الخامس من التاريخ المسيحي على مقربة من مصب نهر الكنك. ملك فتى متصف بكل السجايا التي تكسبه محبة رعاياه وثقتهم به، غير أن المداهنين المقربين إليه جعلوا سجاياه، غرضاً لنبال نواياهم الخبيثة ومآربهم الفاسدة، وتمكنوا بالاستمرار من إفساد أخلاقه وحببوا إليه التأنق والملاهي واللذات والإسراف فلهى بها أي لهو عن خير رعاياه، وما يؤول إلى نجاحهم وفلاح المملكة فساء ذلك الحكماء والمتعقلين ولكنهم لم يجسروا على التفوه بكلمة ولا على معارضته في أمر خشية أن يعرضوا نفوسهم لانتقام اتباعه منهم، ويجلبوا عليهم سخطهم وسخطه، وكان من جملتهم حكيم على جانب عظيم من الدراية والعقل اسمه سيساك (وقيل في رواية أخرى صصه بن داهر) فجهد نفسه في هداية الملك وتقويم طرقه وإصلاح الخلل قبل أن يلم بالمملكة الخراب والدمار، فشحذ قريحته توصلاً إلى وسيلة تفتح عيني الملك وتريه ضلاله، دون جرح لإحساسه، فاخترع لعبة الشطرنج وجعل كما هو مشهور، أهم دورٍ فيها للملك موقفاً بقاءه وسلامته على غيرة رعاياه وصحبتهم له كل التوقف، وأخذ يجوب بها البلاد إلى أن بلغ خبرها مسامع الملك فأحضر سيساك هذا وطلب منه أن يعلمه هذه اللعبة، فأطاع الحكيم وأخذ يشرح له كل مرة شروحاً تمثل حالته وسيرته وكل تصرفاته، كما هي بأساليب شائقة وعبارات رائقة فنجح خيراً كلامه، وفطن الملك وارعوى ووجه اهتمامه حينئذ إلى إصلاح سيرته وتعويض ما فرط منه، ومن شدة امتنانه أراد أن يجزل جزاءه فقال له اقترح ما شئت، فقال له سيساك، احسب للخانة الأولى من رقعة الشطرنج حبة قمح واثنتين للثانية وأربعة للثالثة وثمانية للرابعة وهلم جراً إلى الخانة الرابعة والستين (القصة مشهورة يعرفها الجميع) وضحك الملك وقال له أطلب ولا تخشى الفشل، فأجابه أني على ما طلبت لا غير، فأمر أن يعطى ما طلب، ولكن بعد الحساب تبين له أنه من غير المستطاع أجابته، فانتهز الفرصة سيساك ليقول: أن على الملوك أن يتيقظوا لأنفسهم ويحذروا من المقربين لديهم وأن لا يعدوا وعوداً دون أن يدركوا أهميتها وعواقبها. والمعروف أن هذا الرقم يبلغ كما ذكرته موسوعة لاروس (٢٠ رقماً) ١٨،٤٤٦،٧٤٤،٠٧٣،٧٠٩،٥٥١،٦١٥ حبة قمح أي ما تنتجه المملكة في سنوات عديدة.

هاتين القصتين قد تكونا مترابطتين وقد يكون الواحد قد أخذ من الآخر. إنما جاء في كتاب هندي قديم أن صصه (سيساك) لم يكن مخترعاً لهذه اللعبة، إنما يرجع إليه الفضل في إيجاز اللعبة الهندية القديمة (شاطور نجا) وفي الأدب الهندي القديم وصف لهذه اللعبة، ولعل قصيدة «بانا» في القرن السابع الميلادي، أقدم مخطوطة تذكر شيئاً عن الشاطورنجا، كما أن هناك قصيدة لروتنكارا ROTENKARA في كشمير وكتاب هالايودها HALLAYUDHA في القرن العاشر الذي يصف في فصل من فصوله الشاطورنجا، ولعل ذلك صحيح. فما هي الشاطورنجا:

الكلام عن هذه اللعبة طويل جداً.



الشاطورنجا

من ألعاب الحرب التي نشأت في الهند لعبة تدعى اشتابادا ASHTABADA شبيهة بلعبة أخرى تلعب في جنوب الهند تدعى تايام (THAYAM) وكانت الاشتابادا تلعب على رقعة مؤلفة من ٦٤ خانة وفي حوالي القرن الخامس قبل الميلاد، انبثق من هذه اللعبة لعبة أخرى جديدة دعيت شاطورنجا وهي تمثل معركة صغيرة بين أربعة جيوش يقود كلا منها الراجا، ويتألف كل جيش من ٤ جنود، سفينة، حصان، فيل وقائد، لكل معسكر حليف، وهكذا تجري المعركة بين حليفين ضد معسكرين آخرين، أي ٢ ضد ٢، ومن هنا جاءت التسمية شاطورنجا (أي لعبة الأربع عربات). يتحكم بتنقل القطع نرد طويل سجل عليه الأرقام ٢ ـ ٣ ـ ٤ و٥ من رمية للنرد، الرقم الظاهر هو الذي يحدد تحركات القطع، وكانت اللعبة تلعب على رهان يوضع في صندوق مشترك. ولكن المراهنات هذه منعتها الديانة الهندوسية، فاضطر اللاعبون إلى تعديل هذه اللعبة بإلغاء النرد وإبعاد عنصر الحظ، وتبع ذلك تغييرات أخرى، أولها دمج قوى الحلفاء وجعلها قوة واحدة، وهكذا أصبح اللعب بين اثنين عوضاً عن أربعة وصار لكل لاعب ستة عشر حجراً وحرف الإسم من شاطورنجا إلى شطرنج.

لعل هذا التطور من شاطورنجا إلى شطرنج هو أقرب إلى الواقع، وقد تكون فعلاً مهد الشطرنج، ولكننا يجب أن لا نغفل عن القصتين السابقتين، فقد ذكرتهما كثير من كتب التاريخ القديم، ولعل أحدها نقل عن الآخر، ولكن هذه القصص الثلاث بنظري تعطينا صورة واضحة عن أصل الشطرنج وأسباب اختراعه، علماً بأن هناك قصصاً كثيرة تكاد تكون مشابهة للقصة الثانية ولا أرى مجالاً لذكرها اليوم.

هذه هي محطتنا الأولى، وقفنا عليها طويلاً فهي مهد الشطرنج وأسباب اختراعه.

ـ محطتنا الثانية، كيف انتقل إلى فارس، أن أغلب الرواة نقلوا هذه القصص عن الفرس أو عن العرب، كما أن العرب أنفسهم مع ذكرهم لتلك القصص لم يغفلوا ذكر الفرس، وأنهم كانوا يعرفون الشطرنج قبلهم، على الرغم من أن بعض المؤرخين الحديثين الذين التقيتهم في دبي خلال الأولمبياد حاول إقناعي بأن العرب هو الذين وضعوا الشطرنج، ولكنه لم يستطع أن يقدم أي برهان تاريخي على ذلك، رغم أنه كتب مقالاً ذيله بتوقيعه في دبي، ولعله كان يفعل ذلك مسايرة للمضيفين العرب في الإمارات ولكن التاريخ هو التاريخ، ويجب أن نذكر الحقائق كلها ودون تزوير أو تحوير.

انتقال الشطرنـج إلى فارس

أهم المخطوطات الفارسية، بل أثمنها دون شك، الشاهنامه، وقد نظمها شعراً بالفارسية أبو القاسم الفردوسي، وترجمها نثراً الفتح بن علي البنداري وقارنها بالأصل الفارسي وأكمل ترجمتها في مواضع وصححها وعلق عليها الدكتور عبد الوهاب عزام.

وقد جاء في الجزء الثاني من الطبعة الأولى الصادرة سنة ١٩٣٢ من الصفحة ١٤٧ إلى ١٥٤ هذه القصة الطريفة ننقلها إليكم بإيجاز وهي تعطي ضوءاً على هذا الأمر، أي كيف انتقلت اللعبة إلى فارس.

قال صاحب الكتاب: جلس انو شروان ذات يوم على تخت السلطنة في مجلس حضرته ملوك الأطراف وأرباب الدولة وأعيان الحضرة، فجاء بعض الحجاب وأعلمه بوصول رسول من صاحب الهند ومع صحبته ألف جمل بأحمالها. فأذن له فدخل وأثنى على الملك ونثر بين يدي التخت جواهر كثيرة ثم عرض ما استحبه برسم الهدية وكان من جملتها تخت للشطرنج مع رسالة مكتوبة على الحرير تقول: إن الراي (يعني ملك الهند) يقول: ليأمر الملك أعلم أصحابه وأذكى من على بابه أن يضع هذا التخت قدامه، وينظر فيه، ويلعب بهذه التماثيل، ويذكر اسم كل واحد ويضعه في بيته من الرقعة، ويعرف كره وفره، فإن قدرتم على استخراج ذلك، التزمت الخراج ونفذته إلى الخدمة، وأن عجزتم عن ذلك فلا تلزمونا الخراج والتزموه فحق عليكم أن تقدموا العلم ولا تتقدموه.

وبعد سبعة أيام من التفكير، اعيت الحكماء عن فك رموز هذه اللعبة. استطاع بزرجمهر بعد أن خلا إلى نفسه ليلة كاملة من حل رموز اللعبة كما وضع لعبة النرد يرد بها على الهنود ليحلوا رموزها إلى آخر القصة وهي طويلة ومفصلة كما ذكرنا.

هذه القصة تعطينا إيضاحاً لم نقرأ غيره بعد، عن كيفية انتقال هذه اللعبة إلى فارس.

في كل ما قرأنا، ولعل أوسع ما كتب عن تاريخ الشطرنج، كتاب MURRAY. لم نقرأ تفاصيل كثيرة عن انتشار اللعبة في فارس، كما لم يترك الفرس آثاراً كثيرة تدل على مدى تقدمهم في هذه اللعبة ولا عن قواعدها وطريقة لعبها. لذا باستثناء الشهنامه وما ذكرنا من مراجع لم يقع بين أيدينا شيء عن الشطرنج في فارس.

فقد جاء في كتاب تاريخ الشطرنج لهاري كولومبك HARRY GOLOMBEK A HISTORY OF HESS ص ٤٢١.

كان العرب أول من قام بدراسات علمية لجولة الشطرنج، فلم يصل إلى علمنا أية كتابة بهذا الخصوص قبل العرب، كان هناك وصف لطريقة اللعب عند الفرس والهند.

ومن الممكن أن يكون الفرس أو الهنود قد كتبوا في ذلك، ولكنه لم يصلنا شيء قبل العرب، وقد يكون ما كتبوه قد ضاع في غياهب الزمن، إذ ليس لدينا أي أثر، بينما كل الآثار التي لدينا تعود إلى نشاط العرب مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأنه قبل انتشار الإسلام كانت لعبة الشطرنج بدائية وضعيفة.

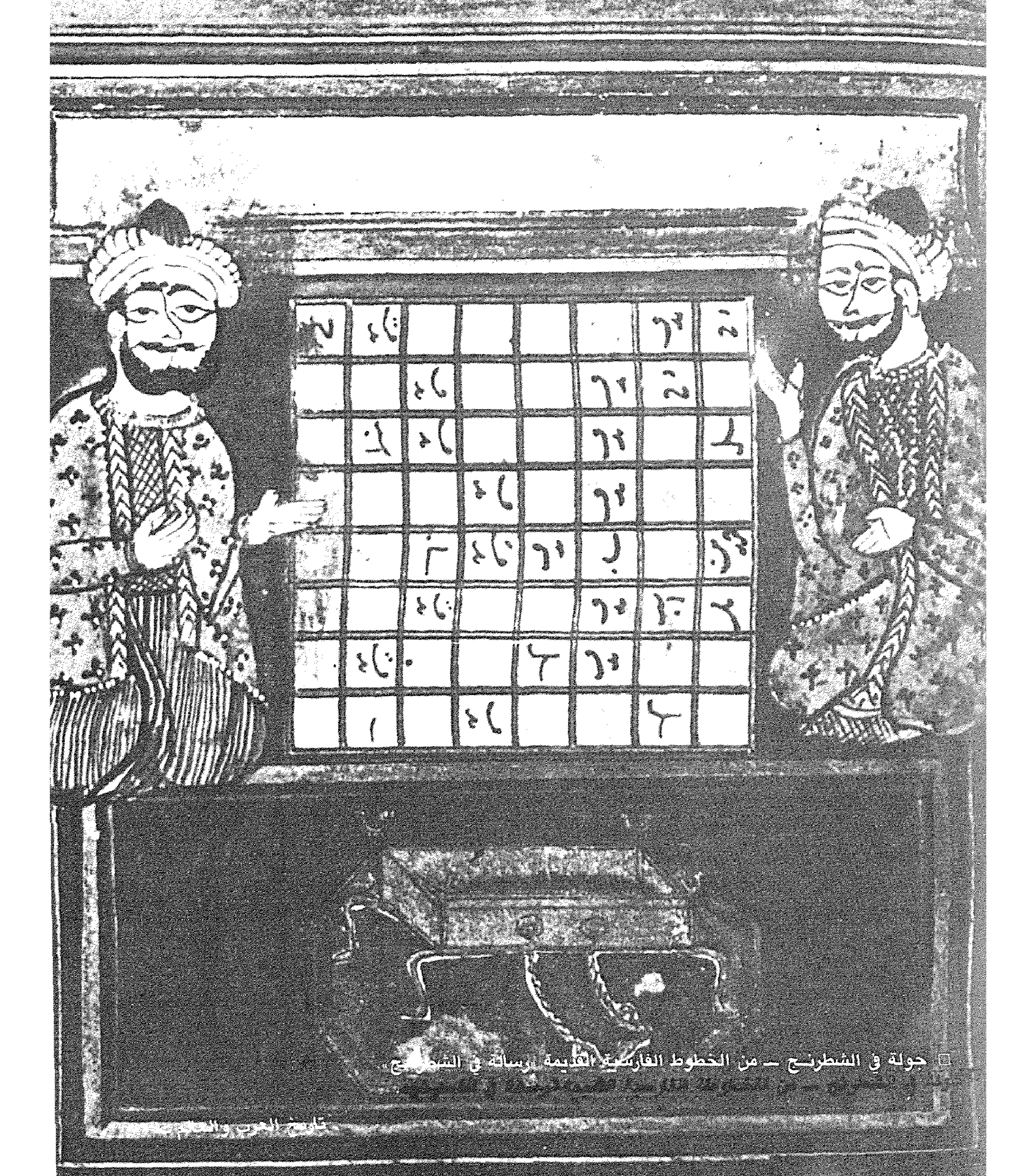
وهنا لا بد من أن نهمل هذه الحقبة من التاريخ لننتقل إلى المحطة الثالثة وهي أهم محطة في تاريخ الشطرنج القديم وهي انتقال الشطرنج إلى العرب وتطوره ووضع قواعده وتدوينه، ثم انتقال الشطرنج إلى الغرب.

والمحطة هذه بحاجة وحدها إلى أكثر من مقال منفرد نظراً لأهميتها التاريخية والفنية، ولما أعطت الشطرنج من دفع، و أحب هنا أن ألفت النظر إلى المحاضرات التي أعطيت في تطوان (المغرب) منذ سنتين حول هذا الموضوع، وإلى الكتاب الذي صدر في دبي أثناء الأولمبياد السابع والعشرين الأخير وأشرف عليه مشكوراً اتحاد الإمارات العربية للشطرنج.

الشطرنـج عند العرب

أول سؤال يطرح هنا، متى عرف العرب الشطرنج، وكيف انتقل إليهم وهل كانوا يعرفونه قبل الإسلام.

هذا السؤال يكتنفه كثير من الغموض، لم يأت على ذكره أغلب المؤرخين بوضوح تام إن لم يكن كلهم. غير أن محمد بن عبد الرحمن بن محمد شمس الدين السخاوي، ذكر في مؤلفه عمدة



□ جولة في الشطرنج ـ من الخطوط الفارسية القديمة «رسالة في الشطرنج»

المحتج في حكم الشطرنج. إن أول ما جاء بالكتاب العربي (المدون) والشطرنج والنرد عمرو بن العاص (٦٦٤ م) وتعلم ذلك بالحيرة، وقد أسند ذلك إلى الإمام مالك بن أنس رحمه الله، كما وقعت أعيننا على أبيات منسوبة إلى امرىء القيس في قصيدته اللامية المشهورة التي مطلعها:

لمن طلل بين الجدية والجبل
فخل قديم العهد طالت به الطبل

التي يصف بها حبيبته إذ يقول:

حجازية العينين مكية الحشا
عراقية الأطراف رومية الكفل
تهامية الابدان عبسية اللمى
خزاعية الأسنان درية القبل

إلى أن يقول:

ولاعبتها الشطرنج خيلي ترادفت
ورخي عليها دار بالشاه بالعجل
فقالت وما هذا شطارة لاعب
ولكن قتل الشاه بالفيل هو الأجل
فناصبتها منصوب بالفيل عاجلا
من اثنين في تسع يسرع فلم امل
وقد كان لعبي كل دست بقبلة
اقبل ثغرا كالهلال إذا افل

إلى آخر القصيدة وعدد أبياتها ٥٥.

لو صحت هذه القصيدة فهذا يعني أن الشطرنج كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام. ويقول RC. BELL في كتابه BOARD AND TABLE GAMES FROM MANY CIVILIZATION في الصفحة ٥٧.

خلال السنوات الخمسين التي تلت دخول الشطرنج إلى فارس، كما نصت الشهنامة، انتشر الشطرنج في البلاد العربية وفي البلاط البيزنطي وذلك على أثر زواج الابن البكر لكسرى انو شروان من ابنة الأمبراطور البيزنطي موريس. وفي سنة ٥٩١ م، أصبح كسرى ملكاً للفرس، وبعد مقتل عمه (والد زوجته) أعلن الأمبراطور موريس الحرب على الأمبراطورية الرومانية، واجتاح كما هو معروف آسيا الصغرى، سوريا، مصر وشمالي أفريقيا، وانتشر الشطرنج خلال ذلك في هذه البلاد (والمعروف أن العرب افتتحوا فارس سنة ٦٤٢ م).

فإذا كان ذلك صحيحا، فهذا يعني أن العرب عرفوا الشطرنج قبل الإسلام وإن انتشاره تم في العصر البيزنطي أثناء فتوحاتهم للدول العربية المذكورة أعلاه.

ويتابع الكتاب فيقول: وعلى الأغلب عرفت اليونان الشطرنج حوالي ٦٠٠ م وفي نفس الوقت وصل الشطرنج إلى مكة والمدينة المنورة في بلاط الخليفة في دمشق من سنة ٦٦١ إلى ٧٧٤ للميلاد (يقصد العصر الأموي)، وقد كان السراقسي أول من كتب في الشطرنج (الشطرنجي) والمعروف أنه توفي سنة ٨٩٩ م.

انتهى كلام الكاتب RC. BELL.

ويروي ابن حجلة المغربي التلمساني في كتابه، انموذج القتال في نقل العوال، الذي حققه العراق مشكوراً، أن النبي (صلعم) كثيراً ما كان يقف متفرجاً على اتباعه من المسلمين الأوائل وهم يلعبون الشطرنج (بكل تحفظ) إذ لم يذكر ذلك كل الترجمات لهذا الكتاب، ولو صدق هذا القول الأخير، فهذا يثبت لنا أن العرب كانوا يعرفون الشطرنج في العصر الجاهلي، على الأقل في أواخره.

ترى هل تعطى هذه الروايات ضوءاً على دخول الشطرنج إلى البلاد العربية.

على كل ومهما كانت نسبة ذلك من الحقيقة، فالثابت أن العرب هم أول من وضعوا للشطرنج قواعد وهم الذين علموه ونقلوه للغرب، كما أنهم أول من الفوا في الشطرنج. ولا عجب فكلنا يعلم أن كثيراً من العلوم ازدهرت أيام العرب، كالطب والجبر والفلك إلخ، وقد كان للشطرنج من ذلك النصيب الأوفر بين بقية الألعاب.

لقد برع العرب كثيراً في هذه اللعبة لدرجة أنهم كانوا يعتبرون النقلات الأول غير ذات بال، فيضعون حاجزاً يقسم الرقعة قسمين، ويرتب كل لاعب أحجاره كما يريد بعد أن يكون قد اتفق مع رسيله على عدد النقلات الأولى التي سيقوم بها كل فرد منهم منفرداً خلف الحاجز، ثم يرفع الحاجز ويبدأ اللعب، وكانت هذه تدعى الطبيقة، ومن يلعب الشطرنج يعرف الصعوبة التي تعتري اللاعب لمتابعة جولة كهذه.

وقد قسم العرب اللاعبين إلى خمسة أقسام، العلية أو (العالية) وهم أساطين الشطرنج الذين



□ صفحة من الشهامة ــ مخطوطة فارسية كتبها الفردوس ويرى واضحاً اسم بزرجمهر الذي حل رموز الشطرنـج.

يصعب التغلب عليهم وهم ما نسميهم اليوم كبار الأساتذة GRAND MAITRE ويأتي بعدهم من يستطيع أن يربح جولتين أو ثلاثة من أصل عشرة مع هؤلاء الأساطين وكانوا يدعونهم «المتقاربة» أو ما تسميهم اليوم الأسـاتـذة

(MAITRE) ثم الذين يستطيعون أن يلاعبوهم بدون فرز (DAME) أو بدون حصان أو بدون رخ وهؤلاء هم الفئة الخامسة، ونذكر هنا أن الرخ كان عند العرب أهم قطعة في الشطرنـج.

وكان العرب أول من وضعوا المسائل في الشطرنج PROBLEMES كما وضعوا كثيراً من الأوضاع POSITION كانت تدعى المناصيب (جمع منصوبة) وهو ما يعرف اليوم بالمسائل والدراسات.

وكان العرب أول من دونوا الشطرنـج وقد تم ذلك على يد اللاعب الكبير ولعله أول أبطال العالم في الشطرنج، أبو العباس أحمد العدلي، وذلك في القرن التاسع للميلاد (الثالث للهجرة) ويعتبر العدلي مؤسس أول مدرسة للشطرنـج في العالم.

وكان القرن العاشر الميلادي عهد ازدهار للشطرنج عند العرب، فقد برز إلى جانب العدلي، الصولي، العاري، ابن دندن، علاء الدين الملقب بعلي الشطرنجي التبريزي المسيس، الرازي الشطرنجي وغيرهم، وكان أشهرهم كما أسلفنا العدلي الذي حافظ على شهرته كأحسن لاعب خمس سنين، كما كان الخليفة هرون الرشيد من أحسن اللاعبين، وإليه يرجع الفضل في انتشار الشطرنج في مملكته، كما كان المعتصم بالله الابن الثالث لهرون الرشيد، من أبرع اللاعبين، وقد ترك المعتصم بالله المتوفي سنة ٨٤٣ م عدة مسائل في الشطرنج نقلها عنه الغربيون واسترشدوا بها. والمعلوم أن أغلب الخلفاء كانوا يلعبون الشطرنج ويشجعونه مثل المنصور والأمين والمأمون وغيرهم.

ويقول حسن توفيق فايق في كتاب «كنانة الشطرنج العصري» لجبرائيل نصرة بك المهندس:

ازدهر الشطرنج في العصر الإسلامي مبكراً، فقد وجد في القرن الأول الهجري من كان يلعبه باتقان في الحجاز، إذ روي عن أبي هريرة الصحابي المتوفي (سنة ٥٧ هـ) وعن سعيد بن جبير التابعي المتوفي سنة (٩٥ هـ) أنهما كانا يلعبان الشطرنج بإجادة حاضراً ومستدبراً أي دون رؤية الرقعة (ربما لم يكن يلعب قبلهما أحد مستدبراً).

وفي القرن الثاني انتشر الشطرنج في باقي الأقطار العربية، فوصل العراق ومصر واشتهر فيه ببغداد أبو حفص الشاعر بين ١٨٠ و٢٠٠ هـ على أنه كان أعمى، ومن مصر كان الإمام الشافعي المتوفي سنة ٢٠٤ هـ يلعب بإجادة حاضراً ومستدبراً، وفي غضون القرنين الثالث والرابع بلغ الشطرنج أوجه بالعراق حيث نبغ اساطين الفن وجهابذة المؤلفين. وكان أولهم العباس أحمد العدلي ببغداد بين (٢٣٠ و٢٥٠ هـ) وهو أول من الف كتاباً عن الشطرنج ثم تلاه الرازي الشطرنجي بين (٢٥٠ و٢٩٠ هـ) ثم محمد بن أحمد المارودي (٢٨٠ و٣٠٠ هـ) ثم أخيراً واسطة عقدهم وفخر الشطرنجيين جميعاً الأديب الكبير أبو بكر محمد بن يحيى الصولي المتوفي سنة ٣٣٥ هـ وقد نادم ثلاثة من الخلفاء العباسيين وألف كتابين عن الشطرنج. ويوجد بدار الكتب الملكية بمصر مخطوط لمؤلف مجهول عنوانه «كتاب الشطرنج» مما الفه العدلي والصولي وظهر بخراسان أبو الفرج محمد ابن عبد الله اللجلاج، إذ كان موجوداً بشيراز (٣٤٠ إلى ٣٦٠هـ). وألف رسالة عن الشطرنج وكان اللعب ذاع وانتشر حتى وصل الأندلس واليمن فاشتهر بالأندلس أبو زيد أبو بكر محمد بن عمار الشاعر المتوفي (٤٧٧ هـ) وهو الذي لاعب الادفنس (الفونس) ملك قستالة وغلبه واشتهر باليمن أبو الطامي جياش بن نجاح أمير تهامة (المتوفي سنة ٤٩٨ هـ).

أما في القرن الثامن فكان غنياً بمشاهير اللاعبين في جميع الاصقاع، مثلاً بدمشق شخص يدعى النظام العجمي كان يمكنه أن يلاعب ثلاثة أشخاص في آن واحد (٢ مستدبراً وواحد حاضراً) حوالي ٧٣٠ هـ . وبمصر علاء الدين بن قيران الاعمى (٧٥٠ هـ) واللائحة طويلة جداً ونكتفي بما ذكرنا. فهذا يكفي ليبرهن لنا فضل العرب في انتشار اللعبة في أنحاء العالم وبراعتهم فيها.

بقي أن نقول أن أغلب أسماء القطع في الشطرنج ولغاية اليوم مأخوذة أما من العرب أو من الأسماء الفارسية مثل: شاه ومات، فيل FOU، الرخ ROOK الفرز.

كما أن قاعدة لعب الحجر الملموس PIECE TOUCHEE PIECE JOUEE التي وضعها العرب لا تزال لغاية اليوم سارية، ذلك أن العرب كانوا يعتبرون لمس الحجر وكأنه وعد بنقل الحجر، لذلك كانوا يشددون على هذه القاعدة، هكذا تقضي الشهامة العربية، بأن يفي الإنسان بوعده، وترقية البيدق وهو ما كان يسمى بفرزنة البيادق أي يصبح فرزاً DAME: التدوين كما ذكرنا بدأ في القرن الثالث للهجرة ونحب أن نذكر أن الترقيم الجبري NOTATION ALGEBRIQUE المعمول به اليوم والذي يفرضه الاتحاد الدولي، وضعه أيضاً عربي من سوريا وهو فيليب ستاما (ولعله سطام) من مواليد حلب سنة ١٧٣٧ م وقد قيل عنه أنه كان آخر كبار اللاعبين العرب في التاريخ القديم. ●

أيسر محفوظاته كتاب الأغاني

● حدّث الوزير الأندلسي أبو بكر محمد بن الوزير أبي مروان عبد الملك بن زهر، قال:

بينما أنا قاعد في دهليز دارنا وعندي رجل ناسخ أمرته أن يكتب لي «كتاب الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، إذ جاء الناسخ بالكراريس التي كتبها، فقلت له:

أين الأصل الذي كتبتَ منه لأقابل[1] معك به؟

قال: ما أتيت به معي.

فبينا أنا معه في ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بذُّ الهيئة[2]، عليه ثياب غليظة أكثرُها صوف، وعلى رأسه عمامة قد لاثها[3] من غير إتقان لها. فحسبته لما رأيته من بعض أهل البادية. فسلَّم وقعد، وقال لي:

يا بني، استأذن لي على الوزير أبي مروان.

فقلت له: هو نائم. هذا بعد أن تكلَّفتُ جوابه غاية التكلُّف، حملني على ذلك نزوةُ الصبا، وما رأيت من خشونة هيئة الرجل.

ثم سكت عني ساعة وقال:

ما هذا الكتاب الذي بأيديكما؟

فقلت له: ما سؤالك عنه؟

فقال:

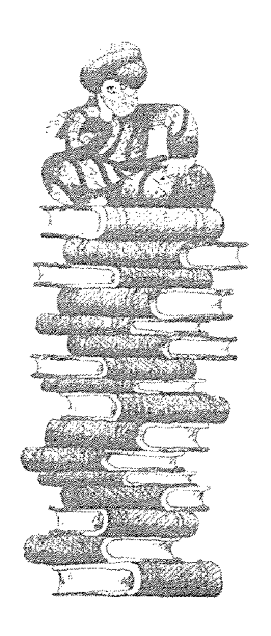
أحب أن أعرف اسمه، فإني كنت أعرف أسماء الكتب!

فقلت: هو كتاب الأغاني.

فقال: إلى أين بلغ الكاتب منه؟

قلت: بلغ موضع كذا.

وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به. فقال:



وما لكاتبك لا يكتب؟

قلت:

طلبتُ منه الأصل الذي يكتب منه لأعارض به هذه الأوراق، فقال: لم أجئ به معي.

قال: يا بنيّ، خُذ كراريسك وعارض.

قلت: بماذا؟ وأين الأصل؟

قال: كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صباي.

فتبسَّمتُ من قوله، فلما رأى تبسُّمي قال:

يا بنيّ، أمسك عليّ.

فأمسكت عليه، وجعل يقرأ، فوالله إن أخطأ واواً ولا فاءً، قرأ هكذا نحواً من كراستين، ثم أخذت له في وسط السِّفر[4] وآخره، فرأيت حفظه في ذلك كله سواء.

فاشتدَّ عجبي، وقمت مسرعاً حتى دخلت على أبي فأخبرته بالخبر، ووصفت له الرجل. فقام كما هو من فَوْره، وكان ملتفاً برداء ليس عليه قميص، وخرج حاسر الرأس، حافي القدمين، لا يرفُقُ على نفسه، وأنا بين يديه، وهو يُوسعني لوماً، حتى ترامى على الرجل وعانقه، وجعل يقبّل رأسه ويديه ويقول:

يا مولاي اعذرني، فوالله ما أعلمني هذا الجِلْفُ إلا الساعة.

وجعل يسبّني، والرجل يُخَفِّض عليه ويقول: ما عرفني، وأبي يقول: هَبْه ما عرفك، فما عُذره في حسن الأدب؟

ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه، وخلا به فتحدّثا طويلاً. ثم خرج الرجل وأبي بين يديه حافياً حتى بلغ الباب. وأمر بدابته التي يركبها فأُسْرِجَتْ، وحلف عليه لَيَرْكَبَنَّها ثم لا ترجع إليه أبداً.

فلما انفصل[5] قلت لأبي:

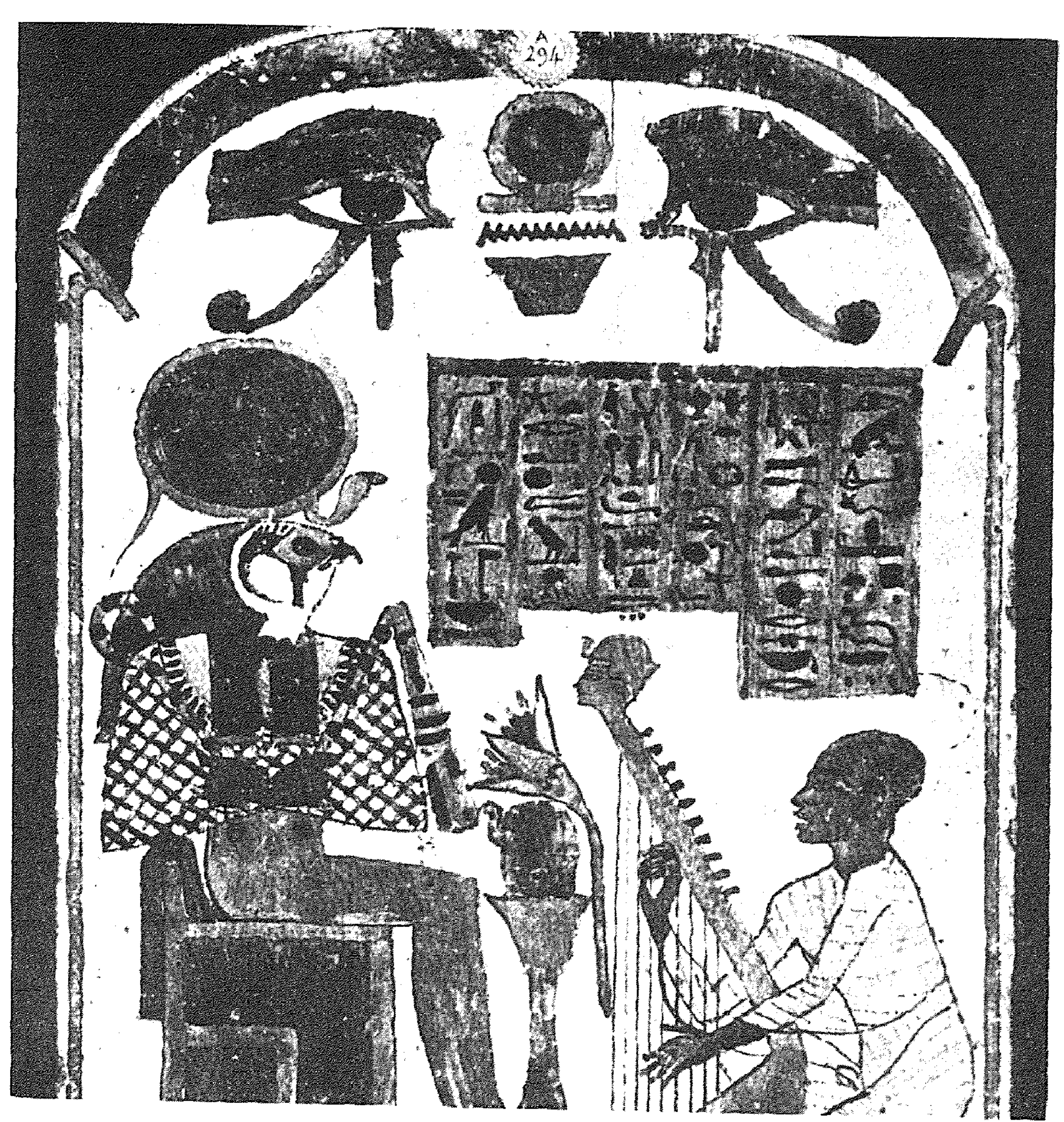
من هذا الرجل الذي عظَّمته هذا التعظيم؟

قال لي:

اسكت ويحك! هذا أديب الأندلس وإمامها وسيّدها في علم الآداب. هذا ابن عبدون، أيسرُ محفوظاته كتاب الأغاني!

من كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» لعبد الواحد المراكشي.

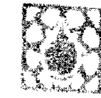
(١) يقابل: يراجع.
(٢) بذُّ الهيئة: زري الملبس.
(٣) لاثها: لفَّها.
(٤) السِّفر: الكتاب.
(٥) انفصل: خرج.



□ عازف الهارب يعزف للآله هوروس الذي يعلو رأسه قرص الشمس.

أسرار الآخرة المصريّة في العهود الفرعونيّة

إعداد : إنعام الجندي



كان المركب الجنائزي الذي يجتاز النيل نحو الشمس الغاربة، يحمل الفرعون إلى عالم غريب، يقطنه آلهة، رؤوسهم رؤوس صقور أو تماسيح، «أنه أرض الظلمات الكثيفة»، حيث تطفو المومياء من الموت لتواجه الأبدية.

ظلت آخرة أوزيريس، هذا العالم الغني السحري، تهيمن على وجود المصريين خلال ثلاثة آلاف سنة تقريباً.

كان هيرودوت يرى أن المصريين «أكثر البشر إيماناً». ولقد أكدت هذا الانطباع، الاكتشافات التي حدثت بعد ألفين وخمسمائة سنة من زيارة هذا المؤرخ إلى ضفاف النيل. فبفضل القبور والمعابد، اطلع العصر الحديث على مصر القديمة، وأهمية تقاليدها الجنائزية، أيام سلالات رمسيس، وغدت هذه الآثار متعة الآثاريين منذ قرن ونصف قرن.

منذ العصر السابق على المرحلة المسماة «الأمبراطورية القديمة» كان المصريون يمارسون جهدهم في ما يتصل بالحياة الثانية. فقد كانت العقائد المتصلة بأوزيريس تجيب على السؤال الكبير: ما مصير الأحياء بعد موتهم؟ واجتيازهم إلى ضفة العالم الأخرى. كانت مملكة الإله في الغرب، في منطقة أسطورية، تقيم فيها الآلهة الجميلة المضيافة «أمانتيت» لتستقبل الموتى. وكان أوزيريس نفسه يحكم ذلك الموضع الذي كان يسمى «حقول يالو»، أو «شانزيليزيه» في التقاليد اليونانية العزيزة على بندار. وكانت شخصية الإله وتاريخه يضيئان المعتقدات المتصلة بالآخرة. ففي مملكة النبات كان أوزيريس يجسد غنى الدلتا والأرض التي يرويها النيل. على عكس أخيه «ست» الذي كان يجسد جفاف الصحراء. ولقد طور كهنة هليوبوليس المعتقدات، واستعادوا أسطورة «ست» ليجعلوا منها عبادة كواكب متصلة بعبادة الشمس، ولكن حساسية الجماهير الفلاحية الدينية، ظلت تفضل الأسطورة التي تقول أن «ست» قتل أخاه أوزيريس، ومزقه إرباً، ثم بعث أوزيريس حياً بفضل تدخل توت، وآنوبيس، وإيزيس، التي تزوجت أوزيريس ومنحته إبناً هو هوروس، الإله الصقر الذي جسد سلالة الفراعنة وتابع المعركة ضد «ست».

ولما كان أوزيريس إله النبات الذي ضحي به ثم بعث، فقد كان طبيعياً أن يسود مملكة الموتى، في الآخرة التي كانت خلال ثلاثة آلاف عام جزءاً أساسياً من عالم المصريين القدامى الروحي.

تقاليد جنائزية

حين يموت مصري، كان الأقرباء يلزمون الحداد خلال سبعين يوماً، ويبقون في بيوتهم، رافضين أية مشاغل خارجية، ويضربون رؤوسهم باليدين لكل بادرة.

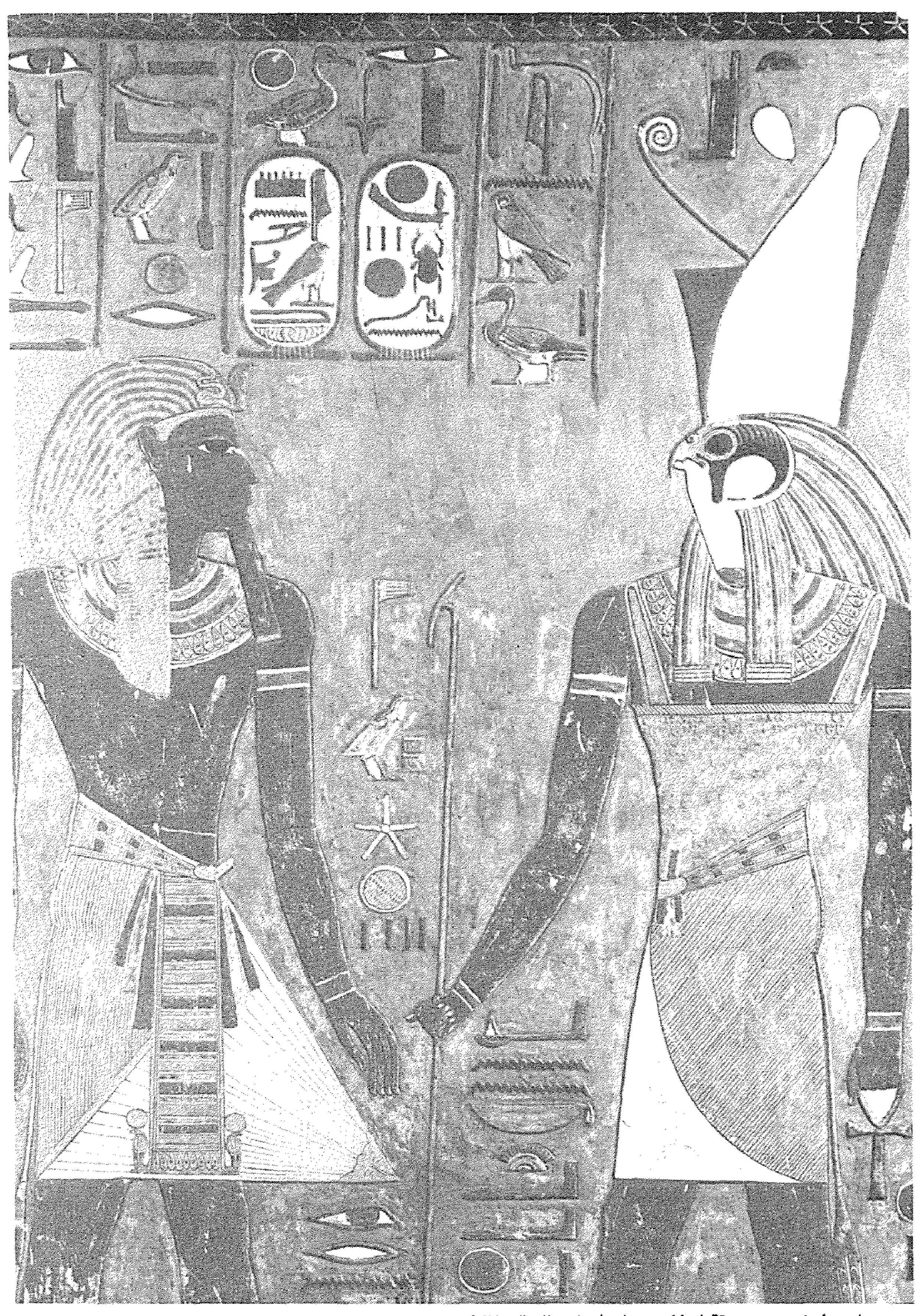
كان عليهم أن يسلموا جسد الميت للمحنطين، الذين بتنا نعرف تقنيتهم، بفضل ما نقله هيرودوت وديودور دوسيسيل. والتحنيط عملية طويلة ومعقدة ودقيقة. ينزع الدماغ والأحشاء، وتحضر في معزل عن الجسد، وتوضع في خواب فخارية أربع. ثم ينظف داخل الجسم، ويملأ بالطيوب ويملح بالنطرون. وبعد سبعين يوماً، يغسل الجسد، ويلف بقماطات كتاب مدهونة بالأصماغ. وكان الشمع والحنة وزيت العرعر، وصمغ الراتنج، والقطران وخمر البلح، ضرورية لاستكمال تفاصيل العمل.

هكذا يمكن حفظ الهيكل والجلد والوجه رغم تقعر الخدين. فبعد أثنين وثلاثين قرناً استطاع التقنيون الباريسيون معرفة وجه رمسيس الثاني.

إذا استكملت هذه الترتيبات، يغطى جسده بكل ما كان يحب في محيطه من أشياء، ويحلى بالجواهر، ويوضع بين ساقيه «كتاب الموتى» ليكون دليله في العالم الآخر. ثم يوضع قناع من الجص على وجهه، إذا كان من الرعية، أما إذا كان فرعوناً أو من أصحاب النفوذ في بلاطه، فيكون القناع من الذهب الخالص. ثم يوضع في كفن يغلف الجسم. وبعد شهرين ونصف الشهر من موته، يحمل إلى مثواه الأخير.

احتفالات الدفن

كان الدفن مناسبة لمظاهر الآلام العنيفة. تستأجر النوادب المحترفات فتلطخن وجوههن بالوحل، ويمزقن ثيابهن، ولا ينقطعن عن الندب، وضرب رؤوسهن. أما الأهل، والوجهاء، ممن يرافقون الميت، فيرفعون الصلوات، ذاكرين



□هوروس ابن أوزيريس يستقبل الميت على أبواب العالم الآخر.



□الميتة ساجدة أمام التمساح الذي أعطى هيئته إلى الإلهة المفترسة التي تلتهم الخطاة.

حسنات الميت وفضائله، متمنين له السعادة في مملكة أوزيريس.

يصحب الجنازة جيش من خدامها، يحملون أثاث الميت: الجرار، لعلب، الأواني، الصناديق، والمقاعد، والأسرة، ومرابين الطعام والزهور. وتحمل الحلى على صحاف.

يتابع النعش مسيرته وقد رفعت فوقه منصة، ووضع في قارب، فوق عربة شدت إلى ثورين. ينتظر الجنازة عند شاطىء النيل الآخر، أسطول صغير. يحمل النعش عندئذ إلى القارب الرئيسي، الذي يحتوي، في وسطه، غرفة واسعة لاستقباله. يرافقه عندئذ كاهن يرتدي جلد فهد،على مركب يجره مركب آخر، يقل النادبات يرفعن صلواتهن وندبهن إلى السماء، ويبكين تذكراً لما ذرفته إيزيس من دموع عندما أتيت ببقايا زوجها أوزيريس.

لا يمكن للمراكب أن تحمل كل الذين مشوا بالجنازة حتى صفاف النيل. لذلك يعودون جميعاً إلا الضروريين لترتيبات الدفن الأخيرة، ويتمنى العائدون للميت عبوراً سعيداً إلى مغرب الشمس، التي تنبعث مع الصباح من الشرق، رمزاً لخلود عودة الحياة إلى الأبد.

يمضي مع الميت خدام الجنازة والأصدقاء الخلص والكهنة، والنادبات. ويقوم كاهن برش التابوت بالماء، من مرشة في يده. ويشعل البخور ليعطر الجو. فإذا بلغ الموكب الجنائزي أسفل الجبل، حل الحمالون محل الثيران في جر عربة النعش إلى باب القبر، حيث ينتظر الميت بقرة تمثل الإلهة هاتور، وصقر يمثل هورس ابن أوزيريس، ويتضاعف الندب ومظاهر الألم.

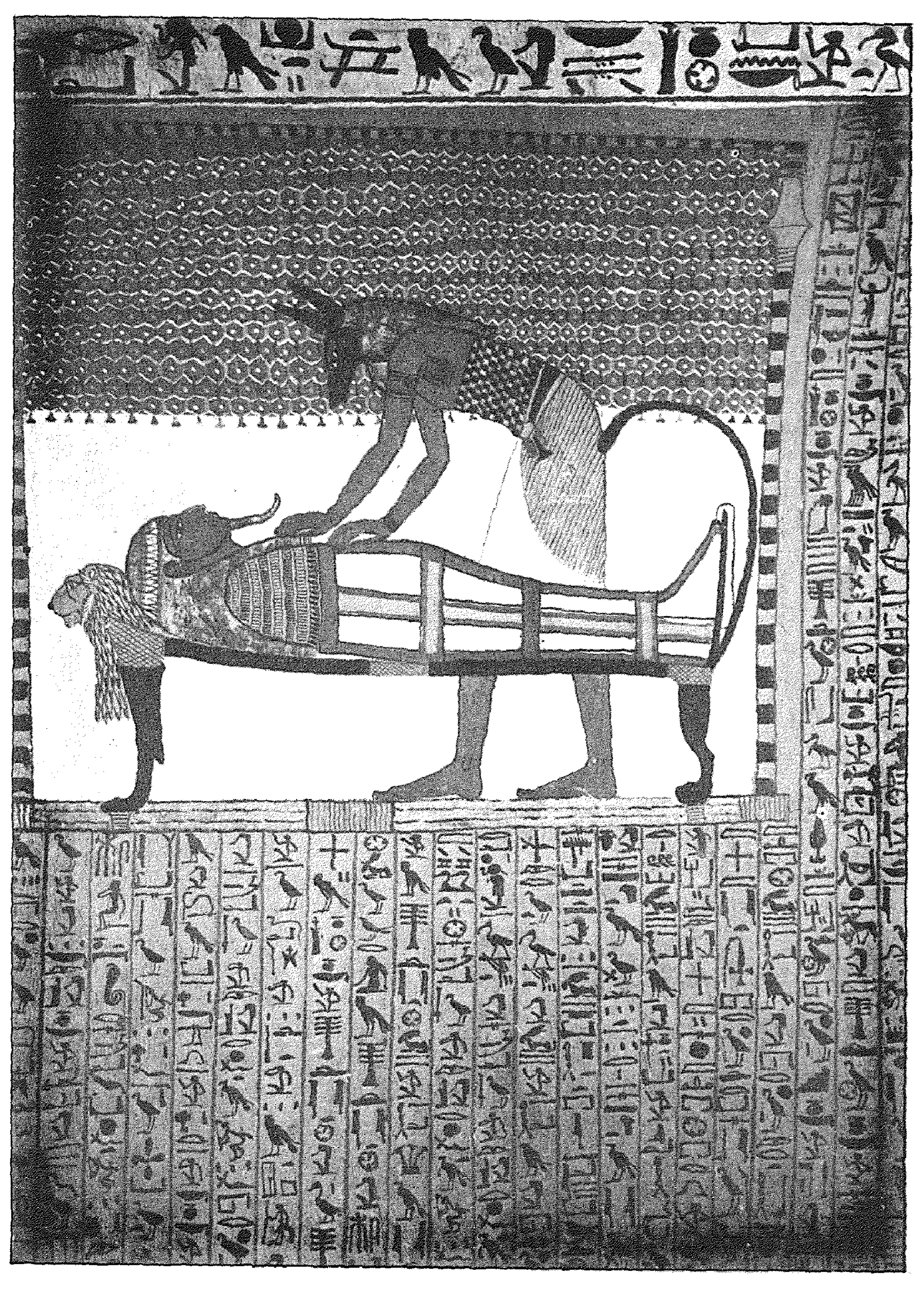
يكون رهبان، في ذلك الوقت، قد أعدوا مأدبة مأتمية، مع بعض أدوات الطعام، رمزاً إلى قرب خلاص الميت من تحنيطه، وعودة الحياة إلى أعضائه، وقدرته على استخدامها. وينزل في القبر كل الأثاث الذي اصطحب مع الجنازة، ويرتب حول التابوت، مع الخوابي التي تضم تضم أحشاء الميت.

إذا انتهت مراسم الدفن، يغلق باب القبر بجدار، وتقام خارجه مأدبة لأفراد عائلة الميت والمقربين من أصدقائه. وتلك مناسبة يغني فيها المغنون، ويعزف العازفون، مذكرين بالملاذ التي سينعم بها الميت في حياته المقبلة.

أرض الظلمات الكثيفة

أما موتى الطبقة العادية، فيحنطون تحنيطاً بسيطاً، بزيت العرعر والنطرون. ثم يوضع الجسد في نعش عادي، ويحشر مع غيره في قبر عفن، ولا يحمل مع الميت إلا صرة فيها بعض أشيائه.

أما الفقراء فلا يأملون إلا في حفرة عامة تضم رفاقهم، ولا يبعثون في الآخرة، إلا إذا كانوا خدموا شخصية هامة، كتبت أسماءهم أو أشارت إليهم بطريقة ما، وعندئذ يظلون في خدمة تلك الشخصية سرمدياً.



□أنوبيس، الإله برأس جقل، هو القوة السماوية المكلفة بالتحنيط، وهو يمارس هنا علمه الذي منحته الآلهة، لتحنيط الإله أوزيريس.

إذا كان الموت تصاحبه تقاليد تعزية تذكر بالحياة الجديدة التي ينتظرها الموتى في «حقول الغرب»، فإن المصريين لم يكونوا دائماً سعيدين بترك الحياة الدنيا. فقد ترك بعضهم مقطوعات يعبرون فيها عن تشبثهم بهذه الحياة الدنيا، ومن ذلك موجودة في المتحف البريطاني: «... ما قيمة السنوات التي قضيناها على هذه الأرض، مهما كثر عددها؟ المغرب أرض النوم والظلمات الكثيفة، حيث يرقد أولئك الذين غادرونا. إنهم يرقدون في قماطاتهم، ولن يفيقوا إلا ليروا إخواتهم. فلا يطيقون رؤية آبائهم وأمهاتهم. وتنسى قلوبهم نساءهم وأبناءهم. والماء الحي الذي كان مبذولا لمن يقطن الأرض، لن يكون للأموات. إنها المياه التي أريد...».

وثمة كتابات أكثر تفاؤلاً، ترى في الموت راحة من آلام الحياة. وثمة أخرى تشدد على أن أحداً لم يعد من الموت ليخبرنا ما يحدث بعده، وأن الطقوس المأتمية يقصد منها تعزيتنا فحسب».

غرفة الحقيقتين

إذا بلغ الميت العالم الآخر، كان عليه أن يواجه تجربة صعبة. فعليه أن يقدم بين يدي الآلهة حساباً عن أعماله. ولا قيمة لعدد السنين التي عاش. لكأن السنوات تجمعت في ساعة واحدة.

تجمع أعمل الميت وتوضع إلى جانبه. فمن أتى الآخرة، ومثل بين أيدي قضاة الموت، ولا أخطاء لديه، «غدا مثل الآلهة، ومشى في عالمهم حراً كسادة الأبدية». ولكن عليه قبل ذلك أن يواجه حكم أوزيريس، الذي يجلس في صدر قاعة ضخمة، على منصة ملكية، وحوله إيزيس ونفتيس واثنان وأربعون معاوناً. على الطرف الثاني من المسرح، يظهر الميت يصحبه أنوبيس، الإله الجقل المكلف بالتحنيط. وثمة ميزان منصوب وسط القاعة، يوضع قلب الميت على إحدى كفتيه، بينما قلم يرمز إلى العدالة يوضع على الكفة الأخرى. يراقب انوبيس الوزن، ويدون توت النتيجة. فمن كانت خطاياه لا تعوض، أسلم إلى إلهة مسيخة. على شكل كلبة أحياناً، تتحول أحياناً أخرى إلى شكل مزيج من تمساح وفرس النهر. أما إذا كانت الخطايا أقل من الحسنات، فإن الميت يتقدم من أوزيريس يقوده هوروس. ولكن هذه النتيجة تتطلب كذلك أن يقنع الميت القضاة بأنه بريء، وذلك بنفيه ارتكاب المعاصي.

معظم الموتى يقبلون على المحكمة مثقلين بالآثام، ولكن التقاليد تقضي بنفيها. وكأن القضاة يعتبرون ذلك تكفيراً.

الجنة تغدو ديمقراطية

كانت المعتقدات المتصلة بعودة الحياة والخلود، تقضي بخلود الطبقة الرفيعة. أما العامة فكان حظهم، في الغالب، الفناء، خاصة الفقراء، وكأن الموت لا يساوي بينهم وبين الأغنياء.

ولكن التقاليد تطورت، وغدت المعتقدات أكثر ديموقراطية، عبر مراحل الحقب الفرعونية الثلاث. فأوزيريس القتيل صعد إلى العالم الآخر، عالم الآلهة. وابنه هوروس، حمله الكهنة إلى السماء ليتحد بالإله ـــ الشمس رع، ليحكم مملكة السماء.

ثم عمم هذا التقليد فأصبح كل مخلوق قادراً على أن يبعث في ملكوت السماء، خاصة أولئك الذين كانوا متصلين بالطبقة الرفيعة، ويحتلون المناصب التي كانوا يحتلونها على الأرض.

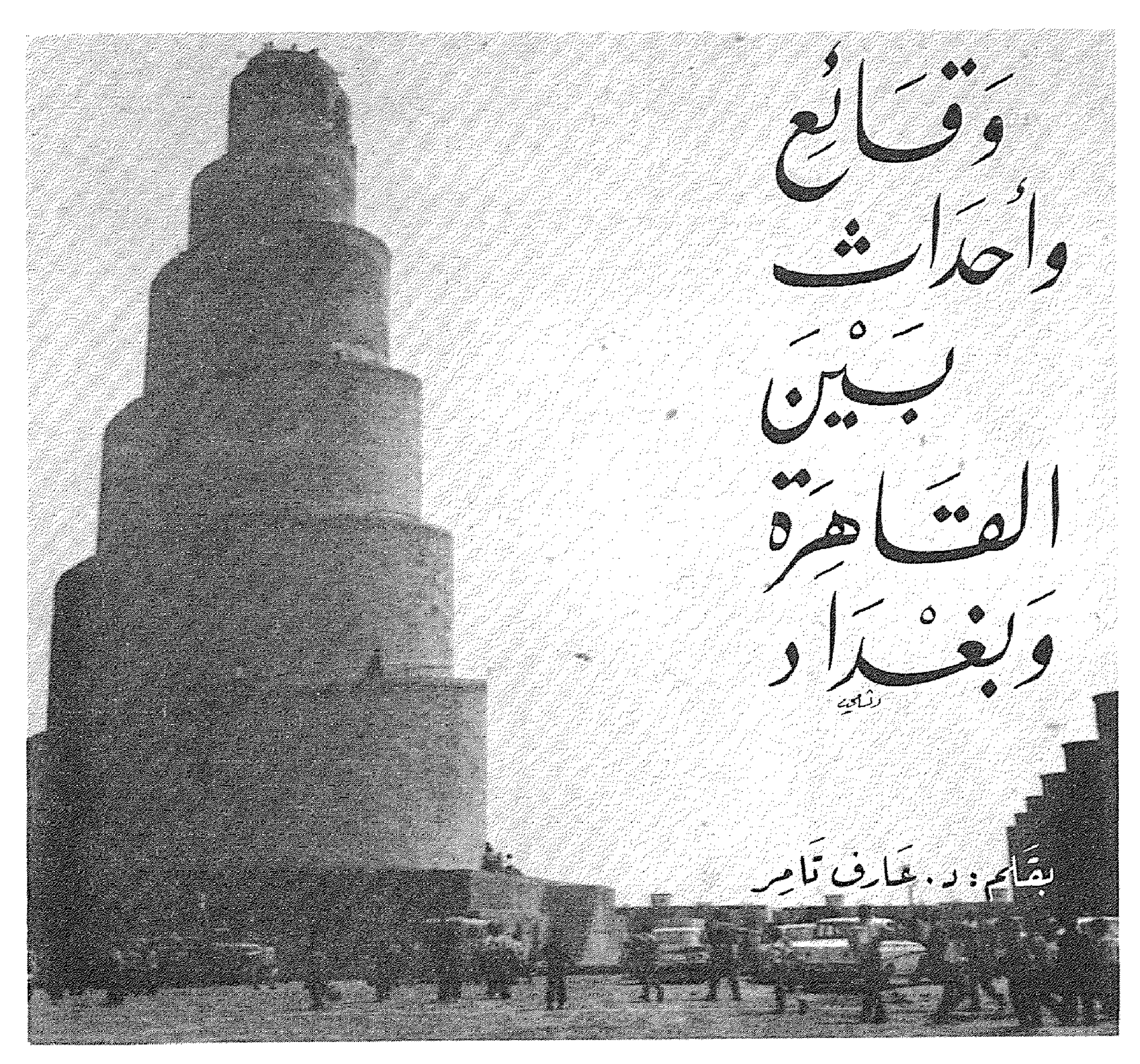
الواقع أن الأمبراطورية القديمة قد ضعفت وتضاءلت سلطتها، وأفسحت إلى ظهور تطور في العقائد، كادت تبلغ حد المساواة بين السادة والرعية في الطقوس الجنايزية خاصة إذ جعل الحكم الأخير في شأن أي مخلوق في يد إلهة العدالة، وقد انتصرت تقاليد مرحلة بوزيريس وآبيدوس على تقاليد هليوبوليس. وبات من حق كل المصريين مهما كانوا من الوضاعة والفقر، أن يبلغوا العالم الآخر. ●

● قال جورج واشنطن مخاطباً الإنجليز: إن تاج ملككم وثروة الأمبراطورية البريطانية. لا يكفيان ثمناً لاستقلال بلادي. حاربوا تفنونا أو نفنيكم.

● إيه أيتها الحرية. كم من الجرائم تقترف بإسمك.

«مدام رولاند»

لا يستطيع الباحث في التاريخ الإسلامي، أن يتناسى أو يضرب صفحاً عن ذكر الوقائع والأحداث التي وقعت بين القاهرة وبغداد، في منتصف القرن الرابع للهجرة... تلك الوقائع التي أغفلها التاريخ القديم، ربما عن قصدٍ، أو عن غير قصدٍ، ولولا مؤرخٍ واحد سجلها في مذكراته، وكشف النقاب عنها، إذن لظلّت راقدة في كهوف النسيان.



□ مسجد السامرا بمئذنته «الملوية»، بناه «المتوكل»، الخليفة العباسي (القرن التاسع ميلادي).



في العام الأربعين بعد الأربعمئة من الهجرة النبوية، كان يحكم العالم الإسلامي دولتان كبيرتان هما: العباسية في بغداد، والفاطمية في القاهرة، وقد يكون من المفيد إعطاء لمحة موجزة عن الحالة السياسية العامة للدولتين في تلك الفترة، وهذا قبل الدخول في صلب الموضوع الرئيسي. فنقول:

كانت الدولة العباسية في تلك الفترة تحكم من غير العرب. فالخليفة العباسي لم يكن يحمل من الخلافة إلّا اسمها. فهو كما قال عن نفسه:

أليسَ منَ العجائبِ أنَّ مثلي
يرى ما كان ممتنعاً لديهِ
وتُحكم باسمه الدنيا جميعاً
ولكن ليس شيئاً في يديهِ

أو كما قال عنه الشاعر دعبل:

خليفةٌ مات لم يحزن له أحدُ
وآخرُ قام لم يفرح به أحدُ

فالسلطة العليا كانت بأيدي قوتين وقيادتين. الأولى تركية وقائدها «ارطغرل» والثانية فارسية وقائدها «البساسيري»(١). ومن الواضح أنه بعد عصر الرشيد الذهبي، جاء المأمون ومعه الفرس، ثم خلفه المعتصم ومعه الأتراك الذين لم يلبثوا أن أصبحوا يشكلون القوة الكبرى في الجيش. وهكذا انحدرت الأوضاع، وأصبحت الدولة خاضعة لقوتين تضمر كل منهما الشر والوقيعة للثانية. فلاح شبح الانهيار مهدداً الدولة بأوخم العواقب، وأصبح الخليفة لا حول ولا قوة، وقد تكون دولته أصيبت بمرض الشيخوخة الذي لا برء منه.

أما الدولة الفاطمية، فلم تكن في حالة أحسن من العباسية، ومن الجدير بالذكر أنها كانت تشكو من ولاة يطمعون ويشجعون على نبذ الطاعة، ومن فسادٍ انتشر في كل مكانٍ، وراح يهدد وينذر، والأقاليم سادها الاضطراب والفوضى، واختل النظام والأمن، وأصبح الحكم للرعاع، مما دعا الخليفة الفاطمي المستنصر بالله إلى استدعاء أحد قواده «بدر الجمالي» من عكا، منوطاً إليه مهمة إعادة الأمور إلى طبيعتها، وتنظيم الدولة بما يكفل إنقاذ الاقتصاد وإعادة الأمن والحياة والازدهار إلى الدولة. وليس بخافٍ ان اليمن بجزئيها الشمالي والجنوبي ارتبطت في تلك الفترة بمصر بعد أن حكمها «الصليحيون».

أما المغرب الذي كان خاضعاً لأسرة «آل زيري الصنهاجي» وهم من البربر، وكان الفاطميون قد أناطوا بهم حكم المغرب ٣٦٥هـ وكالةً، بعد أن نقلوا قاعدة ملكهم إلى مصر، ولكن آخرهم «المعز بن باديس» خلع طاعة الفاطميين، وأعلن انتمائه للعباسيين، مما حفز الخليفة المستنصر بالله على تجنيد القبائل العربية التي كانت في مصر وليبيا وهي: هلال، وزغبة، ورباح، وعدي، وربيعة، وإرسالهم إلى المغرب بقصد الاستيلاء عليه، بعد أن عهد إلى «الحسن بن علي بن ملهم العقيلي» بقيادة تلك الحملة العربية الكبرى، في المغرب انضمت إليهم القبائل العربية التي كانت تقيم هنالك، مما ساعد على الاحتلال، وفي ذلك يقول ابن خلدون:

«وملك العرب الأرباض، وامتزجوا بأهل البلاد، ومنذ ذلك العهد أصبح المغرب عربياً، فقد تقلّد «موسى بن يحيى المرداسي» القيروان وباجة، و«زغبة» طرابلس وقابس، و«الحسن بن سرحان» قسطنطينة.. هذا ويجب أن نشير بأن هذه البادرة الفاطمية سجلها التاريخ بأحرف من ذهب.

ومهما يكن من أمر.. فلا بد لنا من التوجه، ونحن في صدد البحث في تاريخ تلك الفترة إلى رحاب علم من أعلام الأدب والفلسفة والسياسة، وداهية من دهاة ذلك العصر، الذي استطاع بمرونته وتخطيطه، وفصاحة لسانه، وشجاعته أحداث انقلاب عسكري في أكبر دولة عرفها التاريخ الإسلامي.

ذلكم هو «المؤيد في الدين» الذي عرف في تاريخ الأدب بمناظرته «أبي العلاء المعري» ويومئذٍ قال عنه: «وسيدنا الرئيس الأجل المؤيد في الدين، ما زالت حجته باهرة، ودولته عالية... والله لو ناظر ارسطاليس لجاز له ان يفحمه، أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه».

هذا العبقري الخارق لم يكن معروفاً في عالم الأدب، فقد أشار إلى مناظرته مع أبي العلاء المعري المستشرق البريطاني «مارجوليوث» في مقال نشره في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ١٨٩١م. عن نسخة خطية عثر عليها في جامعة

اكسفورد، ويومها أراد مارجوليوث أن يعرفه، أو يذكر شيئاً عن حياته ولكنه لم يوفق، لأن المؤرخين وأصحاب التراجم أغفلوا ذكره، وقد ظلت شخصيته مجهولة حتى ١٩٠٣م. عندما أعاد نشر المناظرة، وعندما ذكر اسمه اعتبر ذلك نصراً علمياً، وفي سنة ١٩٣٢م. نشر الدكتور حسين همداني مقالاً عنه باللغة الانكليزية، أزاح فيه النقاب عن شخصيته ونسبه وتاريخه ثم جاء المستشرق الروسي و. ايڤانوڤ = W.Ivanow فنشر عنه معلومات جديدة مفصّلة وأضاف إليها بيان عن بعض مؤلفاته.

هو: هبة الله بن أبـي عمران موسى بن داءود. ولد في شيراز سنة ٣٩٠هـ وهناك غموض لا يزال يكتنف تاريـخ نشأته وصباه والمدرسة التي تعلّم فيها، فكل ما نعرفـه عنه أن والده كـان من الشخصيات المرمـوقة، ومن دعـاة الفاطميـين الكبار، وبعد وفاته أصبـح هبة الله مسؤولاً عن الدعوة الفاطمية في عموم بلاد فارس والعراق. فاتصل بالسلطان البويهي «أبـي كاليجار» الذي أعجب به واستمـع إليه، وحضر مناظراته مـع علماء الزيدية والمعتزلة، وأمام تفوقه، وإفحامهم بقـوة بيـانـه، ودافـع حجتـه، خضـع إليـه، واستجاب، واعتبره معلمه والمنعم عليه أو مثله الأعلى.. ولا عجب في ذلك فالسلطان أبو كاليجار كـان من الشيعة الزيـدية الذين لا يـؤيـدون العباسيين إلاّ في الظاهر.

أما بالنسبة للمؤيد في الدين فإن ما وصل إليه من التقدير والحظوة لدى السلطان أثار غضب طبقة العلماء والقضـاة، فأعلنـوا عن عدائهم وأخذوا يراقبون تحركاته وفي جعبتهم الحقـد وحب الانتقام.. وتشاء الظروف أن يتصدّع أحد أركان مسجد من مسـاجد مـدينة «الأهـواز» فيذهب المؤيد في الدين للإشراف على ترميمه وتجـديده، وهنـاك أمر بنقش أسمـاء الخلفاء الفاطميين على المحراب والأبواب، ثم أقام خطبة الجمعة في المسجد المذكور باسم خليفة مصر الفاطمي المستنصر بالله، وقد اعتبر هذا العمل تحدياً للعباسيين، فقام قاضي الأهـواز وأرسل كتاباً إلى الخليفة العباسي «القائم بأمر الله» ينعي فيه الدولة العباسية، ويؤكد سقوطهـا بأيـدي المؤيد في الدين، وعلى الأثر أرسل القائم العباسي وزيره «ابن سلمة» إلى شيـراز حامـلا إنذارا للسلطان أبـي كاليجار بإخراج المؤيد في الدين من بلاد فارس وإلا فـإن الخليفة سيستعـين بالأتراك ويوجههم للاستيلاء على ممتلكاته. فخاف أبو كاليجار من عاقبة الأمور، وأوعز إلى المؤيد في الدين بالخروج.

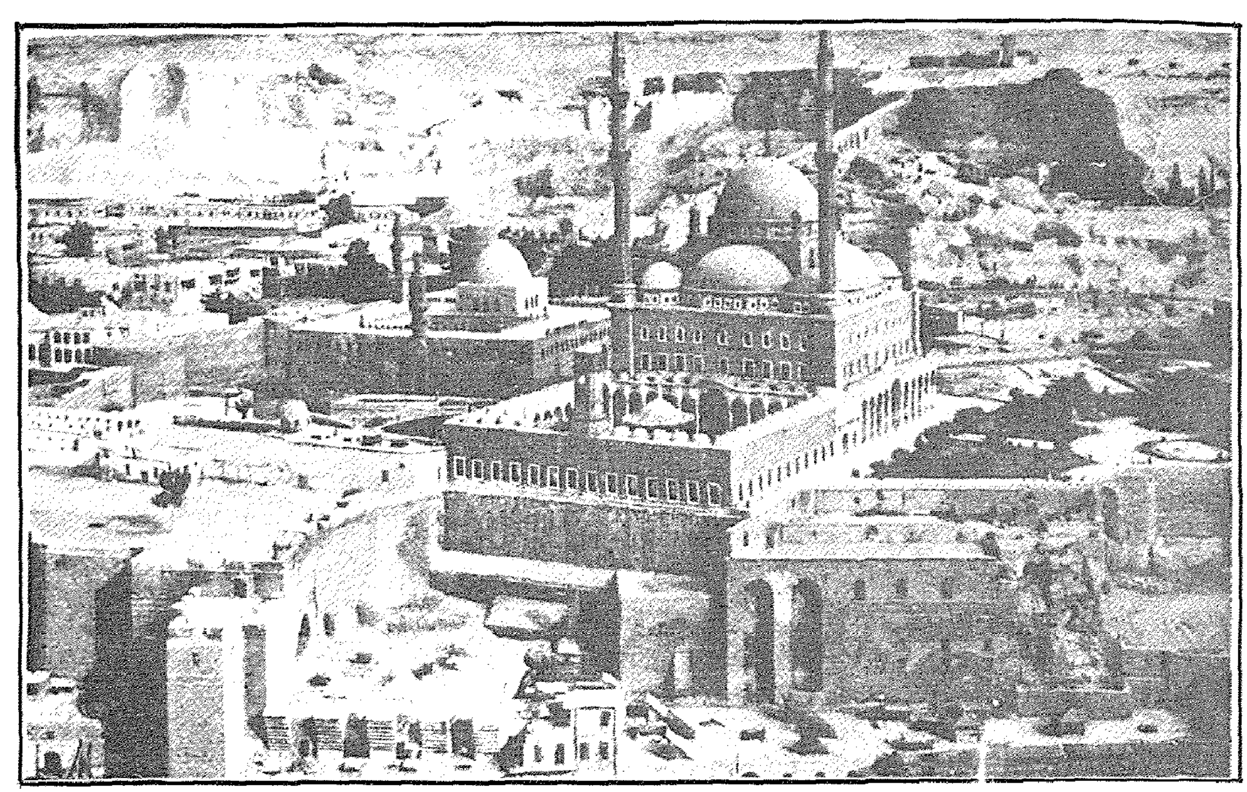
أجل.. خرج المؤيد في الدين من شيراز ميمماً شطر مصر سنة ٤٣٩هـ بعد أن رأى أن لا بد من الخروج... خرج وفي أعماقه خلجة رعناء تزداد ضراماً، ونقمة عارمة تتوقد كلما صحا إلى نفسه، وعاودته الذكريات.

خرج من فارس يحمل لفـح الهجير والزمهرير، ماضياً إلى غايته، مسرعاً وراء هدفه، ولم تكن متاعب الطريق، والصعاب تحـوله عن عزمـه، أو تعيقه عن أمله... خرج من وطنه مرغماً دون أن يكون له في رحلته الشاقة صديقاً أو رفيقاً... إن أشرق الفجر توارى خائفاً، أو جنّ الليل سار متحـرزاً، وفي الحالتـين لا يني عن التفكير في ماضيه وحاضره ومستقبله.. فهـذه الفترة من أكثر الفترات في حياته ألماً وأبعدها يأساً، حتى أنها طبعت نفسه بـطابـع الحقد والضغينـة، وجعلته يميل إلى الانتقام ويؤثر الثأر.

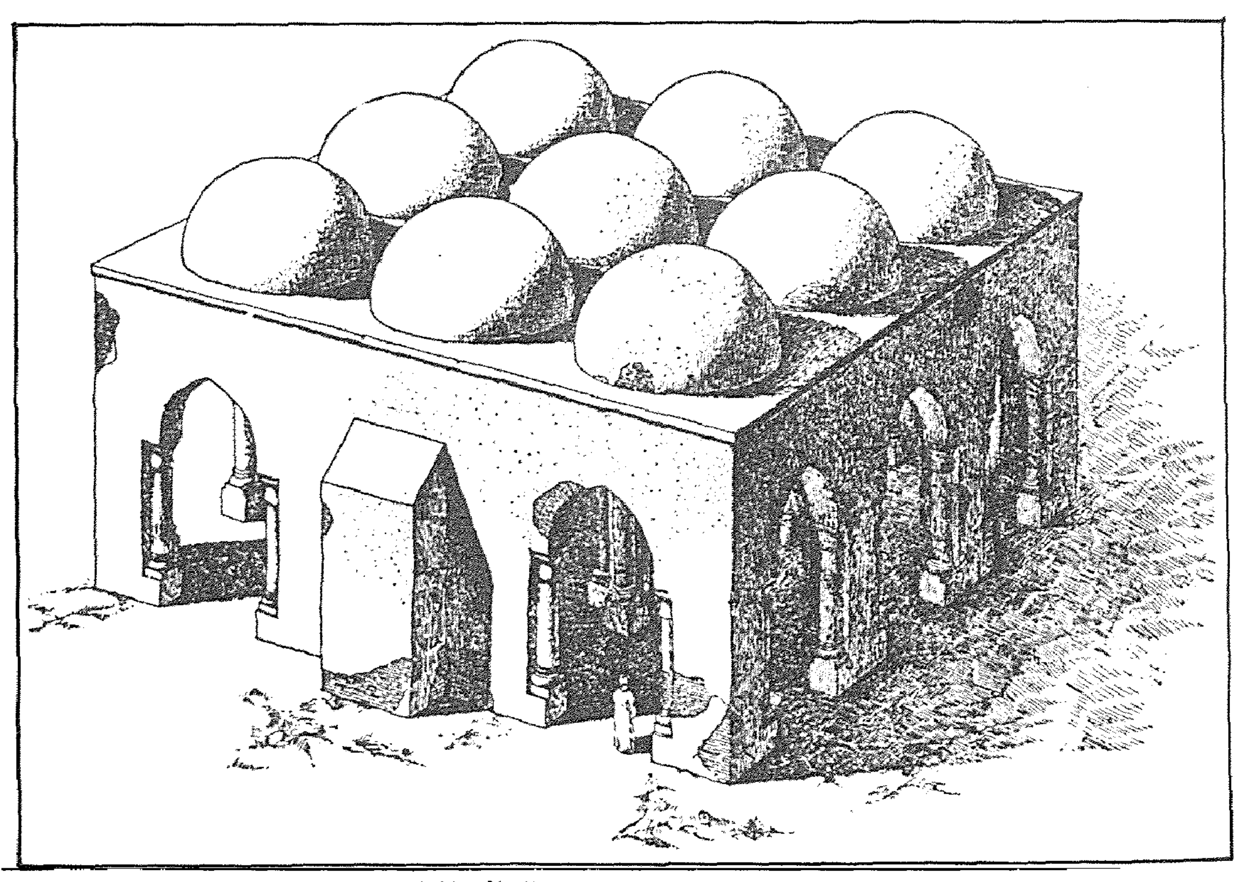
خرج المؤيد في الدين، وهو يتلفت نحو بغداد شزراً، كان يعلم أن الخلافة العباسية في بغداد لا تزال تتسقط أخباره، وأن ساستها والمسؤولين عنها يتجفون عند ذكر اسمه، وكل ذلك يعود إلى تفـوقـه عليهم وانتصـاراتـه في مجـال العلم والدعـاية... فقـد أقض مضـاجعهم وأزعجهم تحليقه في الأجواء كالنسر الذي لا يعشق إلا الأعالي.

خرج وهو يبكي من ألم الفراق.. هناك وطنه وأهله وأخوته، فقد أصماه أن يرغم على الهجرة إلى بلدٍ لا يملك فيها أموالاً ولا أطياناً، لا خيلاً ولا رزقاً، لا صديقاً ولا رفيقاً... وأخيراً:

حطّ الرحال في القاهرة «المعزية» وأمله الوحيد أن يلتقي بالخليفة المستنصر بالله، فلا بد أن يوليه عطفه ويدينه ويكافأه على خدماته وجهاده.. ولكن أنى له الاتصال بالخليفة الذي كان في تلك الفترة يعاني من انقسامات داخلية ذرّت بقرنها في صفوف حاشيته ووزرائه وقواده، فجعلتهم يُعدمون رشـدهم، ويكيدون المكـائد لبعضهم،



□ منظر عام لمسجد الناصر محمد، ومسجد محمد علي والقلعة التي تعود للقرن الثاني عشر.



□ مشهد ال طباطباء النصف الأول من القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي.

ويتامرون حتى على سلامة الدولة.

أجل... كانت أمور الدولة الفاطمية في أيدي حفنة من الوزراء الوصوليين المستغلين، فليست هذه مصر الذي تخيلها المؤيد في الدين، وهذا ما جعله يفكر أكثر من مرة بالرحيل، ولكنه كان يصطدم بإرادة الخليفة الذي أراد له البقاء في مصر، وهكذا عاش بين الدسائس والمؤامرات والوشايات، فكان تارةً يقرّب وتارة يُبعد ـ فهو بين الرضى والغضب.. بين المدّ والجزر.. وكل هذا والخليفة لم يقابله.

وأخيراً:

تقرّب من الوزير أبي سعد بن هرون التستري، وكان واسع النفوذ، ولكن هذا الوزير ماطل وشوّف ثم قتل قبل أن ينفذ وعدَه، وبعد موته لجأ إلى الوزير الفلاّحي فعينه ناظراً على المجلس الخاص بوالدة الخليفة، وعندما عزل الفلاحي وحلّ محله اليازوري خاف هذا الأخير على مركزه من المؤيد الذي كان قريباً من الخليفة، فنقله إلى رئاسة ديوان الإنشاء، وهنا تحسنت حالته المعيشية، وبدأت حياته من جديد، ولكن رجال البلاط آلمهم أن يصل هذا الأعجمي الغريب إلى هذا المنصب الكبير، فحسدوه وبدأوا يكيدون له... ممّا جعله يردد كلما خلا إلى نفسه:

أنا في دار غربة وحقيق
غير بدعٍ أن ذلّ فيها الغريبُ

ويقول:

قد كنت أفترسُ الأسود بفارسٍ
واليوم تنهضُ لافتراسي الشاةُ

ومهما يكن من أمر... فإن المؤيد في الدين مضى في سبيله لا يفكر إلاّ بخدمة الدولة الفاطمية.

وفي تلك الفترة أنس الخليفة إليه، وأخذ يستمع إلى أقواله وآرائه، وبعد دراسات ومشاورات سلّمه مهمة الإشراف على «شؤون المشرق» السياسية ووضع تحت تصرفه كافة الإمكانيات المادية والمعنوية.

وتشاء الظروف أن يزداد نفوذ القائد البويهي البساسيري لدى القائم العباسي، وكانت تربطه بالمؤيد في الدين صداقة متينة وقديمة، كما كان على اتصال به منذ أن وطئت قدماه أرض الكنانة.

وأخيراً:

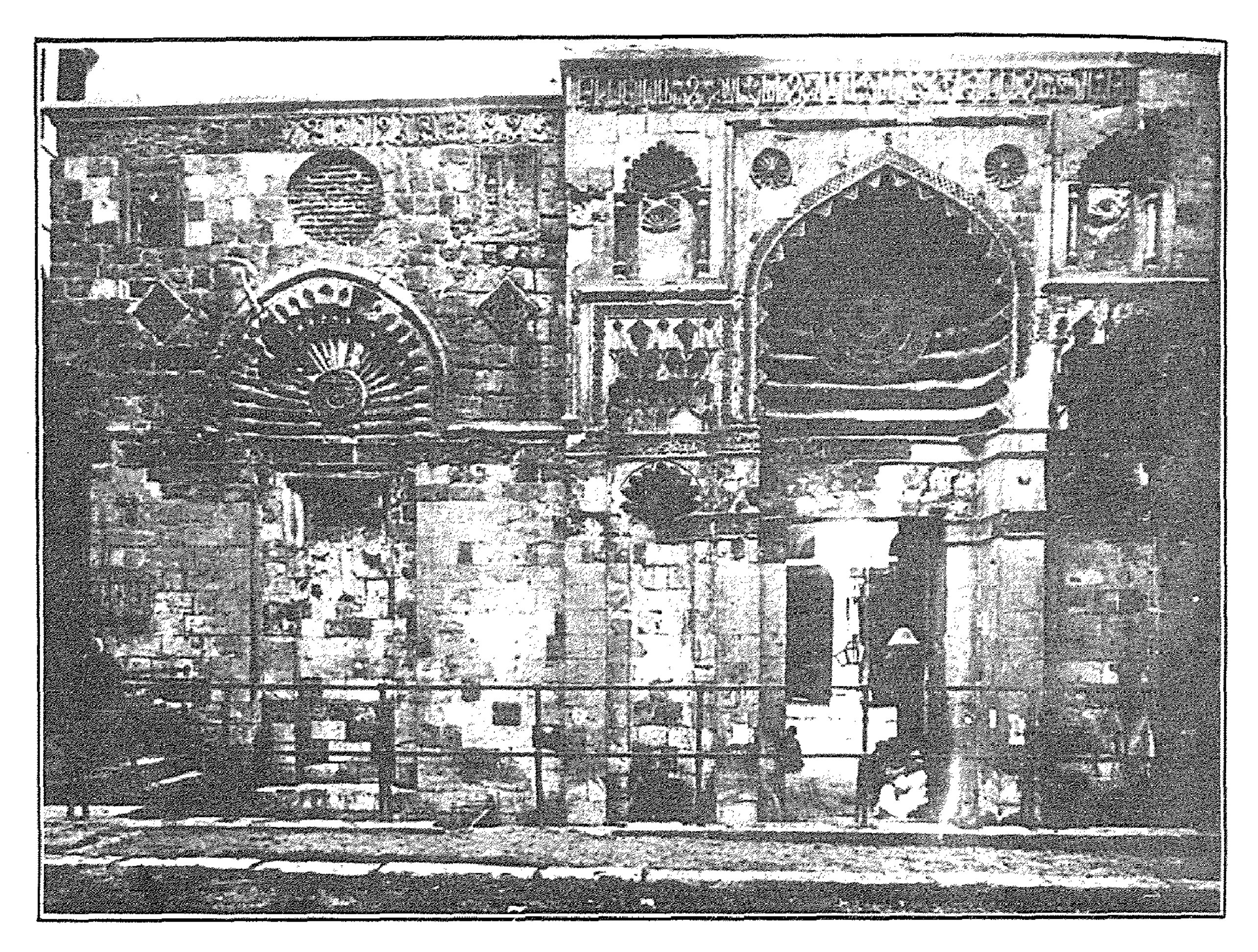
كانت حصيلة الاتصالات الاتفاق على خطة العمل، على أن يعقد الاجتماع الأول في العراق... وعندئذٍ استأذن المؤيد في الدين الخليفة الفاطمي بالسفر، فسمح له وأطلق يده بالعمل لما فيه خير مصر ثم زوّده بالخلع والأموال والهدايا والألقاب.

في الشام... جنّد المؤيد في الدين ثلاثة آلاف رجل من قبيلة بني كلب، وأرسلهم إلى الرحبة ليكونوا تحت إمرة البساسيري، وفي حمص ضرب المؤيد في الدين بأوامر الوزير اليازوري عرض الحائط «وكان قد طلب إليه عدم الاتصال بالمرداسيين أصحاب حلب»، فأرسل إلى «ثمال بن صالح بن مرداس» كتاباً دعاه فيه إلى الاجتماع في قرية «الرستن»، وهناك تمكن بحسن سياسته ومرونته من استمالته، فعقد معه اتفاقية على العمل المشترك، وبعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق، سارا معاً إلى حلب، وفي طريقه عرج على «معرة النعمان» وقضى ليلةً في منزل المعري، ومما تجدر الإشارة إليه أن المؤيد في الدين زار معرة النعمان أكثر من مرة.

وفي معرة النعمان وافاه بعضُ الجند من حرس البساسيري الخاص لمرافقته إلى «الرحبة» ولكنه توقف في حلب لبضعة أيام، حيث تمكن من استقطاب أكثر القبائل العربية، ومنهم: «بنو مروان» أصحاب ديار بكر، «وبني عقيل» أصحاب الموصل، «وبني وثّاب» أصحاب «حران» و«بني مزيد» أمراء عرب الفرات وهم من بني أسد. وأخيراً:

وصل المؤيد في الدين إلى الرحبة، فخرج البساسيري مع أركانه وقواده «لاستقباله» وهنا منحه المؤيد في الدين تأييد الخليفة الفاطمي عطفه وبركاته، وبعد أن عرض الأمور، ودرس الأوضاع، اتصل بنور الدولة دبيس بن مزيد «أمير بني أسد» وأقنعه بضرورة اللحاق به، فوضع قواته بإمرة البساسيري.

في هذه الفترة، وبعد إتمام الاستعدادات للمعركة الكبرى، ارتدى المؤيد في الدين ثياب القائد العسكري الذي يضع الخطط العسكرية، فأمر البساسيري بالزحف نحو بغداد، وكان ذلك سنة ٤٤٨هـ ولكن القائم بأمر الله العباسي جهّز



□ جامع الأقمر ـــ الذي نشاه الفاطميون في مصر (٥١٩ / ١١٢٥م).

جيشاً، وجعل عليه «قتلمش» ابن عم «ارطغرل» و«قريش بن بدران» صاحب الموصل فوصلا سنجار، وفيها دارت الدائرة على العباسيين، ولم يفلتْ من جيشهم سوى مئتي رجل.

ومما يجب أن يذكر أن «قتلمش» لقيَ حتفه في المعركة، بينما لجأ قريش إلى الأمير دبيس الأسدي، فعفا عنه، وضمّه إلى جيشه، بعد أن منحه لقباً فاطمياً. وقد أوحت تلك المعركة الضروس للشاعر «ابن حيُّوس» هذه الأبيات:

عجبتُ لمدعي الآفاق ملكاً
وغايته ببغداد الركودُ
ومن مستخلف بالهون يرضى
يُزاد عن الحياض ولا يزودُ
وأعجبُ منهما سيفٌ بمصر
تقامُ له بسنجار الحدودُ

لم ينم الخليفة العباسي القائم بأمر الله على ما لحق بجيشه، فأوعز إلى القائد التركي «ارطغرل» أن يتسلم القيادة، وأن يتصدّى للمهاجمين. أما المؤيد في الدين فطلب إلى البساسيري التوقف والاستعداد، وعاد إلى منطقة حلب، حيث نزل في موقع «بالس» وهناك قام بعدة اتصالات شملت قبائل «بني عقيل» و«كلّاب» و«نمير» و«خفاجة».. وكانو قد أبوا اللحاق به، فأقنعهم وجندهم»، كما أنه اتصل «بابراهيم بن ينال» أخ «ارطغرل» لأمه، فأغراه بالانفصال عن أخيه، والانضمام إلى الانقلابين، بعد أن مناه بالدعم الفاطمي ليكون صاحب الأمر في المستقبل، وبعد أن تم كل هذا، أوعز إلى البساسيري بالزحف لاحتلال بغداد، فدخلها بعد معركةٍ داميةٍ مع «ارطغرل» بين أناشيد الجماهير الذين استقبلوه وحماسهم، وكانوا يردّدون:

يا بني العبّاس صدّوا
ملك الأمر معدُّ[٢]
ملككم كان معاراً
والعواري تُستردُّ

كان ذلك سنة ٤٥٠هـ وفي ذلك اليوم، اتخذ



الخليفه العباسي القائم قرارا بالخروج من بغداد، ولكن القائد البساسيري لم يسمح له إلا بعد أن كتب وثيقة التنازل عن الخلافة، وبعد أن سلّم ثوبه وعمامته وعرشه، فأرسلهم البساسيري إلى الخليفة الفاطمي في مصر علامة النصر، ثم سمح له بعد ذلك بالخروج فذهب إلى «حديثة عانة» القريبة من الأنبار فأقام فيها منزوياً، أما بغداد فأصبحت تابعة للقاهرة المعزية ولأول مرة في التاريخ.

بعد هذه الانتصارات الرائعة التي حققها المؤيد في الدين، أنعم عليه الخليفة المستنصر بالله بمرتبة «داعي الدعاة» ولكن هذا المركز لم يكن ليثنيه عن العمل في السياسة وإكمال رسالته، فطلب من الخليفة المزيد من الأموال والمساعدات للبساسيري، كما نصح بإرسال جيوش فاطمية إلى بغداد لحمايتها ودعم البساسيري، ولكن الخليفة الفاطمي لم يستجب له، ولا أحد يدري الأسباب؟ غير أن بعض المؤرخين يربطون بين هذا الإهمال وبين الأزمة الاقتصادية التي كانت تعصف بمصر خاصة وأن الحملة الفاطمية كلّفت مصر من الأموال ما لا يحصى. وكل هذا ساعد ارطغرل على شن هجوم على بغداد وإخراج البساسيري وفرسان القبائل العربية الذين دبّ بينهم الاختلاف ثم أعاد الخليفة القائم بأمر الله إلى قاعدته، ونزع شعارات الفاطميين وكل آثارهم.

إلى هنا... طويت صفحة من تاريخ المؤيد في الدين، وإلى هنا توقف نشاطه السياسي... فعند عودته إلى القاهرة لم يقابله أحد، ولم يتحدث عن انتصاراته سوى قلة من الناس... والظاهر أنه فاء إلى العزلة متفرغاً لشؤون أخرى أكثرها علمية، وبالرغم من عزلته فإن التاريخ الفاطمي ذكر بأن الوزير «عبد الله بن المدبر» نفاه إلى القدس، ثم أعيد بعد فترة قصيرة إلى القاهرة فتوفي في سنة ٤٧٠هـ ودفن في دار العلم.. ولم يكن ينسى حاله وموقفه فيقول:

أبحتُ حمى دمي فيهم وفيهم
خسرتُ شبيبتي وربيع عمري
ومنهم سرتُ عن وطني غريباً
أجوبُ الأرض قفراً بعد قفر
أضاعوني وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

للمؤيد في الدين مؤلفات عديدة، بعضها فقد، وبعضها لم يطبع... وأهمها:

المجالس المؤيدية[٣].. والمجالس المستنصرية... ديوان شعر[٤]... مذكرات المؤيد في الدين[٥]، كتاب: شرح المعاد، الإيضاح والتبصير، الابتداء والانتهاء، المسألة والجواب، تأويل الأرواح، وغيرهم.

الهوامش

(١) هو أبو الحارث أرسلان البساسيري. ينتمي إلى البويهيين الزيديين الشيعة، وهو من بلدة «بسا» القريبة من مدينة شيراز الفارسية.

(٢) معد: اسم الخليفة المستنصر بالله الفاطمي.

(٣) المجالس المؤيدية.. وهي ثمانمائة مجلس أي (محاضرة) كان يلقيهم على الطلاّب في دار العلم بالقاهرة.

(٤) ديوان شعر.. تحت الطبع حققه الدكتور عارف تامر.

(٥) مذكرات المؤيد في الدين.. حققه د. عارف تامر.. طبع مؤسسة عز الدين للطباعة.. بيروت — لبنان.





عمرو بن العاص، وفتح مصر

إعداد : شذا عدره

يتميز عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب بظهور المؤسسات الاجتماعية الكبرى «كالديوان» لدفع رواتب الجيش و«الأمصار» لتحديد قاعدات الأجناد ومدن الإسلام الكبرى ومراكز القضاة. وقد كان عهده عهد الفتوحات الإسلامية وبالتالي عهد الأمصار البعيدة التي استوجبت إبرام معاهدات مع أهاليها.

وفتح مصر، وما تبعه من إبرام معاهدات مع أهلها، نعرضها في هذا العدد، إلى جانب الوثائق التي رافقت ذلك الفتح في كتب تبادلها الخليفة عمر وعامله عمرو بن العاص، فاتح مصر.

كتاب عمر إلى عمرو بن العاص حين سار لفتح مصر

بع ص ٥٨

إن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر، فارجعْ إلى موضعك. وإن كنت دخلتها فامضِ لوجهك.

كتاب الخليفة إلى عمرو بن العاص عامل مصر

«نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي (طبع بطرسبرك) ص ١٠٩.

أما بعد يا عمرو: إذا أتاك كتابي فابعثْ إليّ جوابه، تصف لي مصر ونيلها وأوضاعها، وما هي عليه حتى كأنني حاضرها.

جواب عمرو في وصف مصر

نخبة الدهر لمحمد بن أبي طالب ص ١٠٩ ـــ ١١٠ (وروايتها مخرومة في عدة أماكن) ـــ التراتيب الإدارية للكتاني ج ٢ ص ٢٦٦ ـــ ٢٦٧ (عن النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ١ ص ٣٢ ـــ ٣٣).

فأعاد عليه عمرو بن العاص مكتوباً جوابَ كتابه:

بسم الله الرحمن الرحيم.

أمـا بعد: يـا أمير المؤمنين فـإنهـا تـربـة غبـراء، وحشيشـة خضـراء، بـين جبلين، جبـل رمـل كـأنّـه بـطن أقبّ وظهـر أجبّ. ورزقهـا مـا بـين أسـوان إلى منشـا من البـر. يخط وسـطهـا نهـر مبارك الغـدوات، ميمـون الروحـات. يجـري بـالزيـادة والنقـصـان، كمجـاري الشمس والقمـر. له أوان تـظهـر إليـه عيـون الأرض منـابعهـا مسخـرة له بـذلك ومـأمـورة له. حـتى اطلخـمّ عـجـاجـه، وتـغـطت أمـواجـه، واغـولوت لجـجـه، لم يـبـق الخـلاص إلى القـرى بـعضـهـا إلى بـعض، إلا في خـفـاف القـوارب، أو صـغـار المـراكـب، التي كـأنهـا في الحبـائـل وُرق الأبـابيـل. ثم أعـاد بعـد انتهـاء أجله نكص عـلى عَقِبه، كأول ما بدا، في دربـه وطما في سـربه. ثم استبـان مكنونهـا ومخزونهـا. ثم انتشـرت بعد ذلك أمـة مخفورة، وذمّـة مغفورة لغيـرهم ما سعـوا بـه من كـدهم ومـا ينـالوا بجهـدهم، شعثـوا بـطون الأرض وروابيهـا. ورمـوا فيهـا من الحبّ أمـا يرجـون به من التمـام من الربّ. حتى إذا أحـدق فـاستبق وأسبـل قنـواتـه سقى الله من فـوقـه النـدى، ورواه من تحتـه بـالثرى. وربمـا كـانٍ سحـاب مكفهـر وربمـا لم يكن. وفي زمـاننـا ذلك، يـا أمـير المـؤمنـين، مـا يغنّى ذبـابـه ويـدرّ حـلابـه. فـبينـمـا هـي بـريـة غـبـراء، إذ هـي لُجـة زرقـاء، إذ هـي سنـدسيـة خضـراء، إذ هي ديبـاجـة رقشـاء، إذ هـي درّة بيضـاء، إذ هي حلّة سوداء. فتبارك الله أحسن الخالقين.

وفـيهـا مـا يـصلـح أحـوال أهـلهـا ثـلاثـة أشيـاء: أولهـا: لا تُـقبـل قـول رئيسـهـا عـلى خسيسـهـا. والثـاني: يُـوخـذ ارتـفـاعهـا (...؟) يـصـرف في عـمـارة تُـرعهـا وجسـورهـا. والثـالث: لا يُستـأدى خـراج كـل صـنـف إلا منه عند استهلاله.

والسلام

(٢) الكتاني: ...

(٣) الكتاني: .. مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها شهر.

(٤ ــ ٥) الكتاني: يكتنفها جبل اغبر ورمل اغفر... يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات.

(٦ ــ ٧) الكتاني: كجري الشمس ــ تظهر به ــ ينابيعها.

(٧ ــ ٩) الكتاني: ... حتى إذا عـج عجيجه وتعظمت أمواجه... لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض.

(٩) النخبة: في حقاف العقاب.

(٩ ــ ١٠) الكتاني: المراكب فإذا تكامل في الزيادة نكص.

(١١ ــ ١٩) الكتاني: شدته وطمى في حدته فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب حتى إذا أشرق وأشرف سقاه من فوقه الندى وغذاه من تحته الثرى فعند ذلك يدر حلابه ويغنى ذبابه فبينما هي يا أمير المؤمنين درة بيضاء إذا هي عنبرة سوداء وإذا هي زبرجدة خضراء فتعالى الله الفعال لمايشاء الذي يصلح هذه البلاد وينميها.

(٢٠ ــ ٢١) الكتاني: ... ان لا يقبل قول خسيسها في رئيسها.

(٢١ ــ ٢٣) الكتاني: ... وان لا يستادى خراج ثمرة إلا في أوانها وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها إذا تقرر الحال مـع العمال في هذه الأحوال تضاعف المال والله تعالى يوفق في المبتدأ والمآل.

(٢٤) الكتاني: ...

معاهدة مع أهل مصر

طب ص ٢٥٨٧ ــ ٨٩ ــ قلقش ج ص ٣٢٤

قابل بـع ع ٣٨٥

وانظر لين بول ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠ ــ بتلر (Butler, Treaty of Misr)

لما نزل عمرو بن العاص على القوم بعين شمس، وكان المُلك بين القِبط والنُوب، ناهدوه فقاتلهم؛ وارتقى الزبير بن العوام سورها ونزل عليهم عنوةً، فاعتقدوا بعد ما أشرفوا على الهلكة، فأجروا ما أخذوا عنوةً، مجرى ما صالح عليه، فصاروا ذمة وكان صلحهم: بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان، على أنفسهم وملتهم وكنائسهم وصلبهم وبَرّهم وبحرهم. لا يدخل عليهم شيء من ذلك، ولا ينتقص، ولا يُساكنهم النوبُ. وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف. وما عليهم ما جنى لُصوتهم. فإن أبى أحد منهم أن يجيب رُفع عنهم من الجزاء بقدرهم. وذمتنا ممن أبى بريئة. وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى، رُفع عنهم بقدر ذلك.

ومَن دَخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم. وعليه مثل ما عليهم. ومن أبى واختار الذَهاب فهو آمِنٌ، حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثاً، في كلّ ثُلث جباية ثُلثِ ما عليهم.

على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته، وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمم المؤمنين.

وعلى النُوبة الذين استجابوا: أن يعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرساً، على أن لا يُغزَوا، ولا يُمنَعوا من تجارة صادرة ولا واردة.

شهد الزبير، وعبد الله، ومحمد ابناه، وكتب وردان وحضر.

(٨) قلقش: تساكنهم.

(١٠) قلقش: وعليه ممن جنى نصرتهم.

(١١) قلقش: الجزي.

(١٣ ــ ١٤) قلقش: النوبة فله ما لهم وعليه ما عليهم.

معاهدات وقت فتح مصر

الأموال لابن زنجويه (خطية) ورقة ٤٩ / الف

ــ الأموال لأبي عبيد، ع ٣٨٥

أبو عبيد... قال: سألت شيخاً من القدماء: هل كان لأهل مصر عهد؟ قال: نعم. قلت: فهل كان لهم كتاب؟ قال: نعم، كتاب عند طَلما صاحب إخنا، وكتاب عند فلان، وكتاب عند فلان. قلت: فكيف كان عهدهم؟ قال: عليهم ديناران من الجزية، ورزق المسلمين. قلت: أتعلم ما كان لهم من الشروط؟ قال: نعم، ستة شروط: أن لا يُخرَجوا من ديارهم، ولا يفزع نساؤهم ولا أبناؤهم، ولا كنوزهم، ولا أرضوهم، ولا يزاد عليهم.

... هم ستة شروط منها أن لا يُؤخذ من أرضهم شيء، ولا يزاد عليهم، ولا يكلّفوا فوق طاقتهم. ولا تؤخذ ذراريهم، وأن يقاتَل عدوهم من ورائهم.

قال أبو عبيدة: فقد اختلفت الأخبار في أمرهم، وأنا أقول: إن الأمرين جميعاً قد كانا، وقد صدق الخبران كلاهما. لأنها فُتحتْ مرتين. فكانت المرة الأولى صلحاً، ثم انتكست الروم عليهم، ففُتحت الثانية عنوة.

كتاب عمرو بن العاص في فتح الإسكندرية ثانياً

الأموال لأبي عبيد، ع ٣٨٧ ــ الأموال لابن زنجويه (خطية) ورقة ٤٩/ب

إن المقوقس الذي كان على مصر كان صالح عمرو بن العاص، فلم يرض به هرقلُ وبعث الجيوش فأغلقوا الإسكندرية وآذنوا عمرو بن العاص بالحرب. فقاتلهم، وكتب إلى عمر بن الخطاب:

أما بعد: فإن الله تبارك وتعالى فتح علينا الإسكندرية عنوة وقسراً، بلا عهد ولا عقد.

كتاب عمر في عدم تقسيم مصر كالغنيمة

الأموال لابن زنجويه (خطية) ورقة ٢١ / ب

سفيان بن وهب الخولاني يقول: فتحنا مصر بغير عهد. فقام الزبير بن العوام فقال: اقسمها يا عمرو بن العاص. فقال عمرو: لا أقسمها... حتى أكتب إلى أمير المؤمنين. فكتب إليه.

ولم يرو نص الكتاب.

فكتب عمر بن الخطاب أن:

أقررْها حتى يغزو منها [ما] حبل الحبلةُ.

حل رموز الاختصارات المستعملة في أوائل الوثائق

الف... طرف الوجه من ورقة المخطوطة.
ب... طرف الظهر من ورقة المخطوطة.
با... سيرة ابن إسحاق (ترجمتها الفارسية).
بث... أسد الغابة لابن الأثير.
بح... الإصابة لابن حجر.
بحز... ابن حزم.
بحن... مسند أحمد بن حنبل.
بد... سنن أبي داود.
بس... طبقات ابن سعد.
بسن... سيرة ابن سيد الناس.
بط... إعلام السائلين لابن طولون.
بع... أبو عبيد.
بعب... الاستيعاب لابن عبد البر.
بعح... ابن عبد الحكم.
بعر... ابن عبد ربه.
بق... زاد المعاد لابن القيم.
بك... ابن كثير.
بلا... فتوح البلدان للبلاذري.
به... سيرة ابن هشام.
بيو... الخراج لأبي يوسف.
ديب... الديبلي.
طب... تاريخ الطبري.
عمخ... عبد المنعم خان.
قس... القسطلاني.
قلقش... القلقشندي.
ج... الجزء أو المجلد.
س... سطر.
ص... الصفحة.
ع... عدد أو رقم والمراد به عند ذكر طبقات ابن سعد مثلاً ترقيم ويلهاوزن في طبعه نخباً من هذا الكتاب واشرنا سوى هذا إلى عدد الجزء والصفحة من الطبعة اللايدنية. أو رقم الفصل في كتاب (الأموال)، أو رقم الحديث في كنز العمال وغير ذلك.
ف... الفقرة والفصل.
+ [ ]... علامة الإضافة والمضاف.
.... علامة الحذف في بيان اختلاف الرواية.
ـــ... علامة الاستمرار أو التكرار في الروايتين.
قابل... يشير إلى الروايات غير الكاملة من الوثائق أو الاقتباسات.
انظر... يشير إلى البحوث الحديثة.

موسى بن نصير



هذه صفحة من حياة قائد عظيم كانت له اليد البيضاء في إنشاء دولة إسلامية رفعت لواء الإسلام في غربي أوروبا، ومدت فيه ظلال العدل، وبسطت أنوار العلم؛ والمدنية الباهرة، ذلك هو أبو عبد الرحمن موسى ابن نصير فاتح الأندلس.

يقول بعض المؤرخين: إن موسى ابن نصير من قبيلة لخم، أو من قبيلة بكر ابن وائل، وهو عربي صريح؛ وأشهر ما قيل فيه إنه كان مولى لعبد العزيز بن مروان.

نشأ موسى بن نصير في وادي القرى بالحجاز، وخدم بني مروان بدمشق، وتنبه شأنه فقلدوه أعمالا في ممالكهم. ويروى أن أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان لما ابتنى بها الوليد كانت ترفع عنده مكانة موسى بن نصير حتى بلغ ما سنحدثك عنه بتلخيص وإيجاز:

كان موسى بن نصير من التابعين، وولد في خلافة عمر بن الخطاب سنة ١٩هـ وأخذ عن بعض الصحابة كتميم الداري، وكان والده نصير على حرس معاوية بن أبي سفيان، وله عنده مكانة، ولكنه امتنع من أن يدخل معه في حرب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

عهد الوليد بن عبد الملك إلى موسى ابن نصير بولاية بلاد المغرب سنة ٨٨ أو سنة ٨٩، فنزل القيروان، وخرج فاتحا يقص أثر البربر لا يدافعه أحد حتى بلغ «طنجة» ودان له سائر البربر بالطاعة، فاستعمل على طنجة وأعمالها طارق بن زياد، وقفل راجعاً إلى القيروان.

ولما استتب له الأمر بالمغرب استأذن الخليفة في غزو الأندلس، فأذن له، وبعث إلى طارق فأمره بفتحها، فعبر طارق البحر ونزل بالجبل الذي سمي من بعد «جبل طارق» وانساب في أرض الأندلس بجيش مؤلف من اثني عشر ألف مقاتل، ففتح جانباً عظيماً من البلاد، وأبلغ موسى ما لاقاه، فلم يرتح موسى لانفراد طارق بفضل هذا الفتح الباهر، فحفزته الغيرة إلى أن تكون القيادة العملية بيده، فكتب إلى طارق يأمره بأن لا يتجاوز المكان الذي يصل إليه الكتاب فيه، حتى يلحق به؛ ولكن طارقاً استشار قواد الجيش فأشاروا بمواصلة الغزو خشية أن يجد جماعات المنهزمين من الأعداء فرصة التجمع والاتحاد ثم الكر على المسلمين، فأخذ طارق برأيهم ومضى في سبيله؛ ثم قدم موسى في جيش ضخم سنة ٩٣ واشتد في توبيخ طارق إذ خالف ما أمره به من وقف الجهاد.

ولما نجح موسى في غزو الأندلس طمحت همته إلى مواصلة الفتوحات حتى يتوغل في أحشاء أوروبا، وينفذ منها إلى القسطنطينية «الاستانة» حتى يصل إلى الشام. وانتهى خبر هذا إلى الخليفة فرأى أن ما همّ به موسى غرر بالمسلمين، فبعث ينكر عليه هذا الاتجاه، ويستدعيه وطارقاً إلى دار الخلافة، فأقام موسى ابنه عبد العزيز حاكماً بالأندلس، ودخل الشرق سنة ٩٥ يصحبه طارق، فوصلا إلى الشام. وها هنا يذكر المؤرخون أن الوليد طرأ عليه مرض ثقيل، ولما علم سليمان بن عبد الملك ولّي عهده بقرب وصول موسى أراد تأخير الاحتفال بقدوم فاتح الأندلس إلى أول خلافته حتى يكون له فخر هذا الفتح، فكتب إلى موسى يأمره بأن يؤخر قدومه إلى دمشق أياماً، ووافاه الكتاب وهو في طبرية فلسطين فلم يعمل به، ودخل دمشق في حياة الوليد.

ولما مات الوليد نكبه سليمان لمخالفته أمره بالمسارعة في دخول دمشق. ويذكر بعض



المؤرخين أن موسى بن نصير قدم على سليمان حين استخلف، وإنما نكبه لأن طارقاً سبق بالشكاية منه إلى سليمان ورماه بجولان يده في بعض الغنائم، فوجد سليمان ضغيناً عليه، واستقبله بالتأنيب، وعزله عن جميع أعماله. وههنا روايات في وصف نكبته لا تخلو من مبالغة فيما يظهر، ومن بين هذه الروايات رواية قد يؤخذ منها أن سليمان لم يتجاوز توبيخه وعزله عن جميع الأعمال؛ فقد جاء في تاريخ ابن خلكان ما يأتي: «ولما وصل موسى إلى الشام ومات الوليد بن عبد الملك وقام من بعده سليمان وحج في سنة ٩٧ للهجرة، حج معه موسى بن نصير، ومات في الطريق بوادي القرى؛ وقيل بمر الظهران، على اختلاف فيه».

ثبّت موسى بن نصير دعائم الإسلام في بلاد المغرب، وكان يقصد من فتوحه نشر الدعوة الإسلامية لا بسط سلطان الدولة وحده، إذ ورد في أعماله الماجدة أنه كان يخصص رجالاً من العرب متفقهين في الدين لتعليم البربر القرآن وفرائض الصلاة، كما فعل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من قبله.

وكان موسى بن نصير معروفاً بالحزم واليقظة والدهاء، وقد شهد له بهذا عظيم من عظماء الدولة الأموية، وهو يزيد بن المهلب: يروى في سيرة موسى بن نصير أنه لما تنكر له سليمان بن عبد الملك، لاذ بيزيد بن المهلب لمكانته من سليمان وطلب منه أن يكلمه في شأنه، فقال له يزيد: لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكايد الحروب ومداراة الدنيا، فكيف حصلت في يد هذا الرجل بعد ما ملكت الأندلس، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار؟ فقال له موسى: يا بن الكرام ليس هذا وقت تعديد، أما سمعت: «إذا جاء الحين غطى على العين»!.

كان موسى بن نصير ثاقب الفكر في وجوه السياسة الدولية والحربية، ويكفي شاهداً على هذا أنه ولي أمر ما وراء مصر إلى البحر المحيط، فأحكم تدبير شؤونه، وأخضع قبائل البربر، وفتح معظم بلاد الأندلس، ولم يهزم له جيش قط.

وكان رحمه الله فصيحاً بليغاً؛ قال صاحب نفح الطيب: «أما معارفه الأدبية، فقد جاءت عنه بلاغة في النثر والنظم تدخله مع نزارتها في أصحاب در الكلام».

وكان عامر القلب بإجلال الخالق جل شأنه؛ وقع قحط شديد بالمغرب، فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين، وخرج بهم إلى الصحراء لصلاة الاستقساء وخطبهم، فقيل له: ألا تدعو لأمير المؤمنين الوليد؟ فقال: هذا مقام لا يذكر فيه غير الله!.

حفظ التاريخ لموسى بن نصير مقابلته لما قام به طارق من الفتح بشيء من الجفاء، ولكن ما حفظه له من الهمم الشامخة والأعمال الفاخرة، يغطي على تلك الهفوة ولا سيما هفوة جاءت في طريق طموحه إلى وضع لبنات جديدة في بناء مجده الأثيل.

وإذا كان سليمان بن عبد الملك قابل هذا القائد العظيم بجفاء واضطهاد، فإن قلوب الأمة على اختلاف طبقاتها، قد امتلأت بإكباره؛ والبطل الهمام من يرتاح لرضا الأمة أكبر من إقبال الدولة.

●



أسْدُود

قسم التوثيق والأبحاث



قرية عربية تقع شمالي الشمال الشرقي لغزة على الطريق الرئيسية للسهل الساحلي وترتبط بالقدس بطرق معبدة. فيها محطة سكة حديد يمر بها خط القنطرة ــ حيفا.

نشأت القرية على ربوة ترتفع ٤٢م فوق سطح البحر، وتبعد عن شاطىء البحر المتوسط نحو ٥ كم، وتبعد ٦ كم عن نهر صقرير الذي يمر بشمالها في طريقه إلى البحر المتوسط.

يرجع تاريخ أسدود، كما دلت الحفريات الأثرية الأخيرة، إلى القرن السابع عشر قبل الميلاد، وسكانها الأولون هم العناقيون، وهم من القبائل الكنعانية التي سكنت الساحل الفلسطيني وجنوب فلسطين في العصور القديمة. وقد أطلق العناقيون على المدينة اسم «أشدود» بمعنى الحصن. وكانت أسدود منذ ذلك الزمن القديم ميناء هاماً ومركزاً تجارياً. وفي القرن الثاني عشر قبل الميلاد نزل الفلسطينيون الساحل الفلسطيني وجعلوا أسدود إحدى مدنهم الخمس الرئيسية، ومركز عبادة إلههم داجون، وفي حوالي عام ١٠٥٠ ق.م. هاجم اليهود أسدود، ولكن الفلسطينيين انتصروا عليهم انتصاراً باهراً في معركة رأس العين قرب يافا، واستولوا على «تابوت العهد» الذي كان يحفظ فيه اليهود شرائعهم، ووضعوه في هيكل داجون، وبعد ذلك بحوالي ثلاثة قرون هاجم عزاريا ملك يهودا المدينة مرة أخرى وهدم أسوارها.

وقد دلت الحفريات الأثرية التي جرت في الستينات من هذا القرن على أن أسدود الفلسطينية كانت على جانب كبير من الحضارة والغنى المادي. وقد اكتشفت فيها أختام كتبت بخط غير معروف وألواح وأوان دينية مختلفة. بيد أن وقوع المدينة على الطريق الساحلي الذي يصل بين سورية ومصر جر عليها كثيراً من ويلات الحروب، وخاصة تلك التي نشبت بين الآشوريين والمصريين ففي سنة ٦٣٤ ق.م. استسلمت المدينة إلى تغلات بلاسر الثالث ملك أشور. وفي سنة ٧١٥ ق.م. نشبت فيها ثورة ضد الأشوريين بتحريض من شاباقا فرعون مصر، فأرسل صارغون الثاني ملك أشور قواته لمحاصرتها، ودام الحصار أكثر من ثلاث سنوات تمكن في نهايتها (٧١١ ق.م.) من اقتحام المدينة وإخضاع ملكها، وأسكن فيها مستوطنين أشوريين. وأصبحت أسدود من ثم عاصمة لولاية أشورية. وفي عهد أشور بانيبال (٦٦٨ ــ ٦٢٥ ق.م.) فرض بساميتكوس فرعون مصر الحصار على أسدود. ووصف المؤرخ هيرودوتس هذا الحصار بأنه أطول حصار في التاريخ، لأن المصريين لم يتمكنوا من أخذها إلا بعد ٢٩ سنة (٦٥٩ ــ ٦٣٠ ق.م.).

وفي القرن السادس قبل الميلاد كانت أسدود عاصمة الفلسطينيين مدينة مزدهرة للغاية مما جعل هيرودوتس يسميها «مدينة سورية الكبرى». ولما استولى الفرس على مصر في أواخر هذا القرن استولوا في طريقهم على أسدود وكل فلسطين. وقد قاوم أهالي أسدود إرجاع اليهود من بابل إلى القدس، وندد نحميا حاكم

القدس اليهودي الموالي للفرس بالفلسطينيين في أسدود الذين كانوا يتكلمون بلسان غير يهودي، وهاجم زواج اليهود من بنات أسدود الوثنيات.

وفي القرن الرابع قبل الميلاد وقعت أسدود تحت سيطرة الاسكندر المقدوني وبقيت في العصر الهليني عاصمة لمنطقتها، وعرفت إذ ذاك باسم أزوتوس Azotus. وعلى الرغم من أن أسدود عانت النزاعات المستمرة بين البطالسة والسلوقيين خلفاء الاسكندر في مصر وسورية فإنها شاركت في ازدهار المدن في العصر الهليني.

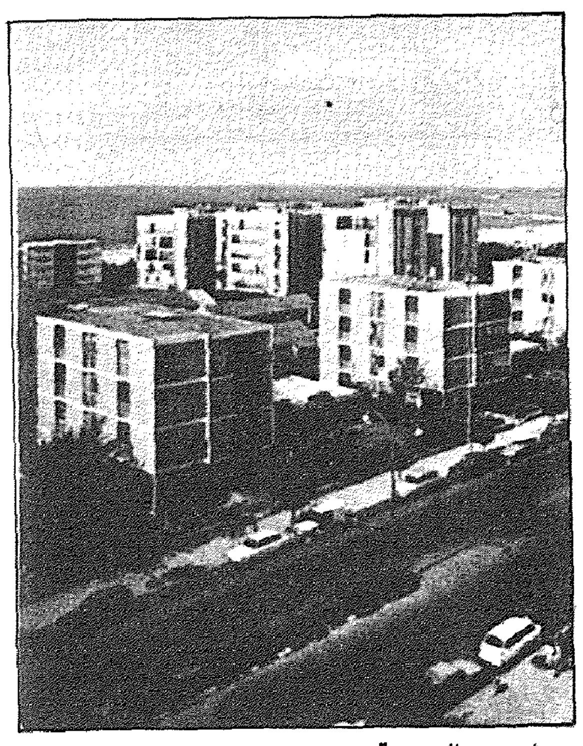
ولا شك، كما يقول العالم باير G.Beyer، «أن ضخامة المدينة، وكذلك اتساع المنطقة التابعة لها، كانا السبب الذي دعا اليهود الذين تسيطر عليهم شهوة التوسع إلى الانقضاض على المدينة في عهد المكابيين». ففي سنة ١٦٥ق.م. استولى المكابيون على المدينة وهدموا هياكلها وجعلوها، هي وضواحيها من قرى ومزارع، طعمة للنار.

وفي عام ٦٣ ق.م. دخل الرومان البلاد واستولى القائد الروماني بومبي على أسدود وجعلها جزءاً من ولاية سورية. ووجد الرومان أسدود مدينة مهدمة، فأعاد القائد غابينيوس بناءها سنة ٥٥ ق.م. وأرجع لها رونقها القديم. وما لبث أغسطس قيصر امبراطور روما أن وهبها هيرود الكبير الذي تركها بوصية منه إلى أخته سالومي Salomé. وأوصت سالومي بها إلى ليفيا Livia أخت أغسطس التي أورثتها بدورها الامبراطور طيباريوس.

في سنة ٣٨م تنصر سكان أسدود مع غيرهم من سكان الساحل الفلسطيني من أسدود إلى قيسارية. وفي القرن الرابع للميلاد كانت أسدود مركز أبرشية، واشترك أسقفها الأول سيلفانوس Silvanus في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م.

وفي عام ٤٠٠م كانت أسدود مركزاً لمقاطعة تشمل قرى كثيرة منها عاقر وقطرة وإدنبة.

وتدلنا خريطة مادبا على أنه كان هنالك في العصر البيزنطي، إلى جانب مدينة أسدود التي كانت تدعى أزوتوس هبوم Azutus Hippum مدينة أخرى هي أزوتوس بارالياس Azutus Paralias أو أسدود على البحر. وهذه المدينة الأثرية القديمة هي المعروفة باسم «مينة أسدود» أو «مينة القلعة» كما سميت في العهد الإسلامي.



□أسدود الجديدة.

دخلت أسدود في حوزة العرب المسلمين في القرن السابع الميلادي. وقد ذكرها كتاب المسلمين القدامى باسم أزدود. ويذكر ابن خرداذبة في المسالك والممالك (القرن الثالث الهجري) أن «أزدود» كانت محطة على طريق البريد بين مصر والشام، ويذكر المقدسي في أحسن التقاسيم «أزدود» بين البلدان التي كان فيها ربط للمسلمين محصنة بالأبراج على الشواطىء الفلسطينية في القرن الرابع الهجري.

ويبدو أن أسدود فقدت أهميتها القديمة مع الوقت فلما احتلها الصليبيون في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي لم يجدوا فيها سوى قرية صغيرة. وقد عسكر الصليبيون سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م حول أسدود مدة ثلاثة أشهر. ويعتقد أن القائد الصليبي فولك الأنجوي حصن المدينة سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م.

من الآثار الإسلامية في أسدود مسجد أقيم على مزار سلمان الفارسي الصحابي المعروف في عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م. ومقام الشيخ إبراهيم المتبولي وهو ولي مشهور مصري الأصل رحل إلى أسدود إثر خلاف بينه وبين السلطان المملوكي قايتباي، ثم مات فيها

سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م. وقد عمر المقام سنة ١٢٧٥هـ / ١٨٥٨م.

وفي أسدود أيضاً مقام يعرف بمقام أحمد أبي الإقبال، وهو شخص لا يعرف عنه أهل البلدة شيئاً. وعلى مقربة من أسدود، وعند مصب نهر صقرير المجاور لها تلة صخرية عليها مقام للنبي يونس. وكان في أسدود في أوائل القرن الحالي مسجد جامع يدعى جامع سيدي عامر. وفي هذا الجامع عمود رخامي أبيض قديم يسند أقواس البناية. وجنوبي الجامع خرائب خان قديم جميل، وحول القرية في أماكن مختلفة عدد من الأعمدة المتكسرة المتناثرة وعدد من الخرب التي تضم آثاراً من بقايا أسدود القديمة.

كانت مساحة الأراضي التابعة لأسدود أيام الانتداب البريطاني ٤٧,٨٧١ دونماً، منها ١,٠١٦ دونماً للطرق والأودية و ٢,٤٨٧ دونماً ملكها الصهيونيون. وتتوافر مقومات الزراعة الناجحة في هذه الأراضي، لخصب التربة، وهطول الأمطار الكافية، ووجود الآبار التي تراوح أعماقها بين ١٦ و٣٤م. وأهم منتجاتها الزراعية الفواكه والحبوب، وبخاصة الحمضيات والعنب والتين والقمح. وكانت الزراعة هي الحرفة الرئيسية للسكان، تتلوها حرفة التجارة، إذ كان يقام في أسدود كل يوم أربعاء سوق يؤمها سكان القرى المجاورة.

جذب موقع أسدود الهام وموضعها الطبيعي السكان للإقامة فيها، فنما عدد سكانها من ٢,٥٦٦ نسمة عام ١٩٢٢ إلى ٣,١٣٨ نسمة عام ١٩٣١، وإلى ٤,٦٣٠ نسمة عام ١٩٤٥. وتوسعت القرية عمرانياً حتى أصبحت مساحتها في أواخر الانتداب ١٣١ دونماً، يشغلها أكثر من ٨٥٠ بيتاً. واشتملت القرية على مسجدين ومدرستين واحدة للبنين وأخرى للبنات. بالإضافة إلى المحلات التجارية المختلفة.

دمر الصهيونيون القرية عام ١٩٤٨ وأقاموا على أراضيها مدينة وميناء أشدود.

المراجع:

— أحمد سامح الخالدي: أهل العلم والحكم في ريف فلسطين، عمان ١٩٦٨.

— مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، ج١، ق٢، بيروت ١٩٦٦.

— خريطة فلسطين: مقياس ١: ٥٠,٠٠٠، لوحة أسدود.

— Barnabas. M.: Guide to the Holy Land. London 1923..

— Beyer. G: Zeitschrift des deutschen Palästina. Vereins. 1933.

● نقلاً عن الموسوعة الفلسطينية ــ المجلد ١، ١٩٨٤.

الإسلام والجزية

● كتب عامل عمر بن عبد العزيز في مصر إليه أن الجزية قلت والسبب في ذلك دخول الإقباط في دين الإسلام، ويستأذنه في منعهم من دخول الإسلام فأجابه عمر بقوله: قبح الله رأيك، ما بعث محمد جابياً ولكن بعث هادياً.

كلمة للسيد جمال الدين

● (إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تتم به سعادة الأمم فإن قال قائل إذا كان الإسلام كما ذكرت فما بال المسلمين على ما ترى من الحالة السيئة فالجواب: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

كلمة للعماد الأصفهاني

● إني رأيت انه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن ولو أضيف كذا لكان يستحسن ولو قدم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص لجملة البشر.



استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الأستاذ «فواز سعدون» عرض لأطروحته بعنوان: «الحركة الإصلاحية في بيروت في أواخر العصر العثماني» ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى أن نزيد من اطلاع قرائنا على نتائج باحثينا مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، لما يفيد المجتمع.

الحركة الإصلاحية في بيروت في أواخر العصر العثماني

أطروحة كفاءة - كلية التربية - الجامعة اللبنانية ١٩٧٨

بإشراف: د. كمال سليمان الصليبي

من المسلم به أن الاتحاديين، منذ استفحال سيطرتهم على مقاليد الأمور في استامبول بعد فشل ثورة آذار عام ١٩٠٩ ضدهم، دأبوا على انتهاج سياسة معادية للعناصر العثمانية غير التركية قوامها «التتريك» والتمييز العنصري. ولا شك أن التمييز الذي أخذ يلمسه العرب في عهد الاتحاديين فعل فعله في إثارة نقمتهم. وقد زاد في تقليل ثقة العرب بالاتحاديين وإخلاصهم، ان قادتهم كانوا من الماسونيين، وأن نفوذ اليهود كان متغلغلاً في صفوفهم. ومن جهة أخرى سيطر الاستعمار الالماني ثقافياً وفكرياً على قيادات حزب الاتحاد والترقي بواسطة النظريات العنصرية التي كان يصنعها «مفكرون» مرتزقة أمثال اليهودي الالماني ليون كاهون. مما سبب لأسباب متباينة المطالبة بالاستقلال الذاتي، بدت بوادرها في أجزاء مختلفة من الامبراطورية العثمانية، لا سيما في الجزيرة العربية ومصر ولبنان وسوريا.

وأشاعت الهزائم المتكررة التي منيت بها الدولة العثمانية قلقاً عميقاً على المصير العثماني ومصير الإسلام برمته، وخاصة ان تطورات الأمور كلها كانت تؤيد

تصميم الدول الأوروبية على التهام أراضي الدولة العثمانية واستعمارها. وكما يحدث عادة في حالات القلق العميق التي تعصف بالأمم نتيجة تعرض مصيرها للخطر بدأ رواج الشائعات، وأصبحت حاضرة ولاية بيروت نهبة للتحركات المثيرة للريبة، فكان قسم من الأهالي يتطلع إلى الاحتلال الفرنسي وقسم آخر يتطلع إلى الحماية الإنجليزية. ومن خلال هذا التشرذم برز تيار جديد قوامه عدد من المثقفين الذين درسوا في أوروبا، وعادوا إلى بيروت ودمشق ومدن عربية أخرى وهم يحملون في عقولهم اتجاهات قومية، ورغبة عامة في الإصلاح والعمل على نيل حقوق العرب وتطوير بلادهم.

عقد الإصلاحيون اجتماعاً لهم وتداولوا في أمور القضية الإصلاحية، وقرروا كتابة دعوات إلى المجالس لمختلف الطوائف لتنتخب ممثلين عنها يصيرون أعضاء في «جمعية عمومية إصلاحية» يناط بهم تمثيل مختلف فئات الأهلين وطوائفهم في السعي إلى الإصلاح، وسارعت المجالس الملية وانتخبت مندوبيها إلى الجمعية العمومية الإصلاحية، فصار بإمكان الإصلاحيين عندئذٍ أن يخطوا الخطوة الأخيرة على طريق الحصول على شرعية تمثيلهم للبيروتيين بالدعوة إلى اجتماع عام تاريخي للجمعية العمومية الإصلاحية، يحضره مندوبو مختلف الطوائف في ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٩١٣.

الصدام بين حركة الإصلاح والاتحاديين

«ومزق شمل كان مجتمعها بها
وولى بنوها هائمين، فأصبحوا
إلا أن جمع المفسدين مكسر

فسارت به النكباء والزعزع النكر
أقول بهم نظماً وأمرهم نثر
وجمع أولي الإصلاح لم يعره كسر»[١]

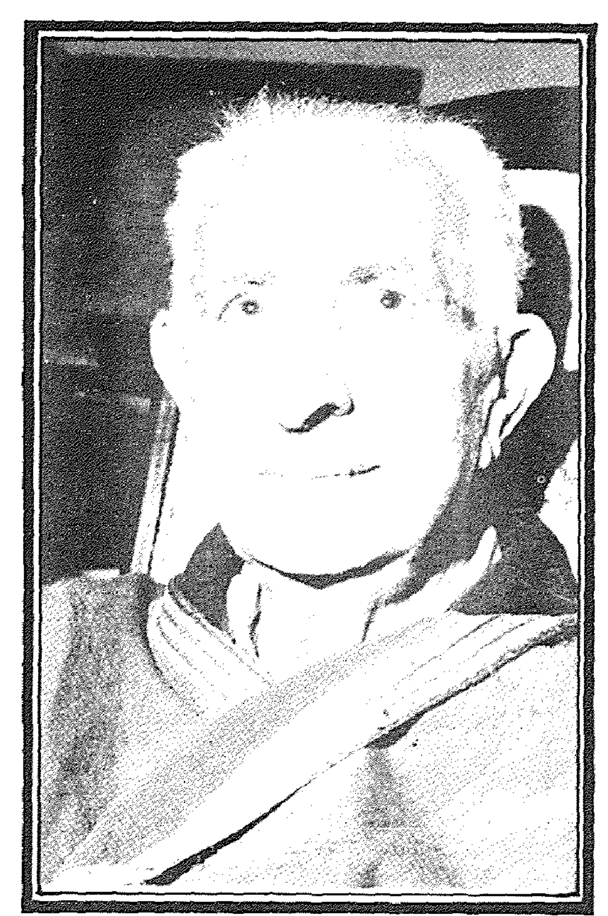
يمكن اعتبار شهر آذار ١٩١٣ إحدى الفترات الحاسمة في تاريخ الحركة الإصلاحية البيروتية، إذ، في هذا الشهر، قدر الإصلاحيون أن ينفذوا، بنجاح، مخططهم الهادف إلى مجابهة الحكم العثماني في ولاية بيروت عن طريق السعي إلى مقاطعته وإيقاعه في عزلة سياسية يجد نفسه، بها مجبراً على النزول عند المطالب الإصلاحية[٢].

وفي هذا الشهر أيضاً، افتتح الإصلاحيون مقراً رسمياً لحركتهم دعوة «نادي الإصلاح»، وذلك في جمع حافل ألقى عليه كاتم أسرار الحركة الدكتور أيوب ثابت بياناً عن أعمال الجمعية[٣]، كما ألقى شاعر الإصلاحيين البيروتيين «الأستاذ الغلاييني»، في هذا الاجتماع، قصيدة حماسية نثبت منها الأبيات التالية التي تعطينا فكرة عن (الحالة النفسية) لقطاعات مهمة من الأهلين، في تلك الأيام:

«لا شيء عن طلب الإصلاح يثنينا
ولا القواضب عن مغناه تلوينا
لا خير بالعيش والنيات فاسدة
يحوطنا البؤس واللأواء ترسينا
لا تستقر لنا حال نسر بها
حتى نساء بأخرى بعد تشجينا
كأننا ــ بين أحزاب الهوى ــ كرة
وغيرنا صولجان الأمر يزجينا
تساق ــ كالثلة العجماء يحفزها
صوت الدعاة ــ إلى ما ليس يجدينا»

إلى أن يقول:

فحسبنا ما مضى يا قوم، فانصرفوا
نحو الذي لذرى الآمال يعلينا
فقد عرفنا ــ آوان الدهر عرفنا ــ
ما كان عن سنن الإصلاح يدحينا
فالقوا بين أشتات القلوب على
الإصلاح نقطف من الجزات ما شينا



□ محمد جميل بيهم.

الصدارة العظمى، ونظارة الداخلية، وإلى صحف العاصمة وإلى بعض رجالات استانبول، مع احتجاج على القانون الجديد الذي يرمي إلى «توسيع مأذونية الولاة التي هي عبارة عن منح السلطة إلى أفراد قد يسيئون استعمالها»(٧).

كما انتخبت «الهيئة الإصلاحية»، في ٢٠ آذار ١٩١٣ عميدي الطائفتين الإسلامية والمسيحية في بيروت، محمد بيهم ويوسف سرسق رئيسا شرف لها(٨).

كما تسلمت الهيئة الإصلاحية في هذا الشهر اقتراحاً «بالاندماج» مع حركة اللامركزية في مصر(٩).

وفي الرابع والعشرين من شهر آذار، كذلك، أرسل الوالي حازم بك «اللائحة الإصلاحية» إلى استانبول، فأبرقت الجمعية العمومية الإصلاحية «إلى الصدارة العظمى وإلى نظارة الداخلية تطلب منهم استصدار أوامر بتنفيذها»(١٠).

لم يمض أسبوعان، تقريباً، على إرسال حازم بك للائحة الإصلاحية إلى العاصمة، حتى



□ سليم علي سلام.

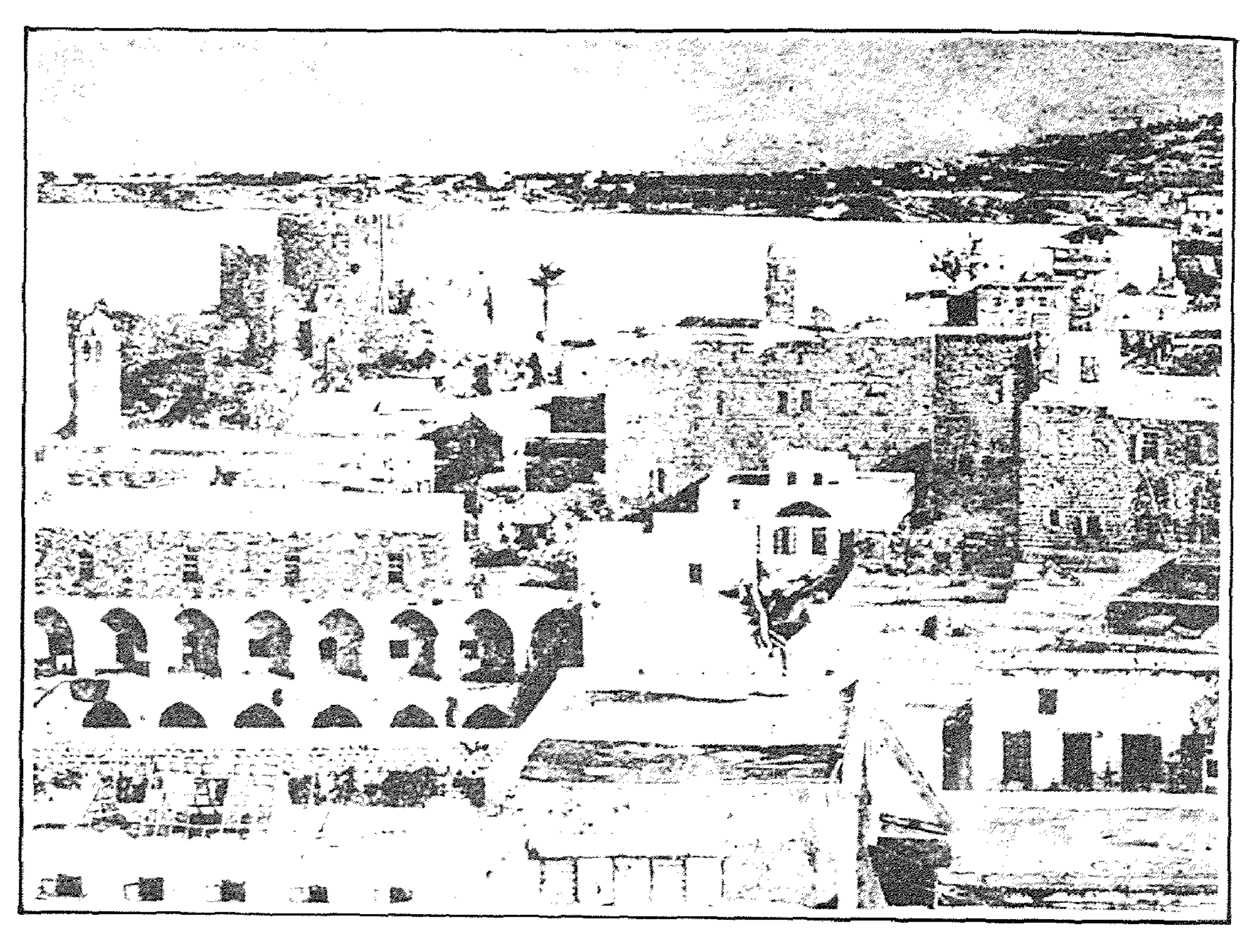
وينهض الوطن الكابي بعثرتنا
إلى العلى وننل اقصى امانينا
حادثك يا مبتغي الإصلاح فاد
ية متانة الغيث تسقينا فترونيا
آمين آمين لا نرضى بواحدة
حتى نضيف عليها الف آمينا(٤)

* * *

وفي شهر آذار أيضاً، وقع سراً، أول «انشقاق» في حركة الإصلاح بإقدام كاتم أسرار الجمعية، الدكتور أيوب ثابت، واحد مديريها المسؤولين المحامي بترو طراد، مع نفر من الإصلاحيين النصارى الآخرين، على تقديم وثيقة سياسية، إلى القنصل الفرنسي المقيم في بيروت، تتناقض روحاً ونصاً وأهداف حركة الإصلاح(٥).

وفي شهر آذار ايضاً قبل أعضاء جدد ذوو أهمية، في حركة الإصلاح واستطاعت الحركة أن تستحوذ على استحسان قطاعات مهمة من الأهلين وتأييدهم(٦).

وفي هذا الشهر أيضاً، أرسلت اللائحة الإصلاحية، مترجمة إلى اللغة التركية، إلى



□ منطقة بيروت المطلة على البحر ويبدو خان الملاحة وزاوية سيدي البدوي بالقرب من جمرك بيروت بجانب خان البربير وقلعة بيروت ومسجد الدباغة.

فوجىء البيروتيون بالوالي يصدر قرارا يحل بموجبه، الجمعية الإصلاحية، ويمنع اجتماعاتها ويغلق ناديها، وذلك في ٨ نيسان ١٩١٣ وفيما يلي نص القرار:

بلاغ رسمي،

«بما أن الجمعية التي تشكلت منذ شهرين ونصف من بعض الذوات في بيروت باسم الجمعية العمومية الإصلاحية، والتي اتفق أن أعطي لها علم وخبر من مقام الولاية قد كان تشكيلها مغايرا أساسا للمنوعية الصريحة التي نص عليها قانون الجمعيات فضلاً عن أن بعض المطالب التي أخذ هؤلاء يطالبون بها باسم الإصلاحات هي منافية أيضاً لأحكام القانون الأساسي، وبناء عليه، فقد صار من الطبيعي منع دوام واجتماع هذه الجمعية.

هذا وقد شرع بتطبيق قانون إدارة الولايات الذي نظمته الحكومة السنيةَ وفقاً لقاعدة توسيع المأذونية وتفريق الوظائف التي نصت عليها المادة المائة والثامنة من القانون الأساسي، وصدرت إرادة الحضرة العلية السلطانية بمراعاة أحكامه، فجاء جامعاً للمساعدات الواسعة التي تتطلبها الإصلاحات المطلوبة لبيروت ولسائر الولايات العثمانية، ومتضمناً الأحكام المخصوصة التي تؤمن الاحتياجات الخصوصية لكل ولاية. على أنه من الثابت فعلاً بنشر مثل هذا القانون المخصوص المتكفل بحصول الإصلاحات التي تود الحكومة السنية إنفاذها بصورة جدية أنه إذا وجدت بعض النواقص عند تطبيق أحكامه الفرعية فلا شك أن الحكومة السنية تتم هذا النقص بالاشتراك مع مجلس المبعوثين الذي سيجتمع قريباً إنشاء الله، وبناء عليه نعلن أنه قد منع، بموجب القانون اجتماع الجمعية المذكورة التي ليس لها ذات كيان قانوني، ولم يبق محل حاجة لدوامها بعد الآن، وإذا تصدى القائمون بها للاجتماع خلافاً للمأمول، تضطر الحكومة لإجراء ما يقتضيه القانون



□ بيترو طراد.

بحقهم من المعاملات.

في ٢٦ مارت سنة ١٣٢٩ والي
ابو بكر حازم[١١]

بعد ظهر اليوم نفسه، ٨ نيسان ١٩١٣، الذي نشر فيه الوالي هذا القرار قام باستدعاء مديري الجمعية المسؤولين عنها: سليم أفندي علي سلام والمحامي بترو طراد، وأخبرهما: «أن الحكومة أمرت بقفل النادي ومنع اجتماع الجمعية الإصلاحية لأن الحكومة قررت تطبيق قانون الولايات الجديد، وأن إعطاء الرخصة كان لا لزوم لها»، فرد عليه الزعيمان الإصلاحيان قائلين: «إن الجمعية الإصلاحية قد تشكلت بصورة مطابقة» فأجابها الوالي «بلى وجود مثل هذه الجمعية لا لزوم له في مثل هذه الأيام، وخصوصاً بعد أن أخذت الحكومة على عاتقها تطبيق قانون الولايات الجديد». واشتد الجدال بيننا وبين الوالي وبينا له وخامة العاقبة فيما إذا بقي مصراً على قراره هذا، فلم يقنع وبقي مصراً على فكره فتركناه وذهبنا لنادي



□ أيوب ثابت.

الجمعية الذي كان غاصاً بقسم عظيم من الأهالي، وبلغناهم ما جرى، وقد استقر رأي الجميع على إرسال البرقيات للسلطان الأعظم ومقام الصدارة. ولقد رأت إدارة النادي من الحكمة مسايرة أوامر الحكومة برفع شارة النادي...

وكانت الحكومة علمت بوقع هذه الضربة على الأهالي، واحتاطت للأمر، وأكثرت من الدوريات حتى أنزلت للأسواق العساكر النظامية. وصدرت ثاني يوم الجرائد وكلها بيضاء، ولم يكن بها سوى بلاغ الولاية، وذلك احتجاجاً على مخالفة الوالي للقانون، وأخذت الجرائد تعبر عن أفكار الأهالي باستهجان هذا العمل المخالف للقانون وعليه أخطرت من الديوان العرفي بلزوم اطلاعه عليها قبل نشرها وبالحقيقة أن الهياج أخذ مأخذه»[١٢].

في ١١ نيسان ١٩١٣، أي بعد نشر وتنفيذ قرار الحل بثلاثة أيام عقدت «الجمعية العمومية الإصلاحية» اجتماعاً في القاعة الكبرى في «الكلية

السورية»[١٣] اتخذت فيه قراراً بالدعوة إلى إضراب عام في اليوم التالي احتجاجاً على قرار حازم بك. كما نشرت «الهيئة الإصلاحية» البيان التالي:

احتجاج
لجنة الجمعية العمومية الإصلاحية في بيروت
على الأمر الصادر بحلها من حضرة الوالي.

إن الخطوب التي ألمت بالوطن العثماني، فخفضت من عظمته وذهبت بشطره لم يكن لها سبب غير التمادي في سوء الإدارة والإصرار على الخطأ في السياسة. ولما تفاقم هذا الأمر واستولى الخوف على قلوب المخلصين من رجال الدستور في عهد الوزارة السابقة من استطالة الأطماع إلى بقية الأطراف السالمة حتى الآن، بادروا إلى الرجوع عن الغلط، وهموا بسلوك الطريقة المثلى في الحكم، ونشر الإصلاح الإداري في كل قطر من أقطار المملكة سداً للذريعة وقطعاً للأسباب التي يتمسك بها أصحاب الأغراض من الأجانب.

ولقد كانت لبيروت فضيلة السبق إلى التصريح بحقيقة الحال، فلقي تصريحها من رجال الوزارة إذ ذاك آذاناً مصغية وقلوباً واعية.

وبذلك الباعث ولهذا الفرض تألفت جمعيتنا العمومية بانتخاب المجالس المالية ووضعت برنامجها، وأخذت الرخصة القانونية، وعقدت اجتماعاتها الأولى في دار المجلس البلدي على مرأى ومسمع من الحكومة. فمصادرة الحرية الاجتماعية وخنق الفكرة الإصلاحية على النحو الذي جرى عليه حضرة الوالي بحل الجمعية الإصلاحية، فضلاً عن أنه مناف لأحكام القانون الأساسي فهو يعتبر بنظر العالم المتمدن ضغطاً على الاستقلال الشخصي وحرية الفكر.

إن الجمعية الإصلاحية في بيروت جمعية فكرية لا جمعية انقاذ بالقوة والعنف. فعلى فرض مخالفة رأيها في الإصلاح لرأي الحكومة، فإنما يحق للحكومة عدم العمل بآرائها، ولكن لا حق لها بمصادرتها لذلك فنحن نحتج أمام الوطن والتاريخ على عمل حضرة الوالي هذا الذي عبث فيه بمصلحة الوطن وخالف أحكام الدستور ونيات جلالة السلطان الأعظم.

محمد ابراهيم طبارة، جان حبيب بسترس، سليم علي سلام، كامل الصلح، مختار بيهم، رزق الله أرقش، احمد حسن طبارة، حسن الناظور، عبد الباسط فتح الله، خليل زينية، البير سرسق، محمد الفاخوري، يوسف الهاني، سليم البواب، جميل الحسامي، حبيب فرعون، باترو طراد، عبد الحميد الغندور، جان نقاش، اسكندر العازار، ابراهيم الحكيم، الدكتور أيوب ثابت، جرجي رزق الله، فؤاد حنتس»[١٤].

كما أرسلت برقية إلى الصدارة العظمى ووزارة الداخلية موقعة من نحو ٥٠٠ بيروتي[١٥] يتألفون من «ملاكين وتجار وصيارفة وأطباء ومحامين وصحفيين وأدباء» يشتكون فيها من قرار الوالي ويؤكدون شرعية تمثيل الجمعية العمومية الإصلاحية للبيروتيين، وينوهون بأن أعضائها من خيرة أبناء العائلات الذين ما زالوا منذ مئات من السنين يخدمون الدولة بنيات صادقة وبكل قواهم». كما يتبنى الموقعون على هذه البرقية المطالب الإصلاحية على انها «مجرد حاجيات وضعتها اللجنة إظهاراً لرغائب الأهالي»، وبعد التنديد بالأمر الذي استصدرته الولاية بحل الجمعية تنتهي البرقية بالتعبير عن الاحتجاج على هذا العمل «بكل قوانا» وفيما يلي نص هذه البرقية:

«الاحتجاج الكبير
من لدن البيروتيين
على مصادرة الجمعية الإصلاحية وإقفال النادي الإصلاحي»
إلى مقام الصدارة ونظارة الداخلية ونسخة منها إلى
جريدة «اقدام»

«نحن الموقعين بذيله ملاكين وتجار وصيارفة وأطباء ومحامين وصحافيين وأدباء وغيرهم من كافة طبقات الشعب وجميع الطوائف في بيروت نعرض لفخامتكم أن الحكومة المحلية أصدرت في ٢٦ مارس سنة ١٩١٣ أمراً إدارياً بحل الجمعية العمومية الإصلاحية في بيروت وإقفال ناديها بحجة أن تشكيلها كان مغايراً للممنوعية الصريحة التي نص عليها قانون الجمعيات وأن العلم والخبر المعطى لها من مقام الولاية كان إعطاؤه اتفاقاً، فضلاً عن أن بعض المطالب التي طالبت بها باسم الإصلاحات هي منافية أيضاً لأحكام القانون الأساسي. على أن الحقيقة هي أن الجمعية المشار إليها ليس في القانون ما يمنع



□ أحد أسواق بيروت العثمانية الكائن وراء الجامع العمري الكبير.

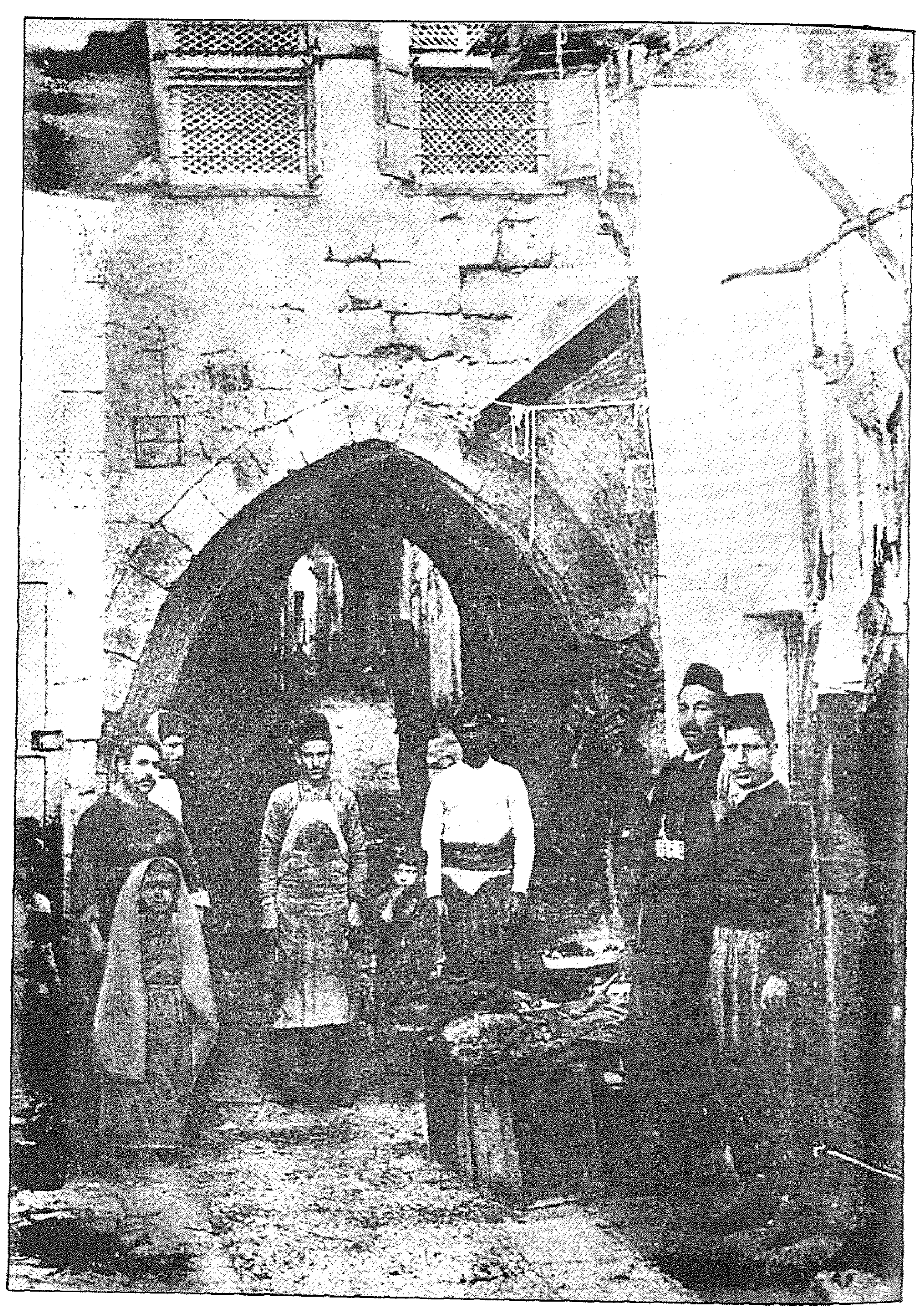
تشكيلها، وهي قد تألفت برضى الحكومة المحلية ونالت منها الإجازة الرسمية. وقد كان انتخابها من قبل المجالس المالية والرؤساء الروحيون لجميع الطوائف في بيروت وأعضاؤها من خيرة أبناء العائلات الذين ما زالوا منذ مئات من السنين يخدمون الدولة بنيات صادقة وبكل قواهم. أما دعوى الحكومة بأن بعض المطالب التي ذكرتها الجمعية في لائحتها الإصلاحية مغايرة للقانون الأساسي، ففضلاً عن أنه لا دليل على صحتها ولا المطالب المنوه عنها معينة لنرد عنها رداً خاصاً فليست لائحة الإصلاح إلا مجرد حاجيات وضعتها اللجنة إظهاراً لرغائب الأهالي وعرضها على حكومتهم.

فبناء على ما تقدم يتضح لفخامتكم أن الأمر الذي استصدرته الولاية بحل الجمعية مبني على اعتراضات وأوهام لا أساس لها، فضلاً عن أنه مناف لأحكام القانون الأساسي منافاة تامة ولآمال الأمة ولمصلحة السلطنة، ولذلك فنحن نحتج على هذا العمل بكل قوانا، ونلتمس إصدار أمركم العاجل إلى مقام الولاية بإلغاء أمرها بمنع الجمعية عن الاجتماع صوناً لحرمة القانون الأساسي الذي باسمه قد أجريت هذه المفايدة القانونية ومحافظة على اسم الحكومة الدستورية وكرامة الأمة التي يؤسفها مثل هذا العمل»[١٦].

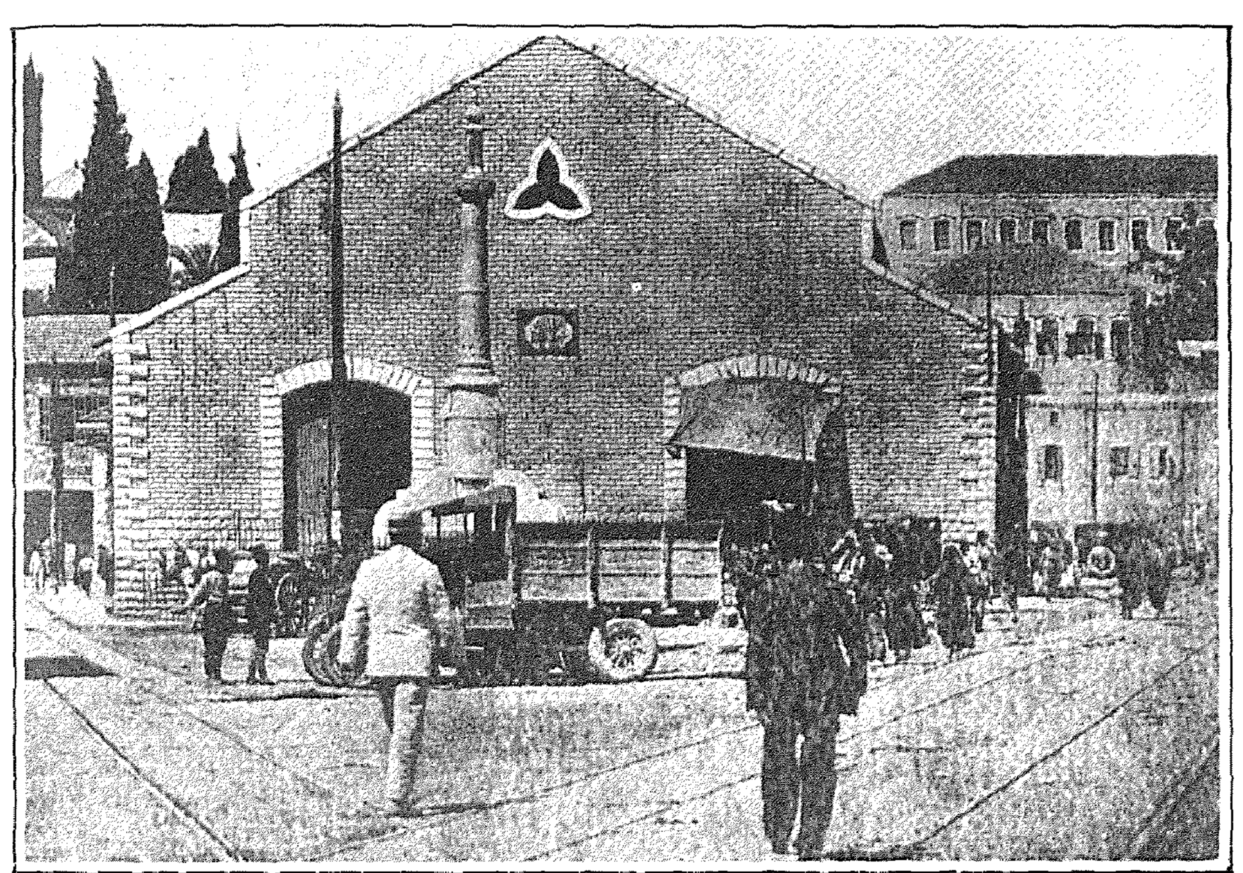
إضراب بيروت:

في مساء الحادي عشر من نيسان، شاع في البلدة أن الأهالي قرروا تنفيذ الإضراب العام في اليوم التالي، ووصل ذلك إلى مسامع الوالي «فأرسل منادين ينادون في الأسواق طالبين باسم حكومة الولاية من الأهالي عدم إقفال محلاتهم، مهدداً إياهم بالجزاء الشديد إذا خالفوا إرادته». وفي صباح ١٢ منه ألصق على جدران المنازل والحوانيت الإعلان الآتي:

«قد شرعت ولاية بيروت بتطبيق القانون المخصوص الحاوي على المساعدات الواسعة ضمن أحكام القانون الأساسي والصادر بمراعاته (؟ أمر؟) الوزارة السنية الشاهانية، والذي قصد به الباب العالي إجراء الإصلاحات لجميع الولايات العثمانية. وفهم من الآثار المشهودة والاستطلاعات المخصوصة أن البعض أخذوا بعرقلة معاملات الحكومة ومصالح العباد، وهم لا يزيد عددهم عن الخمسة أو الستة، وأشاعوا بين الناس أنهم إذا أقفلوا حوانيتهم يتخلصون من العسكرية وبعض التكاليف وشوقوهم لعدم فتحها. لا جرم أن الذين يشتركون بحركات هؤلاء يستلزمون الجزاء الشديد. «ثم يذهب بيان



□ جمهرة من البيارتة أمام باب «بوابة» يعقوب أحمد أبواب سور بيروت القديمة.



□ ساحة السبيل الحميدي (ساحة رياض الصلح فيما بعد) والهول ـ السوق المسقوف، ويظهر وراءه السراي والثكنات.

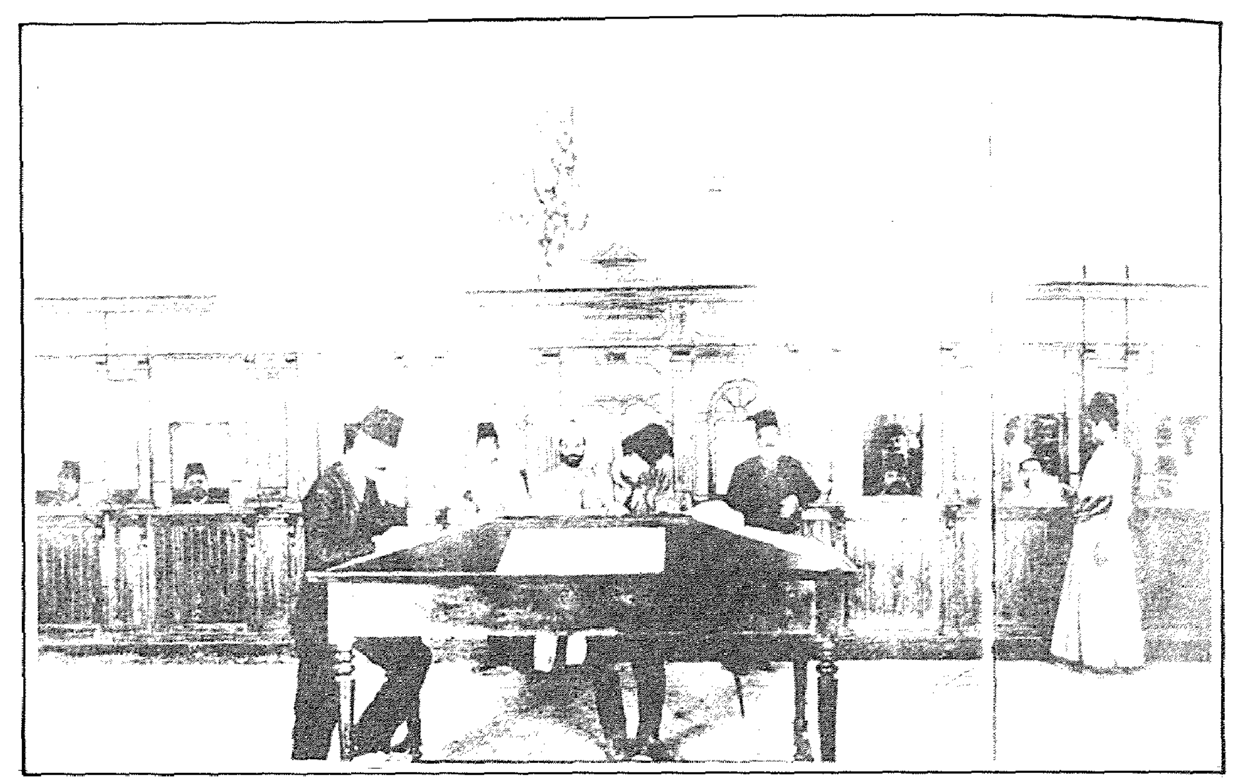
الوالي إلى نصح الأهالي» بأن يتجنبوا حركات كثيرة توجب العقاب ويوصيهم بمعاطاة أعمالهم كالعادة مع الخلود إلى السكينة»(١٧).

وفي مساء الجمعة ١١ نيسان أيضاً أمر الوالي «بتوقيف نفر من وجهاء النفر وأدبائه بتهمة أنهم كانوا يشوقون أصحاب المخازن والدكاكين إلى إقفال محالهم يوم السبت التالي.. بدأت إدارة البوليس باستحضار الوجيه الفاضل الشيخ اسكندر أفندي العازار، شيخ الأدباء والمفكرين الذي لا يخفى على أحد منزلته في الفضل والنبل، ثم سليم أفندي طبارة ورزق الله أفندي أرقش، وهما من ذؤابة شبان النفر ومن أركان النهضة الإصلاحية، واستحضرت أيضاً مختار أفندي ناصر»(١٨).

في يوم السبت، ١٢ نيسان ١٩١٣، نفذ الإضراب العام الذي دعا إليه الإصلاحيون بنجاح كبير «وأقفلت المدينة بأجمعها احتجاجاً على عمل الوالي.. إلا البعض من باعة الخضر والخبز. وقد كان البوليس شرع يقيد أسماء المقفلين محلاتهم فخافه أحد الظرفاء وقال له: لو عمدتم لقيد أسماء الفاتحين لهان الأمر عليكم»(١٩).

في يوم السبت هذا عمدت السلطات إلى «توقيف مديري جرائد الاتحاد العثماني والنصير والمفيد» طيلة نهار ذلك اليوم، ووجهت إليهم(٢٠) أسئلة تتعلق بعلاقاتهم بالجمعية الإصلاحية وبآرائهم في قانون الولايات الجديد، كما صادرت السلطات صحيفتي «الاتحاد العثماني» (ومدير تحريرها أحمد طبارة) والمفيد (ومدير تحريرها عبد الغني العريسي)(٢١).

لا شك أن الإضراب العام الذي نفذه معظم البيروتيين ابتداء من ١٢ نيسان ١٩١٣ كان ذا مغزى هام وهو: «أن مريدي الإصلاح وأنصار الجمعية الإصلاحية في بيروت هم كل القوة المعنوية في المدينة»(٢٢). ولم يفت ذلك المغزى حكومة الولاية، إلا أن «الخطة البديلة» التي لجأ إليها الوالي أبو بكر حازم بك والتي كان القمع سداها والإرهاب لحمتها، وذلك أثر فشل خطة الاحتواء والإغراء بالمناصب لم تكن، تلك «الخطة البديلة» من بنات أفكار حازم بك، وإنما جرى



□ أحد المكاتب الداخلية لمركز (البريد) البوسطة العثمانية في منطقة خان انطون بك.

الاتفاق عليها بين هذا الأخير وبين رؤسائه في استانبول قبل مغادرته العاصمة إلى حاضرة الولاية التي أنيطت به. وسرعان ما جاء رد الحكومة المركزية على احتجاجات البيروتيين يحمل طابعاً أشد صرامة من طابع إجراءات حكومة الولاية»[٢٣].

وكان على «صورة تلغراف وارد من الصدارة جواباً على تلغراف الأهالي وهذه ترجمته: أخذنا تلغراف من بيروت محتوياً على كثير من تواقيع بخصوص طلب الترخيص للجمعية الإصلاحية للاجتماع مجدداً. إذا كان للأهالي أفكار ومطالب بحق الإصلاحات فينبغي طبعاً أن يطلب ذلك المبعوثون في مجلس المبعوثان، حتى إذا حاز طلبهم الأكثرية بوضع موضع التطبيق. إن تشكيل الأهالي جمعيات لهذه الغاية وتصديهم لمثل هذه المطالب هو مغاير للقانون، ومن الضروري عدم إجبار الحكومة لذلك قطعياً. إن الحكومة نشرت ما يمكن تطبيقه من القوانين بخصوص الإصلاحات، وهي الآن مشتغلة بترتيب وتنظيم غير ذلك من القوانين. فبكمال الأهمية نوصيكم بأن تفهموا الكيفية لمن يلزم، وأن تودعوا بديوان الحرب العرفي حالاً من يتجرأون على القيام بحركات مغايرة للقانون وأن تجروا بحقهم حالاً حكم القانون الذي ينبغي إصداره في ظرف ساعة أو ساعتين. وقد كتب إلى السلطات العسكرية أيضاً بما يقتضي من الوصاية المؤثرة ٢٠ مارس ١٩١٣.

الصدر الأعظم»[٢٤]

وأثارت برقية الصدر الأعظم خيبة أمل واسعة في صفوف أهالي بيروت الذين كانوا يعلّلون نفوسهم باستجابة الحكومة المركزية لاحتجاجاتهم ومطالباتهم كما كانت هي الحال مع معظم الحكومات السابقة في الحقبة التي تلت انقلاب ١٩٠٨. كما أن هذه البرقية لم تكن إلا لتزيد الأهالي هيجاناً وخصوصاً ما حوته من عبارة إصدار الحكم في ساعة أو ساعتين، وذاتا الأهالي كانت بهيجان نظراً لما أصدره الوالي في مساء الليل الماضي من القبض على بعض الأفندية»[٢٥]. ولتدارك الموقف حصل اتفاق، من حيث المبدأ، بين محمد أفندي بيهم عميد الطائفة الإسلامية ويوسف سرسق عميد الطوائف المسيحية وبين الوالي أبي بكر حازم بك «على أن يترك سراح الموقوفين وهم يشوقون الأهالي لفتح المدينة»[٢٦]. وسارع الوالي إلى إرسال التلغراف

التالي بتاريخ ٣١ مارس/ ١٤ نيسان «إلى جانب الصدارة العظمى ونظارة الداخلية: «أتى إلى هذا العاجز بصورة مخصوصة أكبر ممتازي وإشراف ومعتبري البلدة نظير محمد بك بيهم ويوسف بك سرسق والتمسوا إخلاء سبيل الأشخاص الخمسة الذين جرى توقيفهم وتسليمهم إلى ديوان الحرب مظنوناً عليهم بإجراء التهديدات والتشويقات لإقفال الدكاكين وقد أعطونا تأمينات بأنه لا تحدث بعد الآن أمثال هذه الحركات قطعياً، وبما أني أرى هذه الصورة موافقة استرحم الفضل بالمساعدة لإخلاء سبيلهم»(٢٧).

وجاء رد الصدر الأعظم بالموافقة على إطلاق سبيل الموقوفين في شكل التلغراف التالي:

«موافق إخلاء سبيلهم حسب تنسيبكم العالي بشرط أن تتخذوا تأمينات إشراف ومعتبري البلدة بخصوص عدم حدوث شيء بعد الآن من أمثال هذه الأحوال والحركات بمثابة سند عليهم في ٣١ مارس سنة ١٩١٣.

الصدر الأعظم وناظر الحربية
محمود شوكت(٢٨)

وفي مساء الأحد ١٣ نيسان ١٩١٣ «عقد المجلس العرفي جلسة قرر فيها تبرئة الذوات الموقوفين بتهمة التشويق إلى إقفال البلدة يوم السبت فخرجوا من هذه التهمة أبرياء الساحة أنقياء الصفيحة. وقد كان ينتظر خروجهم من محل توقيفهم جمهور عظيم من الأعيان والوجهاء الذين تلقوهم بعد تسريحهم بوافر الابتهاج. أما إطلاق سبيلهم فقد كان مبنياً على أمر برقي من الأستانة.

وفي تلك الليلة انعقد اجتماع كبير من أعيان البلدة وذوي الرأي فيها في منزل الوجيه الكبير يوسف أفندي سرسق وأسفر الاجتماع عن وجوب تشويق الجمهور إلى فتح مخازنهم ومحالهم يوم الأثنين»(٢٩). ولكن بسبب تأخر إطلاق سراح المعتقلين الخمسة إلى ما بعد العاشرة ليلاً، فلم يعلم به أكثر الأهالي، وبسبب «أن الاستياء الذي شمل أهل النفر من إقفال نادي الجمعية الإصلاحية كان بالغاً حداً قصياً حتى أن أصحاب الأشغال لبثوا مصرين على إضرابهم عن العمل». بقيت الأسواق التجارية، يوم الأثنين ١٤ نيسان، «مقفلة خالية من الحركة كأنها قفر بلقع. هذا رغماً عما كان يبذله بعض الوجهاء من الجهد في إقناع أصحاب الأشغال بتعاطي أعمالهم في النهار المذكور»(٣٠) واضطر بعض القيادات الإصلاحية أن يطوف بالتجار راجياً منهم أن يفتحوا محلاتهم «وبالجهد الجهيد حتى تمكنا من إقناعهم بفتح محلاتهم»(٣١)، كما وزع محمد أفندي عبد الله بيهم ويوسف أفندي سرسق عميدا الطائفتين الإسلامية والمسيحية بعد ظهر الأثنين النشرة التالية:

أيها الأخوان،

نرجوكم بلسان الإنسانية والمرؤة وبشرف الوطن المقدس أن تعودوا لأشغالكم وتفتحوا محلاتكم التجارية وبهذا العمل تكونوا برهنتم على وطنيتكم العثمانية الصادقة وإطاعة أوامر الحكومة السنية حيث لا يجوز بوجه من الوجوه قطعياً ترك المحلات مقفلة لأنه يعود بالضرر على الوطن العزيز فكل من كان عنده محبة لوطنه يجب عليه المساعدة بذلك وأن يظهر استعداده التام لمساعدة الحكومة السنية وإطاعة أوامرها المقدسة.

يوسف سرسق

محمد عبد الله بيهم(٣٢)

والواقع أن الإضراب لم ينته تماماً إلا صباح الثلاثاء وذلك صباح الأثنين بينما كثير من أصحاب الأشغال كانوا قد بدأوا بفتح محالهم، شرع بعض ضباط الجندرمة بحضور الجمهور على فتح الأسواق بكلام جاف وصورة ممقوتة، أثارت غضب الناس، وحملتهم على الرجوع عن عزمهم. وهكذا كانت النتيجة فإن الذين كانوا فتحوا عادوا فأقفلوا، والذين كانوا حضروا لهذا الغرض نكصوا راجعين إلى بيوتهم»(٣٣).

إن الاتفاق الذي حصل بين الإصلاحيين والوالي لا يمكن اعتباره الفصل الختامي من حياة الحركة الإصلاحية في بيروت.

وإذا كان صحيحاً أن الإصلاحيين خسروا معركة المجابهة الأولى بينهم وبين السلطة العثمانية، فحلت جمعيتهم وأغلق ناديهم ومنعت اجتماعاتهم وخابت آمالهم بتنفيذ الحكومة المركزية لمطالب لائحتهم، فإنهم خرجوا من هذه

المعركة بنتيجة هامة وهي أن الجمعية الإصلاحية في بيروت هي كل ما في بيروت من القوة المعنوية(٣٤)، وخرجوا منها وهم أقوى ما يكونون في ظل عدم تجرؤ السلطات على تجريم أحد منهم أو بقائه رهن الاعتقال. وعلينا ألا ننسى أن الحركة الإصلاحية لاقت، في بداية أمرها تشجيعاً من السلطة الائتلافية. وعندما سقط الائتلافيون من مراكزهم استمرت الحركة الإصلاحية دون أن تعدل شيئاً من خطها ومسارها، بل ازدادت تصلباً في أيام الحكم الجديد الذي كان حكماً عسكرياً أكثر منه مدنياً. وفي ظل كل المعطيات الجديدة التي أفرزها صدام نيسان ١٩١٣ لم يكن غريباً أن يصرح أحمد مختار بيهم أحد أبرز الزعماء الإصلاحيين في بيروت قائلاً: «إننا لا نفتر عن طلب الإصلاح بجميع الوسائط المشروعة ما دام فينا عرق ينبض لاعتقادنا أن به وحده حفظ البلاد وحياتها»(٣٤). ●

الهوامش

(١) من قصيدة للشاعر «الأستاذ الغلاييني» الذي يصح اعتباره مع بعض التحفظ، شاعر الحركة الإصلاحية.

(٢) بدا تنفيذ المخطط الإصلاحي «ميدانياً» منذ اللحظة الأولى لوصول الوالي حازم بك، في ٧ آذار ١٩١٣، مرفأ بيروت، إذ لم يجد الوالي في استقباله هناك غير الموسيقى العسكرية، وثلة من الجند، وبعض الأصدقاء والمريدين: انظر المفيد ٩ آذار ١٩١٣.

(٣) يحتوي هذا البيان على خلاصة لأعمال الجمعية وهي كما يلي:
أولاً: السعي في تعميم فكرة الإصلاح مستعينة على ذلك بالجرائد المحلية فضلاً عن طبعها اللائحة باللغة العربية وتوزيع عشرة آلاف نسخة منها في بيروت وغيرها من مدن الولاية. وعدا ذلك، فإنها قد ترجمت عشرة آلاف نسخة منها في بيروت وغيرها من مدن الولاية. وعدا ذلك فإنها قد ترجمت هذه اللائحة إلى اللغتين التركية والفرنسية وأرسلت نسخاً منها إلى جرائد مصر والآستانة وغيرهما».
«**ثانياً**: تنبهت اللجنة إلى ضرر وجود الأحزاب السياسية في هذه البلاد على صورتها السابقة فسعت لدى لجنة نادي الحرية والائتلاف راغبة إليها في إقفال النادي وحل الحزب للانصراف إلى خدمة الاصلاح الداخلي، ليمتنع كل خلاف وشقاق بين الأهالي من جراء وجود الأحزاب السياسية التي لا نفع منها للولايات، فنجحت في مسعاه ».
ثالثاً: سعت اللجنة أيضاً لدى أصحاب الجرائد ورؤساء تحريرها ففازت بجمع كلمتهم، فظهرت جرائدنا بمظهر جميل، إذ تبادل أصحابها ومحرروها المقالات الافتتاحية وكلها بعنوان واحد جليل مغزاه وكبير معناه...
«**رابعاً**: افتتحت اللجنة المساعي اللازمة لانفاذ مشروع الإصلاح بإرسالها إلى حضرة حازم بك والي بيروت الموجود في الآستانة تلغرافاً تسأله فيه الاهتمام بإعداد الحكومة لقبول لائحة الإصلاح التي قررتها الجمعية».
«**خامساً**: سترفع صورة من لائحة الإصلاح باللغة التركية مع رسالة إلى كل من الصدر الأعظم وناظر الداخلية ملتمسة فيها استصدار الإرادة السنية المؤذنة بوضع قانون بمضمون اللائحة: «انظر المفيد، السبت ٨ آذار ١٩١٣».

(٤) المفيد، الثلاثاء، ٤ آذار ١٩١٣.

(٥) إذا كان صحيحاً أن الحركة الإصلاحية قد بدأت كتجمع وجهاء مبني على «وفاق» بين المسلمين والنصارى البيروتيين على أساس من قبول هؤلاء وأولئك لشروط الطرف الآخر (انظر محمد علي بيهم، قوافل العروبة ومواكبها... ج ١، ص ٢٢) فإن الحركة في اجتماع لها، في أواخر ك ٢ ١٩١٣، قررت التحول إلى حركة سياسية «تبقى رقيبة على مصالح وحاجياتها وكل ما يعوزها من الإصلاح» (انظر المفيد الأحد ٢ شباط). وفي ضوء هذا التطور الذي أصابته الحركة يصبح اعتبار تقديم الوثيقة المذكورة إلى القنصل الفرنسي انشقاقاً، ولو انه بقي سرياً أي في الخفاء، ولم يعلن على رؤوس الإشهاد، ولم يعلم به الطرف الآخر.

(٦) المفيد السبت ٣ آذار، من الأعضاء الجدد في الجمعية الأمير مصطفى أرسلان الذي ترأس اجتماعاً حاشداً للجمعية في يوم الأحد ٢ آذار وفي هذا الاجتماع تقدم أيوب ثابت باقتراح يقضي بتأسيس «النادي الإصلاحي».

(٧) المفيد الأحد ٢ آذار ١٩١٣، ولكن يجب أن نشير هنا إلى أن سليم علي سلام لا يشير إلى عملية الإرسال (اللائحة)، هذه، في مذكراته.

(٨) يكرس هذا الانتخاب عمومية الحركة الإصلاحية، أي جماهيريتها وذلك إذا فضلنا استخدام كلمة تعود إلى القاموس السياسي المعاصر: انظر مذكرات أبي علي سلام، ص ٢٣.

(٩) هذه النقطة ترتدي طابع الأهمية، وخاصة انه توقف عليها، في عام ١٩١٦، مصير أحد أكبر زعماء الحركة الإصلاحية، سليم علي سلام الذي نفى، أثناء اعتقاله أمام جمال باشا أن تكون حركته وافقت على اقتراح اللامركزيين (انظر مذكرات أبي علي سلام، ص ٤٧). وما استطعنا أن نفهمه مذكرات أبي علي سلام ص ٢٣) أن الهيئة الإصلاحية اكتفت

بتأجيل البت في موضوع الاقتراح إلى ما بعد انجلاء مستقبل الحركة. فقد كان الإصلاحيون يومها، منهمكين بمتابعة «معركة» المجابهة بينهم وبين السلطات العثمانية. وقد أسفرت هذه المعركة عن حل الجمعية العمومية الإصلاحية ومنع اجتماعاتها وإغلاق ناديها كما سنبين في الصفحات التالية من هذه الدراسة.

(١٠) مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٣.

(١١) مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٣ ــ ٢٤ / انظر أيضاً المفيد الصادرة يوم الأربعاء في ٩ نيسان ١٩١٣ / انظر أيضاً لسان الحال الصادرة في اليوم ذاته.

(١٢) مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٣ ــ ٢٤.

(١٣) د. وجيه كوثراني، المرجـع السابق، ص ٢١٠.

(١٤) وقـع على هذه البرقية جميـع أعضاء الهيئة الإصلاحية باستثناء جان بك تويني الذي كان مسافراً في أوروبا. انظر المفيد ١٢ نيسان ١٩١٣. انظر أيضاً مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٤ ــ ٢٥.

(١٥) يذكر كوثراني «المرجـع السابق ص ٢١٠» أن عدد الموقعين على البرقية بلغت ١٢٠٠ بيروتي، في حين يذكر أبو علي سلام أن عدد الذين وقعوا البرقية يبلـغ نحو ٥٠٠ بيروتي. انظر مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٥.

(١٦) انظر مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٥. انظر أيضاً المفيد ١٢ نيسان ١٩١٣. انظر كذلك لسان الحال ١٢ نيسان ١٩١٣.

(١٧) مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٥ ــ ٢٦.

(١٨) يذكر وجيه كوثراني (المرجـع السابق، ص ٢١١) نقلاً عن كتاب لتوفيق برو... إن عدد المعتقلين، مساء الجمعة ١١ نيسان كان ستة ويذكر أسماء أربعة منهم هم اسكندر عازار، زكريا طبارة، رزق الله ارقش، سليم طبارة، (الصحيـح في رأينا أن الاسم الأخير هو سليم الطيارة، إذ لم يكن بين الشخصيات الإصلاحية رجل باسم سليم طبارة: انظر مذكرات أبـي علي سلام ص ٢٦). ويذكر الكوثراني أيضاً أنهم كانوا جميعاً من أعضـاء اللجنة الإصلاحية وليس ذلك صحيحاً فإثنان منهم فقط كانا أعضاء في اللجنة الإصلاحية (الهيئة الإصلاحية) وهما رزق الله ارقش واسكندر عازار، أما المعتقلون الثلاثة الآخرون فكانوا من محازبـي الحركة الإصلاحية ومؤيديها. بالإضافة إلى ذلك وجدنا تناقضاً بخصوص كيفية الاعتقال بين رواية أبـي علي سلام ورواية جريدة المفيد فأبو علي سلام يشير في مذكراته (التي دونها معتمداً في الغالب على ذاكرته)، ص ٢٦ ان الأشخاص الذين جرى اعتقالهم قد استسلموا بمحض إرادتهم إلى السلطات أما جريدة المفيد الصادرة بعد ثلاثة أيام فقط من عملية الاعتقال فليس في روايتها ما يشير إلى عملية الاستسلام الاختياري إلى السلطات وإنما تذكر فقط انه جرى استحضار المعتقلين وهؤلاء كان عددهم في رأينا خمسة فقط كما ينص، صراحة، تلغراف الوالي حازم بك إلى الصدارة العظمى وإلى وزارة الداخلية، انظر المفيد ١٥ نيسان ١٩١٣.

(١٩) مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٦.

(٢٠) جريدة المفيد الإثنين ١٤ نيسان ١٩١٣.

(٢١) وجيه كوثراني، المرجـع السابق، ص ٢١١.

(٢٢) المفيد، الإثنين ١٤ نيسان ١٩١٣.

(٢٣) وجيه كوثراني، المرجـع السابق، ص ٢١١.

(٢٤) مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٦ / انظر أيضاً كوثراني المرجـع السابق، ص ٢١١.

(٢٥) مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٦.

(٢٦) المرجـع نفسه.

(٢٧) المفيد الثلاثاء ١٥ نيسان ١٩١٣.

(٢٨) المرجع نفسه.

(٢٩) المفيد الثلاثاء ١٥ نيسان سنة ١٩١٣.

(٣٠) المفيد الثلاثاء ١٥ نيسان ١٩١٣.

(٣١) مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٧.

(٣٢) المفيد الثلاثاء ١٥ نيسان ١٩١٣.

(٣٣) المفيد الأربعاء ١٦ نيسان ١٩١٣.

(٣٤) المفيد الأربعاء ١٦ نيسان ١٩١٣.

(٣٥) المفيد الخميس ١٧ نيسان ١٩٠٣، وكتعبير عن الاستياء والسخط قام بعض البيروتيين بتسيير كلب في طرقات بيروت، وقد كتب عليه اسم الوالي جازم بك. فاستاءت حكومة الولاية من هذا العمل وأقدمت على اغتيال أحد الإصلاحيين زكريا طبارة في ليل الرابـع عشر من أيار ١٩١٣. انظر مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٧.

*** صور مدينة بيروت مأخوذة من كتاب «بيروت المحروسة في العهد العثماني» للدكتور حسان حلاق.**

مَن هُم آشوريّو اليوم؟

إعداد: محمّد الدّنيا



يشكل الآشوريـون واحداً من أقـدم شعوب العالم. وقـد بلـغ عددهم في السبعينيات نحو ما يزيد على المليون. وتعيش غالبية الآشوريين اليـوم في الشرقـين الأدنى والأوسـط: إيران، والعـراق، وتـركيـا، وسـوريا، ولبنـان، ومصر، والأردن، والكويت وفلسطين. كما استوطنت جماعات صغيرة منهم في أمريكا اللاتينية، والسويد، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا الغربية، واليـونان، وأستـراليا. ويبلـغ عـددهم في الاتحاد السـوفييتي نحو ٢٥ ألف شخص. إن الجزء الشمالي من العراق، الذي أسماه اليونانيون القدماء «شـور» هو المـوطن التاريخي للآشورين. لقد عاشت مملكـة شور قرابة ٢٠٠٠ عـام. وإليها ينسب الآشـوريون أنفسهم، ومنهم اسمهم.

لقد راحت الأمبراطورية الآشورية، التي كانت امبراطورية قوية تمتد من حدود العراق إلى مصر، تشهـد ضعفهـا بسبب الحـروب المتتـاليـة والصراعات الداخليـة. وأخيراً، سقـطت تحت ضربات الميديين والبابليين المتضافرة. مـع ذلك، عرف الشعب الآشوري كيف يحتفـظ بثقافـة أصيلة، وتراث وتقاليد وسمات أخرى لا تخلو من الفن والجمال، وملامـح وخصائص هي وليدة تاريخهم وحده.

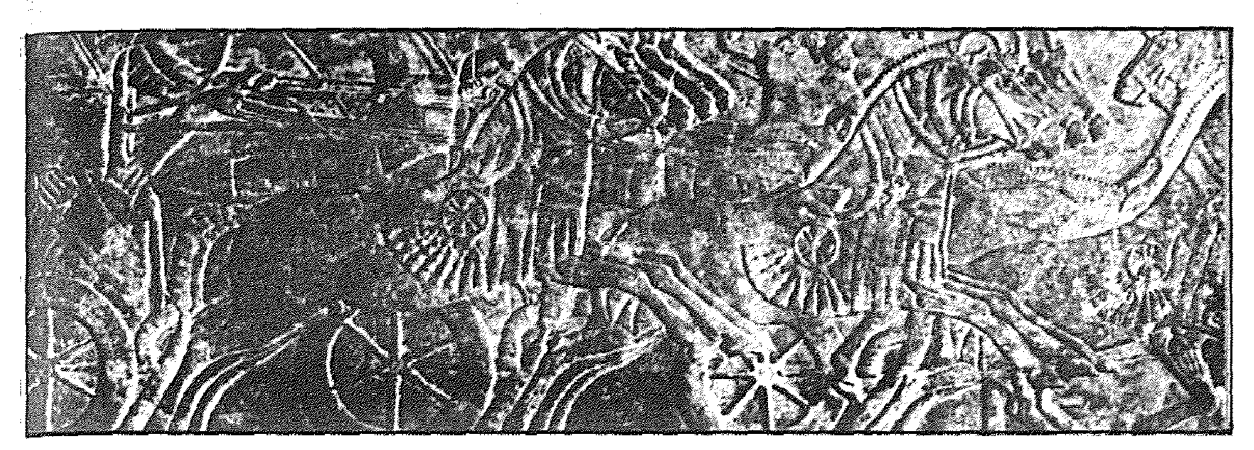
استمر التئام الآشوريين داخـل إطار دولة واحدة نحو ألفي عام. وكان هذا الامتداد الزمني الطويـل ملائمـاً جداً لسيـرورات اندمـاجهم، وبوسعنا القول إنه أوجـد المقومات لاستقرار العرق الآشوري ودوامه.

وفي عهد الرق، كان الشعب الآشوري مكوناً من عنصرين: الآشوريـون والأراميون، الذين انصهروا في عرق واحد، مـع هيمنة الثقـافة الآشورية، الأقـدم والأقوى. وعشيـة احتضار الأمبراطورية، كان الشعب الآشوري مجتمعـاً قوياً قوامه عدة ملايين من الأفراد وذا علاقات طبقية متميزة. لقد ميزته وحدة الأرض، والثقافة، ورابطة اللغة المشتركة التي شهـدت انتشاراً واسعـاً نسبياً آنـذاك، والوعي العرقي، ومنـع زيجات القرابة والعصب. ومن هنا كان انبعاث الآشوريين متجدداً، فتجنبوا خطر الزوال والتمثل بعد سقوط الأمبراطورية.

تتمة التاريـخ الآشوري كانت على ارتباط وثيق بمصـير الأمبـراطوريـة الرومـانيـة، ومن ثم الأمبـراطورية البيـزنـطيـة، ودولة الأخمينيـين الفارسية، والبارتيين، والساسانيـين، والخلافـة العربية، والأمبراطورية العثمـانية. ولما كانـوا جماعة عرقية مرتبطة بـالتشكيلات السيـاسية ـــ الدولية، فإن الآشوريين أصبحوا أقلية عرقية، ثم دينيـة، مضطهـدة، ومعـرضـة ليس فقـط للاستغلال، بل للإبـادة أيضاً. لقـد اضطرهم الوضـع النوعي الذي عاشوه إلى البحث عن أشكال مقاومة الاضطهـاد. وفي القرن الأول، انتشرت المسيحية في سـوريا، وبـلاد ما بـين النهرين، وإيران، وكان الآشوريون من بين أوائل من تحولوا إليها.

ها هي إذن الكنيسة بدلاً من الدولة، التي أضحت وثاق العرق وباعث لحمته، ومن هنـا الخاصية الرئيسية لتطور الشعب الآشوري نحو الأقلية العرقية. وبعيـداً عـن الدولة، وفي غياب الزعامة المدنية، التف الآشوريون حول الكنيسة، ومنذئذ، امتزج التاريـخ الزمني بتاريـخ الكنيسة الآشورية. وهنا إذن، كانت المسيحيـة بمثابـة العامل الـذي أمن ثبات العرق واستمراريته.

وفي القرن الرابـع، أضحت المسيحية دين الدولة في بيزنطة، التي كانت تضم الأراضي التي قطنها الآشوريون. وكان للاضطهـاد القـومي، والاجتماعي، والاقتصادي الذي لقيه هذا العرق نتائـج محددة. لقد برز استياء الآشوريين عبر الصراع ضد المسيحية الأرثوذكسية البيزنطية: تحت شكل البدعة النسطورية في القرن الخامس، والطبيعة الواحدة (للمسيـح) «اليعاقبة» في القرن السادس، والمارونية في القرن السابـع. وفي القرن



□منحوتة مجسمة، لإحدى معارك ملوك آشور، تمثله وجنوده يخوضونها ظافرين.

السادس عشر، أسس الآشوريون كنيسة آشورية ــ كلدانية متحدة مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وفيما بعد، كنيسة كاثوليكية.

وبسبب هذه الانشقاقات، بشكل خاص، اتخذ الوعي العرقي عند الآشوريين، وعلى نحو متنام، طابعاً دينياً في غالب الأحيان جعلهم يسمون نسطوريين، ويعاقبة، وموارونيين، وكلدانيين، وكاثوليك، وسوريين. وعلى هذا النحو تسميهم الشعوب الأخرى. إن الآشوريين المعاصرين هم ورثة تاريخ وثقافة عريقين. ففي آشور كانت قد أوجدت لأول مرة في العالم منظومة علم تنظيم وإدارة المكتبات، والمكتبة العامة التي أسسها الملك آشور بانيبال، آخر كبار ملوك آشور ٦٦٩ ــ ٦٢٠ ق.م. كانت المكتبة العامة موجودة في نينوي، عاصمة المملكة، وقد ضمت بضع عشرات من آلاف اللويحات الفخارية. وندين للآشوريين بالعديد من وقائع الأخبار والحوليات التي أمكن بفضلها إعادة كتابة تاريخ آشور والبلدان المجاورة.

كانت الكتابة المسمارية أولى الكتابات التي اخترعها الإنسان. وقد ألف الآشوريون المعاجم القياسية والكراسات لدراسة اللغة. واتضحت فلسفة الآشوريين. في العديد من المؤلفات الأدبية والميثولوجية.

وفي ذروتها، كانت الأمبراطورية الآشورية تضم فوق أراضيها العديد من الشعوب والبلدان. وللحفاظ على سلطتها، لزم وجود جيش هام، حيث تشير مصادر عديدة إلى أن عدد أفراده قد وصل إلى ٤٠٠٠٠٠ رجل، بين مشاة وخيالة ورجال هندسة، إضافة إلى الكثير من العربات. وكان الإبراق، أي نظام النار المشتعلة بطول الطرق الملكية، مستخدماً على نطاق واسع في مملكة ذلك الوقت. وبهذا كان ممكناً إنذار نينوي ووقايتها من الأخطار الوشيكة، والغزوات، والكوارث الطبيعية.

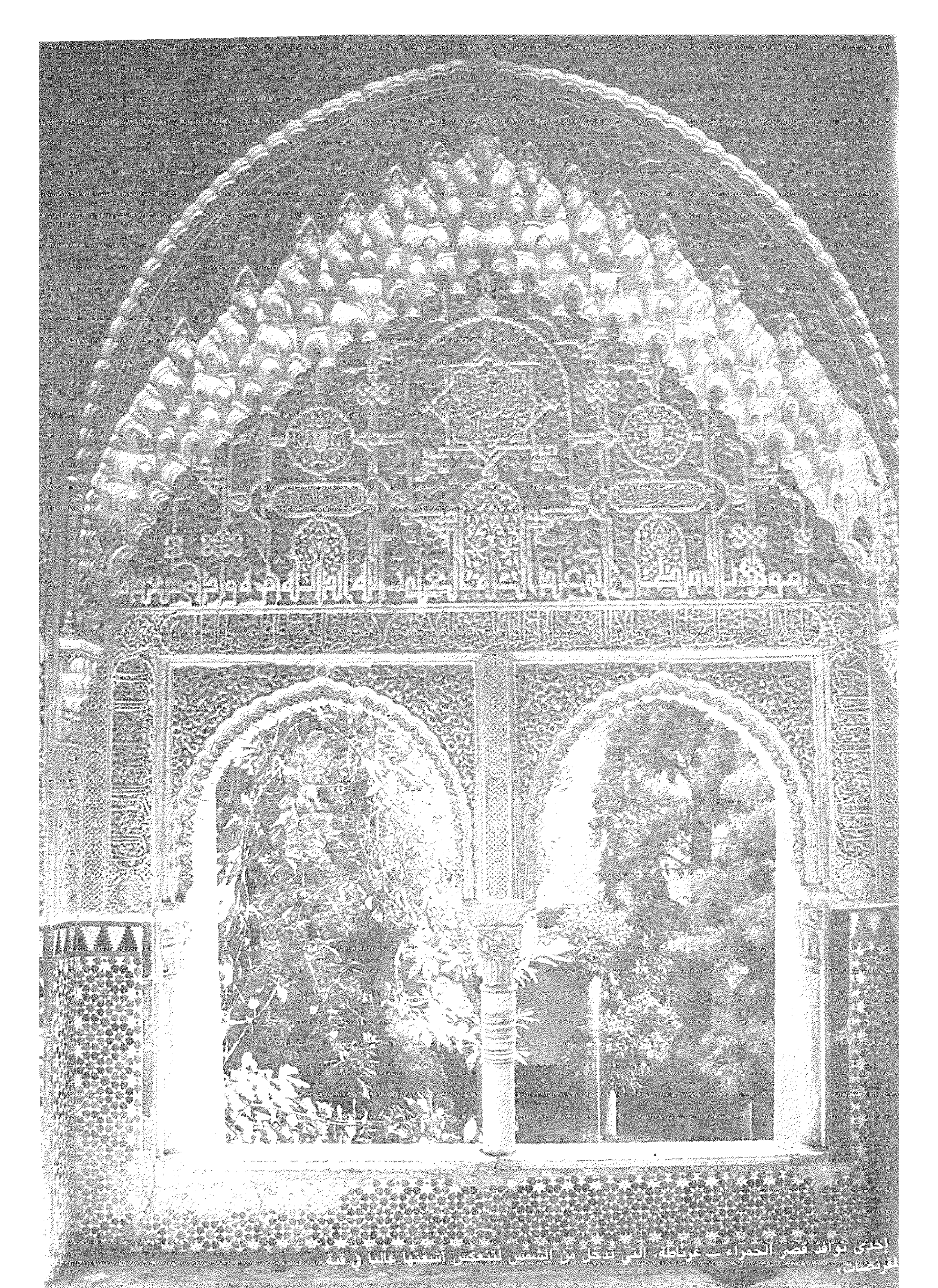
كان الإعلام يتم أيضاً عن طريق محطات الخيل، وهي منظومة أبدال مركزة بطول الطرق، حيث كانت توجد على الدوام أفراس مرتاحة وجاهزة لتنفيذ المهام، ورسل وعربات.

وكان الطب منذ القديم على جانب كبير من التطور، حيث عرفوا كيف ينتزعون الودقة (نقطة في قرنية العين) من العين، وأجروا العمليات الجراحية للأورام، وقوموا الكسور. وكانوا يرمزون إلى الطب بثعبان يلتف حول الصولجان.

وفي العصور الوسطى، لعب الآشوريون دوراً من الطراز الأول في نشر المسيحية والثقافة في آسيا الوسطى، ومنغوليا، والصين، والهند، وفي إرساء الروابط بين الشرق وأوروبا. وفي هذه الفترة، منحوا العالم كتاباً كباراً، وشعراء، وعلماء لاهوت، وفلاسفة، وأطباء، وعلماء رياضيات.

وساهم الآشوريون، أكثر من مرة، في الكفاح من أجل الحرية والاستقلال، وليس أدل على ذلك أكثر من الثورات التي قاموا بها في العصر الحديث، بما في ذلك ثورتهم ضد العثمانيين، التي ذهب ضحيتها ٥٠٠ ألف آشوري.

وتميزت حركة التحرر الآشورية لفترة ما بعد الحرب بتعزيز وحدتها مع شعوب الشرقين الأدنى والأوسط التي كانت تكافح من أجل الحرية والتقدم.



إحدى نوافذ قصر الحمراء ـ غرناطة، التي تدخل من الشمس لتنعكس أشعتها عاليا في قبة المقرنصات.